وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية العلوم السياسية



المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

في هذا العدد

السنة الثانية العدد الخامس خريف ٢٠٠٦

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية العلوم السياسية



المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسة -الجامعة المستنصرية

السنة الثانية | العدد الخامس | خريف ٢٠٠٦

ISSN = 1991-8984

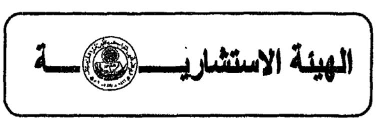
رقم الايداع

في المكتبة الوطنية

٨١٠ في ١٨ كانون الثاني ٢٠٠٥

المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية



قواعد النشر

ترحب المجلة السياسية والدولية والتي تصدرها كلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية بإسهامات الكتاب والمفكرين من الكليات في الجامعات العراقية والعربية والمتخصصة بالقضايا السياسية والعلاقات العربية-العربية والعربية-الدولية، مع الاهتمام بشكل خاص بما يتعلق بالمشروع السياسي والحضاري والنهضوي العربي وتحيطكم علماً بشروط النشر فيها:

١. ان تعالج القضايا باسلوب علمي موثق.
٢. ان يكون التوثيق بذكر المصادر والمراجع باسلوب اكاديمي، يتضمن الكتب والمجلات.
٣. معيار النشر هو الموضوعية والدقة ودرجة التوثيق.
٤. ترسل البحوث بنسختين مع قرص مرن.
٥. ان لا يزيد حجم الدراسة او البحث عن اربعة عشر صفحة A4.
٦. يشترط ان لا تكون البحوث او الدراسات قد نشرت في مجلات اخرى.
٧. تخضع البحوث او الدراسات المرسلة الى التحكيم العلمي من جانب الهيئة الاستشارية في المجلة.
٨. تحتفظ المجلة بحقها في نشر المادة المجازة وفق خطة التحرير.
٩. لا تدفع المجلة او الكلية أي مكافآت مالية عما تقبله من النشر فيها ويعتبر النشر اسهاماً معنوياً من الكاتب.

إن الآراء الواردة في البحوث والدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة او الكلية

الاشتراك في المجلة تراجع كلية العلوم السياسية – الجامعة المستنصرية

بغداد– باب المعظم – صندوق بريد ٤٦١٥٩

هاتف ٤١٤٠٨٥١ ، ٤١٤٠٨٥٢ ، ٠٧٩٠١٩٢٣١٥٤

البريد الالكتروني : Psc Mustainsiriyah@yahoo.com

المحتويات

كلية العلوم السياسية
الجامعة المستنصرية



المجلة السياسية والدولية

5

خريف ٢٠٠٦

ISSN
1991-8984



الافتتاحية

واذ نضع العدد الخامس بين يدي القارئ العزيز، تكون كليتنا قد انطلقت في عامها الدراسي الثاني مؤكدة، رغم الظروف الحرجة، على استمرارية عطاءها العلمي والاكاديمي، وذلك في تقديم وعرض باسلوب علمي وموضوعي ما يستجد من احداث وقضايا تتطلب التحليل المنهجي لمقدماتها ونتائجها، وتأثير ذلك على الاوضاع السياسية والاجتماعية، الامنية ليس في العراق وحده، وانما في نطاقها الاقليمي والدولي، حيث الترابط والتشابك، وكذلك التشابه بين المصالح والمخاطر المحدقة بعالم اليوم، الى درجة لا يمكن ان تنفرد اية دولة، مهما امتلكته من عناصر القوة، ان تتصدى للتهديدات والمشاكل المستجدة كل يوم، الامر الذي يتطلب التعاون وتظافر الجهود على اساس الحوار البناء المفضي الى ارساء القواعد المشتركة للحلول الشاملة الجذرية، ونبذ الافكار المسبقة والنظرة الاستعلائية في التعامل، والطروحات غير الواقعة المفترضة لصراعات وهمية لم تكن معشعشة الا في العقول الغربية بغية تبرير سياسات ومشاريع معدة للهيمنة والسيطرة. وبناء على ذلك، فقد كرس هذا العدد لتناول جملة من المواضيع التي تعتبر التساؤلات العديدة حول ما يجري حولنا، وخصوصاً عن صراع الحضارات والرؤية العربية لهذه المقولة التي ما زال النقاش دائر حولها، في الوقت الذي استمر فيه الطرح عن المشاركة السياسية من منظور تنموي باعتبار ان حلها لا يشكل فقط مفتاحاً للتخلص من التخلف، وانما طريقاً نحو الامن والاستقرار. كما خصصت المجلة موضوعاً لتناول النظرية الاتحادية حيث نظرية الاتحاد الفيدرالي، ونظرية الاتحاد الكونفدرالي، ونظرية الاتحاد المختلط تسترعي الانتباه في البحث والمناقشة انسجاماً مع ما يجري على ارض الواقع السياسي العراقي، والاقليمي

· الذي انشغل منذ فترة وما يزال بالملف النووي الايراني وتأثيراته التي امتدت خارج المحيط لترمي بثقلها على الوضع الدولي، وهو ما دفع المجلة ان تكرس دراسة لتناول تأثير القدرة النووية الايرانية على الترتيبات الاقليمية، اذافة الى المواضيع الاخرى ذات الطباع الفلسفي والتي ما زال الجدل قائماً حولها، حيث الفكر الفلسفي عند الصوفين دراسة في مفهوم البطل. كما افردت المجلة حقلاً ثابتاً لعروض الكتب الحديثة التي يمكن ان تقدم للقارئ ما هو جديد في دور النشر...

والله الموفق........

المشرف العام

الأستاذ الدكتور

ناظم عبد الواحد الجاسور

عميد كلية العلوم السياسية – الجامعة المستنصرية

صراع الحضارات والرؤية العربية

الاستاذ الدكتور
ناظم عبد الواحد الجاسور(*)

مقدمة:

لم يمض على صدور مجلة فورين افريز الامريكية وهي تحمل بين صفحاتها مقالة صموئيل هنتنغتون حول صراع الحضارات، حتى بدأت الردود العربية تصدر في صفحات هذه المجلة او تلك، وعقدت لذلك العديد من الندوات والحلقات النقاشية التي كان محورها دحض كل الفرضيات و"التنبؤات" التي اطلقها لترويج الافكار والطروحات التي حفلت بها "صراع الحضارات". ومن خلال عدم اتساع هذه الدراسة بكل ما نشر وكتب، فاننا سنقتصر على تناول عدد منها، يساعدنا في تسليط الضوء على الرؤية العربية حول ما طرحه هنتنغتون، مع الاشارة للاطلاع اكثر للمصادر الاخرى التي كرست لهذا الغرض.

"وظائفية الخطاب الاستراتيجي الامريكي"

يؤكد وجيه كوثراني في رده الذي جاء تحت عنوان: صدام الحضارات ام ادارة ازمات؟ ان هنتنغتون في الوقت الذي يعترف بالحضارة الاسلامية طرفاً في الصراع العالمي، فانه يدحض نظرية "نهاية تاريخ" التي طرحها فرانسيس فوكومايا، حيث كان محورها انتصار الليبرالية كنهاية لصراع الايديولوجيات في العالم. ويشير كوثراني ان صدام الحضارات هي الدعوة الى نمط من التعايش مع نوع من الازمات في العالم مرشحة لان تتفاقم وتدوم[١].

ويضيف كوثراني بأنه بين مقالة امريكية تبشر بنهاية التاريخ ومقالة اخرى امريكية ايضاً تقول ان التاريخ لم ينته، اقل من سنتين، وفي الحالتين نلاحظ ان ثمة ضجيجاً اعلامياً، وان ثمة استتباعاً فكرياً ومنهجياً تفرضه مراكز التفكير الاستراتيجي في العالم على التفكير المحلي في اطراف العالم. وهذا "الفرض" او التوجيه الاعلامي يأتي من اجل التفكير في وظائفية الخطاب الاستراتيجي الامريكي وعندما يراد لهذا الخطاب ان يكون حدثاً مركزياً او خطاباً محورياً لادارة النقاش العالمي وتوجيهه[٢].

(*) عميد كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

(1) صدام الحضارات، ملف خاص، مجلة شؤون الاوسط، العدد ٢٠٠١/١٠٤، ص١٩.

(2) المصدر نفسه، ص٩٢.

ويؤكد بأن الغرب حاول اقتحام الشرق الاسلامي بكل الادوات والاساليب ومنها الثقافية الا انه وجدت ونمت في العالم الاسلامي اشكال الممانعة ذات الابعاد التاريخية والاجتماعية والثقافية. ويتساءل كوثراني هل ان هذه "الممانعة" تسمى صداماً في الحضارات[٣]؟

ويضيف كوثراني ان عناصر الصدام التي يعددها هنتنغون ليبني عليها فرضيته لا تندرج في نسق ومفهوم الحضارات، انها تعبير عن ازمة نظام عالمي يمر في "النقطة الحرجة" التي نجعل منه على حد ما يقوله الباحث الفرنسي الاستراتيجي بيار لولوش Pierre Lelloche "فوضى الأمم".

وان ما يقترحه هنتنغون بصيغة الدعوة الى تعايش الحضارات واحتواء اسباب انفجارها هو نوع من سياسة "ادارة الازمات" في "كوكب الفقراء الذي تتفجر فيه الديمغرافية والثقافات (التي يمتزج فيها الديني والسياسي). واما عن دور مقالته (الجديدة-القديمة) فان كوثراني يصفها، بانها نوع من ادارة النقاش الفكري والثقافي ومحورية حول "مركز الخطاب الاستراتيجي" الامريكي، انه نوع من "ادارة الازمة" من باب الفكر والثقافة[٤].

وفي الدراسة التي اسهم فيها الدكتور غسان سلامة في الرد على اطروحات صدام الحضارات، والتي جاءت تحت عنوان "الاسلام والغرب"، فانه انطلق من ان خبراء الاستراتيجية الغربيون عكفوا بعد انتهاء الحرب الباردة لتحديد عدو جديد للغرب، ولم يجدوا أي صعوبة في ان الاسلام، في الوقت الذي لم يتوفر لدى هؤلاء الخبراء الا معرفة ضئيلة عن الاسلام من "انه نظام قديم شديد المثالية يدفعه في ذلك جزئياً النفور من الوضع الدولي الراهن"[٥]. ومن خلال استعراضه للاوضاع الحالية للانظمة السياسية العربية التي حصلت على استقلالها من السيطرة الاستعمارية وما واجهته من مشاكل سياسية في اطار التنمية والديمقراطية الامر الذي ادى الى بروز تأثيرات سلبية على ادءها الخارجي، وضعفها، او هزائمها امام العدو الصهيوني، مما يعزز من مكانة بعض التيارات والحركات السياسية الاسلامية التي مثلت البديل لفشل هذه الانظمة "القومية" و"اليسارية"، مما افضى الى ظهور "تحدي اسلامي" برز في السودان، والجزائر، ومصر، ووقفت مع العراق خلال حرب١٩٩١، ووجدت في ايران الدعم الكافي، وكانت افغانستان الساحة التي كشفت عن قدرة "الاسلاميين" عن الفوز بحرب ضد قوة توسعية خارجية. واستخلص الاسلاميون، وحسب ما يؤكد

---

(3) المصدر نفسه، ص٩٣.

(4) المصدر نفسه، ص١٠١.

(5) غسان سلامة، الاسلام والغرب، بحث منشور في كتاب صموئيل هنتنغون "الاسلام والغرب، افاق الصدام"، ترجمة مجدي شرشر، مصدر سبق ذكره، ص٩٩-١٠٠.

سلامة، نوعاً جديداً من الدروس من فصول الرواية الجزائرية في انه: عليكم الا تثقوا في الانظمة المحلية او الحكومات الغربية عن دعوتها لاجراء انتخابات ديمقراطية[٦]. ان "ثمار القمع" ضد التيارات القومية والليبرالية والماركسية التي مارستها الانظمة السياسية العربية اوجدت فراغاً سياسياً فكرياً، افسح المجال "للاسلاميين" ان ينزلوا الساحة لتحدي الانظمة والقوة الغربية المتحالفة معها. ومن جانبه يبدو الغرب وقد اصابه "التحدي الاسلامي" بالضيق الكامل كما هو حال حكومات الدول الاسلامية، الا نفاق الغرب وازدواجية معاييره جعلته في حالة تخبط وقصر النظر.

ومن هنا، فان الدكتور غسان سلامة، ومن اجل ان تخرج الحكومات الغربية من نفاقها، وتحدد مخرج واقعي، يجب عليها ان تسعى لمعرفة من هي الجماعات الاسلامية، وماذا تفعل، ولا يمكن تحقيق ذلك اذا ما ظلت وجهات نظر الغرب تجاه التحدي الاسلامي تتبع فقط من منظور التهديد الامني. فغالبية ما ينظر الى الجماعات الاسلامية مجتمعة باعتبارها تمثل تهديداً واحداً للمصالح الغربية. كما انه يجب على الغرب ان يعي ان نموذجه الخاص بالدولة القومية العلمانية ليس نموذجاً عالمياً كما يفترض بل وربما كانت الاشكال الاخرى للمنظمات السياسية اشكالاً شرعية وحتى لو كان العالم من الناحية الاستراتيجية قد اصبح عالماً غير متعدد الاقطاب، فانه لايزال متعدد الاقطاب في المجال الثقافي. وغالباً ما تمت معادلة الانتصار الغربي في الحرب الباردة (كما يدعي فوكوياما) بشكل خاطئ بأنتصار النماذج السياسية والثقافية الغربية[٧].

ويضيف الدكتور سلامة بأن "التهجم الغربي على الاسلام والنماذج السلبية للمسلمين في وسائل الاعلام تثبت في اذهان المسلمين الوهم الجنوني بوجود مؤامرة غربية مزعومة للقضاء على الاسلام. ثم ان بعض الغربيين الذين ينصبون انفسهم خبراء (امثال برنارد لويس، هنتنغون...) يخدموم من حيث لا يعلمون مصالح اشد الاسلاميين تطرفاً عن طريق اسرافهم في الحديث عن تفرد الاسلام"[٨]. ويؤكد الدكتور سلامة بأنه ليس بوسع الحكومات الغربية الادعاء بأن معيارها الاخلاقي يفوق معيار القوى المناهضة للغرب، وحكوماته، وانتقائية بالفعل في اختيار الاعداء وكذلك في قرارات الامم المتحدة التي ترغب في تطبيقها، وفي السياسة التي تنتهجها ضد القضايا العربية وهي السياسات غير المنصفة تجاه الصراع العربي-الصهيوني، وتدخلاته العسكرية في المنطقة، حيث ان هذه التدخلات ينظرون اليها في الغرب باعتبارها نتاجاً لمصالح استراتيجية متنوعة الجدوى العسكرية والنواحي الموضوعية، لكن بالنسبة

---

(6) المصدر نفسه، ص١٠٩.
(7) المصدر نفسه، ص١١٩-١٢٠.
(8) المصدر نفسه، ص١٢١.

للمسلمين فعلى افضل الاحوال ليست الا تطبيقاً لتقليد قديم بأزدواجية المعايير[٩]. وعلى ضوء ذلك، فانه يجب على الغرب ان لا يفاجأ بعودة ظهور الكراهية الاسلامية للتدخل، وهذه الكراهية، وحسب رأي الدكتور غسان سلامة سوف، تتحول الى "تحد" امني ضد الغرب[١٠] وفي الندوة التي عقدها معهد اللغة والحضارة العربية في باريس، والتي نشرت مجلة المستقبل العربي اعمالها في عدد كانون الاول/ ديسمبر/ ١٩٩٨، تحت عنوان: صراع الحضارات ام تعدد ثقافات؟، فقد اشارت رباب لحسيني في بداية ادارتها للندوة بأن هناك مقولات عديدة ظهرت في الشارع الفكري والسياسي، كمقولة "النظام الدولي الجديد" وكذلك مقولة "نهاية التاريخ" لفرانسيس فوكويام' التي كان لها نصيب من الرواج بفضل قوة اجهزة الاعلام والترويج الغربية، ثم لم تلبث ان تلقت ما تستحقه من النقد والدحض، شأنها شأن مقولة هنتنغون حول صراع الحضارات، وفيها ينبأ بأن القرن القادم سوف يحكم الصراع بين الحضارات، وهو قائم على الاختلافات الثقافية والدينية والعرقية. وتلك المقولة تبدو محدوديتها في عدم قدرتها على تفسير الصراعات بين الدول الاوربية التي تنتمي الى الحضارة المسيحية الغربية، وكذلك في عدم قدرتها على تفسير الصراعات بين الصين واليابان في ظل الحضارة البوذية والكونفوشوسية[١١].

لقد شدد المفكر العربي محمود امين العالم على ان صموئيل هنتنغون وهو يتحدث عن صدام الحضارات، فان مفهوم الحضارات لديه مفهوم ثقافي خالص بل ديني خالص.. المسيحية هنا والاسلام والكونفوشيوسية هناك، ومن خلال استعراضه للعلاقة المفاهيمية بين الحضارة والثقافة، وكيفية تشكل ظاهرة العولمة، وهي نتيجة للطابع التوسعي لنمط الانتاج الرأسمالي، في الوقت الذي تبرز فيه الهيمنة من كونها نابعة من الطابع التنافسي للنمط الرأسمالي، حيث احتدمت صراعات المصالح التجارية بين الدول الرأسمالية حول الاسواق العالمية، والامر الذي ادى من جهة ثانية الى تفجر الاختلافات والتمايزات والخصوصيات والهويات القومية والعرقية والدينية والثقافية، ويحتدم الصراع في ما بينها، وبينها وبين الهيمنة الرأسمالية. وعلى ضوء ذلك فليس هناك الا حضارة واحدة ذات نمط رأسمالي، وهيمنة لبعض البلاد الرأسمالية الكبرى على هذه الحضارة العالمية، وفي اطار هذه العولمة والهيمنة تحتل صراعات المصالح التجارية والاقتصادية اساساً، وهناك صراع الهويات والخصوصيات وبين الهيمنة الرأسمالية. وخلاصة القول حسب ما يؤكده المفكر العالم، وهو انه ليس ثمة صراع

---

(9) المصدر نفسه، ص١٢٧.

(10) المصدر نفسه، ص١٢٨.

(11) صراع الحضارات ام تعدد ثقافات؟، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد ٢٣٨، ١٩٩٨، ص٧٥-٧٦.

حضارات في عالمنا في اطار هذه العولمة الحضارية الرأسمالية. فليس هناك صراع حضاري بين امريكا واليابان رغم اختلافهما الحضاري الكامل تاريخياً، بل يوجد صراع تجاري حاد..وليس هناك صراع حضاري بين امريكا واوربا، وليس هناك صراع حضاري بين امريكا وليبيا او بين امريكا وايران او بينها وبين أي دولة اخرى من دول العالم، وان اتخذ هذا الصراع مظهراً قومياً او دينياً او ايديولوجياً.. ان الصراع هو صراغ مصالح اقتصادية اساساً من اجل المزيد من التوسع والسيطرة وحل ازماتها الاقتصادية، وطمس الخصوصيات القومية والوطنية والثقافية في البلاد النامية وتوظيفها لخدمة مصالحها[١٢].

وفي مداخلة السيد ياسين في هذه الندوة، فانه بعد ان يقوم بالتتبع التاريخي الموجز للحوار بين الحضارات، وعن الحوار بين الحضارات ما بعد الحداثة، وعن الكونية والعلاقات المتعددة الاطراف واحياء القومية، يتساءل هل هناك صراع بين الحضارات؟ ويجيب السيد ياسين بأن سقوط الشيوعية واختفاء الاتحاد السوفيتي اجبر الولايات المتحدة على خلق "عدو جديد" الامر الذي ادى الى ظهور مفهوم الحروب الثقافية. ويشير الى انه في مقالته تحت عنوان "الدفاع عن الغرب" ذكر كاتبها ان الحل امام الغرب هو شن الحروب الثقافية وتكلم عن الاسلام وكان قبل هنتنغون باربع سنوات. ويشدد في ذلك بأن هنتنغون هو المقنن لما نسميه تيار العنصرية الجديدة في الثقافة الغربية. قمة فكر هذا التيار هو اختلاف الصراع بين الحضارات..وان الاسلام مرشح لكي يكون هو العدو الاول او الكنفوشيوسية. ويضيف بأن القضية لا تتعلق بالصراع المفتعل وانما تتعلق بالمعركة المقبلة حول انشاء قيم جديدة لنظام عالمي جديد[١٣].

"سقوط الصراعات التاريخية":

وبهذا الصدد فأن عبد النبي اصطيف يرى بأن كتاب صدام الحضارات بما ينطوي عليه من تكريس لمناخ الصراع والمجابهة بين الامم والشعوب ولاسيما تلك التي يرى فيها خطراً على "الانموذج الغربي" المزعوم يثير تساؤلات واشكالات لا نهاية لها، تشير جميعها الى جوانب مختلفة من الخلل الذي بات يعتوره التفكير الغربي في تدبره لعالمنا المعاصر. ويضيف بأن هذا الوضع القائم.وضع مثالي بالنسبة للغرب لانه يكفل له الحفاظ على الهيمنة على مقررات العالم، بل الكون، من خلال "النظام العالمي الجديد"، الذي هو-بحق- نوع متطور جداً من الامبريالية الجديدة ذات الجدوى الاقتصادية الواضحة. ومن اجل المحافظة عليه لابد من ترسيخ فكرة تميز الغرب عن

---

(12) المصدر نفسه، ص٧٨-٧٩.

(13) المصدر نفسه، ص٨٥-٨٦.

سائر العالم، وبالتالي تسويغ هيمنته وموقعه وافعاله فيه. ولابد كذلك من افتعال صراع مع أي مصدر خطر يمكن ان يشكك في تميز هذا الغرب او في تفوقه. وما دام الخطر العسكري قد زال بزوال الاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية التي انضوى معظمها الان تحت لواء حلف شمال الاطلسي، وما دام الخطر الاقتصادي المتمثل بالنمور الاسيوية قد تم احتواءه، فلابد من التفكير بخطر آخر، وليكن هذا الخطر هو الخطر الحضاري المتمثل بالحضارات الاخرى التي تحمل قيماً اخرى متباينة لقيم ما يسمى بالحضارة الغربية، وليكن العصر القادم عصر (صدام الحضارات)[١٤].

ويعتقد استاذ الفلسفة في جامعة دمشق الدكتور طيب تيزيني بأن اطروحة (صراع الحضارات) بقدر ما اثارت سجالاً واسعاً وظهرت اراء تفندها بوصفها "وهما" او بمثابة "نتائج كبيرة لافكار ووسائل استقراء هزيلة، ومقتبساً نصاً كتبه الاستاذ خالد القشطيني في صحيفة الشرق الاوسط (١٢٣ شباط ١٩٩٥) الذي اكد فيه بأنه (قلما وجدت بحثاً واهياً يفتقر الى العلم كما وجدته في اطروحة صدام الحضارات)، فان هذه (الاطروحة) تربطها صلة عميقة مع العولمة وما بعد الحداثة، وفي الاشارة الى الاسلام والكونفوشوسية فأن هنتنغون اختزل الحضارة الى دين، ونظر الى هذا الدين بمثابة اشارة signal الى عرق او سلالة، وهذا يؤدي، وحسب رأي تيزيني، الى الغاء التاريخ بوصفه سياقاً مفتوحاً، وهذا من شأنه ان يدخلنا في حقل هوية لا تاريخية او ميتاتاريخية من طرف، وعاجزة-في حال صراعها مع هوية اخرى من نمطها، عن تحقيق نمو مثمر مفتوح من طرف آخر. ويضيف تيزيني في معرض نقده ان لقاء مقولة "صراع الحضارات" مع منظومة "ما بعد الحداثة"[١٥] تتضح احتمالاته، والحال كذلك مع عملية انبعاث الهويات الاثنية، مع تأويل الحضارات على اساس اثني مغلق، وفي ضوء الاعتقاد بأن نمط التعايش فيما بينها يقوم على الصراع وحدة الاضراب وحده. وبالتالي فأن هذا التحليل يفضي الى ان مقالة هنتنغون تلتقي مع جان فرانسوا ليونارد في بحثه ما معنى الحداثة. ففي الحالتين كليتهما، نواجه رفضاً لمفهوم التقدم واللانساق او "الانماط" الشكلية[١٦].

ويؤكد الدكتور تيزيني ان اطروحة "صراع الحضارات" وان اكتسب على يد هنتنغون طابعاً محدداً بمعطيات العولمة الجديدة، فانها كانت ذات حضور ما في الفكر

---

(14) عبد النبي اصطيف، نقد "صراع الحضارات"، مجلة الاداب السورية/ دمشق العدد ٣/٤-آذار نيسان/ ٢٠٠١/ ص٦.

(15) طيب تيزيني، نقد "صراع الحضارات" و"ما بعد الحداثة"، مجلة الاداب السورية عدد ٣و٤، ص٩-١٠.

(16) المصدر نفسه، ص١١.

البرجوازي. وقد افصح هذا الحضور عن نفسه بأحد اوجهه ذات الخصوصية البالغة الحساسية على صعيد الصراع العربي-الصهيوني.

فلقد كانت المقولة التي اطلقها انور السادات تمهيداً لزيارته الى اسرائيل، وهي: "ان لنا ان نكسر الجدار النفسي بيننا وبين اسرائيل" تعبيراً مكثفاً عن وجهي الاطروحة الهنتنغونية المتلازمين: سقوط الصراعات التاريخية وما تستتبعه من بدائل تاريخية على مستوى النظام الاجتماعي الاقتصادي وبروز الصراعات "الحضارية" المفهومية اثنياً طائفياً مذهبياً الخ.. وفي هذه الحال، يفقد الصراع العربي-الصهيوني بنيته التاريخية (القائمة على مصالح عظمى تتصل بالوجود) ليتحول الى صراع ملتبس "حضارياً" أي دينياً ثقافياً يمكن رفعه وتجاوزه اذا ما تمت مكاشفة حميمية بين الفريقين[١٧].

يشير الاستاذ برهان غليون في دراسته "اصل التفاهم بين الاجناس" في اطار نقد "صراع الحضارات" و"حوار الحضارات"، الى ان الاعتراف بالتعددية الثقافية كذلك حوار الثقافات مسألة حتمية او ضرورية. فالعلاقات بين الثقافات هي انعكاس للعلاقات بين المجتمعات. ذلك ان الثقافة ليست هي التي تحاول بل المجتمعات- من ضمنها الافراد المهتمون بالحوار او المسؤولون عن شؤون الجماعة-والعلاقة الطبيعية بين متعددين هي بالضرورة علاقة صراع وتواصل معاً: صراع مع الاخر الغريب، وتواصل مع القريب. فلا قرابة من دون صراع بين الاخر، ولا صراع من دون هوية تبني حدود الذات والقريب والصديق. وموضوع الصراع بين الثقافات او بين الجماعات في الميدان الثقافي، وهو السيطرة على الرأسمال الرمزي الذي يشكل رصيد كل ثقافة، او هو التثقف الذي يستدعي السيطرة على مواقع استراتيجية في شبكة العلاقات والموارد الثقافية العالية.

وعلى ضوء ذلك، فان غليون يميز ما بين هذا الصراع الذي طرحه، والصراع الهنتنغوني، حيث يؤكد بأن مفهوم هذا الاخير الذي يربط الصراع بين الثقافات وبين الحروب او الصدام العام بين الجماعات فتجعل فرضية هنتنغون من الاختلاف الثقافي او التعدد الثقافي المصدر الاول للنزاعات والحروب العالمية. ويشير برهان غليون بأنه حسب نظرية هنتنغون، مرت البشرية عبر التاريخ بعدة انماط من الصراع. النمط الاول عبرت عنه الحروب الدينية، ثم جاءت الحروب القومية بين الامم المستقلة. ثم عرف الحرب العقائدية التي طبعت حقبة الحرب الباردة. والان نحن ندخل حقبة يأخذ فيها الصراع بين البشر شكل الحرب بين انساق ثقافة مختلفة. وهكذا ينبغي ان ننتظر عهداً تتواجه فيه، حتى الموت، حضارات كبيرة وقوية وعلمية. ومن الطبيعي ان لا يكون لمثل هذه الحرب أي مخرج سوى انتصار حضارة على اخرى،

---
(17) المصدر نفسه، ص١٢.

وفرض قيمها ومنظوراتها على الحضارات الخاسرة او المنكسرة. وفي هذه الحالة يصبح التعصب والانغلاق الثقافي والتمسك بالخصوصية الحضارية شرط النجاح في المواجهات القادمة[١٨].

وبناء على ذلك، من خلال هذا الصراع الذي تطرحه فرضية هنتنغون، فأن المطلوب في هذا الصراع هو تعيين الثقافة-الحضارة التي سوف تفرض نموذجها على غيرها، وتتحكم-من ثم-بمصير الحضارة الانسانية. ومن هنا، فأن صراع الحضارات لا يمكن ان يعني، وحسب ما يؤكده غليون، سوى حرب الهوية، والحروب على الهوية، وذلك من خلال التقاء العديد من الاستراتيجيات التي تماهي بين الصراعات الثقافية والصراعات الاقتصادية والسياسية[١٩].

وعلى هذا الاساس، فأن هناك استراتيجية القوى الاشد محافظة في النظام الدولي القائم، وهي التي تريد ان تطمس تناقضات هذا النظام، والدمار الشامل الذي يثيره في كل مكان، وردود الفعل الهمجية التي تصدر عن جماعات همشت وانخلعت عن كل اطار مادي او معنوي ودخلت في حروب ذاتية لا نهاية لها. وهي تريد ان تطمس تناقضات ذلك النظام وتردد المسؤولية عنه بأبراز المصدر الثقافي لهذه الحروب المدمرة، أي المصدر (الطبيعي) الذي لا يمكن لاحد ان يكون مسؤولاً عنه سوى (التاريخ)[٢٠].

ويؤكد برهان غليون في اطار تشيده لاسس الحوار الحضاري بدلاً من الصراع، هو ان التقارب الحضاري او الثقافي الذي يطمح اليه الحوار سوف لا يؤدي الى انهاء احتمالات الحرب، ثقافية كانت او غير ثقافية. والدليل على ذلك ان معظم الحروب والنزاعات التي يعرفها العالم اليوم هي حروب داخلية تنشأ وتتطور في حضن جماعات تجمعها ثقافة واحدة، ولغة واحدة، ومرجعيات واحدة، وان اختلفت انتماءاتها القبلية او السياسية او الدينية. ولقد اندلعت اكبر الحروب التاريخية، وهي تلك الحروب التي نسميها حروباً عالمية، بين مجتمعات غربية تدعى اليوم انها ثقافة واحدة وانها تنتظم في نسق حضاري مشترك يقف في مواجهة الانساق الحضارية الاخرى. ان الاختلاف الثقافي ليس هو الذي ينشأ النزاع، رغم ان من الممكن استغلاله احياناً بقوة ونجاح لتأجيج النزاع عندما يصبح حتماً او راهناً لاسباب اخرى هي في معظم الاحيان غير ثقافية، بل بسبب النزوع الى الهيمنة الثقافية من قبل ثقافة على اخرى،

---

(18) برهان غليون، نقد "صراع الحضارات"و"حوار الحضارات-١- في اصل التفاهم بين الاجناس، مجلة الاداب السورية، العدد ٣/٤، نيسان/ ٢٠٠٠، ص٤٥.

(19) المصدر نفسه، ص٤٦.

(20) المصدر نفسه، ص٤٦.

وفي هذه الحالة يكون الصراع الثقافي جزءاً من مشروع اوسع للهيمنة الاستراتيجية(٢١).

ولكن الاستاذ احمد برقاوي يطرح المسألة من زاوية اخرى، وهو زيف السؤال اساساً حول الاشكالية الثنائية بين حوار الحضارات ام صراع الحضارات، لينطلق في عنوان دراسة: لا حوار بين الحضارات ولا صراع ليصل الى نشأة فكرة «صراع الحضارات». واذا كان قد نفي الحوار والصراع على منطق العلاقة بين الحضارات، فأنه يؤكد بأن سؤال العلاقة بين الحضارات سؤال تاريخي. والسؤال التاريخي لا ينبع الا من واقع سيرورة التاريخ. اذن ما منطق العلاقة بين الحضارات؟ ومن هنا، وحسب رايه يتطلب العودة الى تاريخ العلاقة، أي الى الاستقرار للوصول الى حكم عام او قانوني. وقبل ان يجيب عن سؤاله يطرح السؤال بصيغته الزائفة: "حوار ام صراع؟" فالواقع ان الاساس الذي استدعى ظهور السؤال زائفاً هو العلاقة بين الغالب والمغلوب، بل ان خطاب الحضارة السائد الان يعكس هذه العلاقة. فالغرب المنتمي الى الحضارة العالمية المتفوقة-بمعنى عالمية انتشارها-ماسور في ذا الوضع من الغلبة. وذلك ان حضارته انتجت وعياً بالتفوق، وصارت من زاوية وعيه هذا معيار التقدم الحضاري. وهكذا غدا الجزئي كلياً، وصار التقدم التقني والديمقراطية ونمط الحياة الرأسمالية معياراً يقيس عليه الاخر. وبناء على هذا فأن وعي الغرب التاريخي بالعالم المعيشي هو وعي بعالمين متناقضين، وبحضارتين مختلفتين. وبفعل العداء الذي يكنه العربي او الشرقي بعامة، للاوروبي بوصف هذا غالباً مهيمناً، فان الاوروبي لم ير في علاقته بالاخر الا علاقة تناقض وصراع. ومن هنا نشأت فكرة "صراع الحضارات"لديه(٢٢).

فالفكرة الاساسية التي تنطوي خلف خطاب صاحب فكرة "صراع الحضارات" كما يراها برقاوي، هو ان وعي هنتنغون بالحضارات بوصفها متصارعة، وشبيه بوعي بعض الاسلاميين المعاصرين، باعتبار حضارة الغرب هي اساساً حضارة العداء للاسلام. وبناء على ذلك فأن فكرة هنتنغون تنحصر في انتصار الحضارة الاوروبية بما هي نظرة الى العالم، وانتصرت معها اشكال التقدم المتعددة التي تتمتع بها، ولا يمكن اعادة انتاجها في اية حضارة اخرى. اذ ان روح الحضارة الاوروبية خاصة بالاوربيين وحدهم. هذه الحضارة الاوروبية لكي تحافظ على روحها، يجب ان تسيج نفسها بنوع من القوة العسكرية لانها تواجه حضارات اخرى تناصبها العداء٢٣.

---

(21) المصدر نفسه، ص٤٩.

(22) احمد برقاوي، لا حوار بين الحضارات ولا صراع، مجلة الاداب السورية، العدد ٣/٤، آذار-نيسان ٢٠٠٠، ص٥٤-٥٥.

(23) المصدر نفسه، ص٥٥.

ويعتقد برقاوي ان فكرة "نهاية التاريخ" لا تختلف في الجوهر عن فكرة صراع الحضارات ذلك ان الاوروبي في مستوى تطوره الراهن هو نهاية التاريخ العالمي. أي ان غائية التاريخ قد وصلت الى منتهاها مع انتصار الاوروبي في الحداثة والديمقراطية. كما وجدت اكتمالها في النموذج الامريكي. وعلى جميع الحضارات الغارقة في وحل التاريخ ان تتحرر من تناقضاتها الطبقية والعرقية والثقافية ان هي ارادت أن تعيد انتاج المثال الاوروبي النهائي.

"الحدود الدموية"!

وفي رده على طروحات هنتنغون حول "صراع الحضارات"، فأن الاستاذ رضوان زيادة تناول هذه المسألة من ناحية النفي-الظاهرة، حيث ان متغيرات مطلع عقد التسعينات تركت اثارها على المستوى الفكري وتحديداً على صعيد العلاقات الدولية، التي بات من الملح التفكير جدياً في تغيير قوالبها النظرية ومصطلحاتها البائدة والمتقادمة. لقد حصل فراغ فكري في فترة ما بعد الحرب الباردة، وسقوط نظرية الاقطاب، الامر الذي افضى الى ظهور ارهاصات لنظريات تحاول تفسير المعطيات القائمة وتدلي بدلوها في قراءة المستقبل وفق هدى الرقعة التي رسمتها والاحجار التي تعينها. وما يقدمه هنتنغون، وحسب رضوان زيادة، هو احد السيناريوهات الغربية المقدمة لتفسير الوضع القائم في عالم ما بعد الحرب الباردة، والقائم على الصراع الحتمي بين المركز والاطراف. وضمن هذا الجو المشحون يصب هنتنغون النار فوق الزيت ويقدم نظريته المحتملة لتتحول الى ظاهرة[٢٤].

وهذه "الظاهرة" التي عزفت على وتر حساس لدى الحضارات جميعها تحولت الى كتاب اراد منه ان يحوي بين دفاته "نظرية كبرى" تمتلك قدرة سحرية على التفسير وتثير في الوقت نفسه اسئلة لا تنتهي. اذ عد بأنه "يمثل تفسير لتطور السياسة الكونية بعد الحرب الباردة كما يطمح ان يقدم اطار عمل او نموذج لرؤية السياسة العالمية"[٢٥]. ويؤكد زيادة بأنه على الرغم من ان الفرضيات التي قدمها هنتنغون والتي تحولت الى مسلمات لا تعدو ان تكون احياء لافكار قد رسخها توينبي، الا انها معه ستأخذ ابعاداً اخرى مختلفة، ولم يقف عند الحدود التي قدمها توينبي من التاريخ قائم على اساس الحضارات وليس على اساس الدول، وان الذي يعتبر معياراً اساسياً في هذا التصنيف، لم يتخذ لهجة مشددة ضد الحضارة الاسلامية. وان الدين بالنسبة لهنتنغون عامل اصيل وثابت وغير متحول مهما اختلفت الوجوه التي يظهر بها، وانه

---

(24) رضوان زيادة، صراع الحضارات هاجس وخطاب النفي، مجلة شؤون الاوسط، العدد ١٠٤، خريف ٢٠٠١، ص٢١٤-٢١٥.

(25) نقلاً عن المصدر نفسه، ص٢١٧.

يستمتع كثيراً بترداد المفكر السياسي الفرنسي ريجي دوبريه: "ليس الدين افيون الشعوب وانما فيتامين الضعفاء"[٢٦].

ويشدد هنتنغون على الاسلام الذي يمثل خطراً على الغرب، واشد الخصوم ضراوة. فانه يرى "ليست الاصولية هي المشكلة المهمة بالنسبة الى الغرب بل الاسلام، فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته وهاجسه ضآلة قوته"، مضيفاً ان "للاسلام حدوداً دموية"[٢٧].

ويؤكد رضوان زيادة بأنه من الضروري التصدي النقدي لهذه "الافتراضات" و"النظريات"، ليس لان مكاننا في النظرية هو خط المواجهة الاول فحسب، وانما لان استشراف مستقبل هذا العالم يخصنا ويضعنا في موضع المسؤولية كما غيرنا لاننا شركاء في المستقبل الذي يجب ان يصنعه الجميع. وعلى اساس هذا الادراك فأن فرضية هنتنغون في الصدام بين الحضارات او نبوءته، تخفي في داخلها فقراً فلسفياً واضحاً يبرز اولاً رفضه فصل الثقافة عن الحضارة، واعتباره ان الثقافة هي الفكرة العامة في كل تعريف للحضارة، ما سينعكس بدوره على مفهومه عن الحضارة وربطه بالدين. وهذا خلل واضح، اذ ان استخدام مفهوم الحضارة وبالتالي الدين بوصفه المؤشر الاساس للتمييز بين اطراف الصراعات الرئيسية في عالمنا الحالي لا يساعد كثيراً في فهمنا لهذه الصراعات. فمن الواضح، كما يضيف زيادة، ان هنتنغون لم يلتزم مقياساً واحداً للتصنيف، فتارة يستخدم الدين للاسلام، والجغرافية للغرب، والعرق للسلاف، وحتى ان فؤاد عجمي قد عبر عن رايه قائلاً: "بقلم رصاص حاد ويد ثابتة، يحدد هنتنغون اين تنتهي حضارة واين تبدأ حضارة اخرى"[٢٨].

واذا كان هنتنغون قد نجح في اعطاء الصراعات والنزاعات المتفاقمة حالياً السمة الثقافية، ولكن ذلك لا يعني هذا الصراع الخاضع بدوره لمتغيرات سياسية، وليس لطبيعة العلاقات التاريخية بين البشر ويضاف الى ذلك فأنه قد سقط في اتون السياسة واكتوى بنارها وتلبس بوصل ايديولوجيا السياسة ايضاً عندما نسي ان الحضارات لا تسيطر على الدول بل الدول هي التي تسيطر على الحضارات. ليس بالضرورة ان يكون النزاع العرقي (او الديني) نزاع حضارياً. اذن ما نفسر ما يحصل في ايرلندا الشمالية[٢٩].

---

(26) المصدر نفسه، ص٢١٩.

(27) نقلاً عن المصدر نفسه، ص٢١٩، وينظر صموئيل هنتنغون، صدام الحضارات واعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، اصدار دار الطور القاهرة، ١٩٩٨، ص٤١٨.

(28) المصدر نفسه، ص٢٢١.

(29) المصدر نفسه، ص٢٢٢.

ويشير رضوان زيادة في اطار تحليله "للظاهرة" الهنتنغونية مستنداً الى عدد من المراجع الموثوقة في طرحه عنواناً فرعياً: الاخر-الهاجس: الصراع-ثأر التاريخ"، من ان نظرية صدام الحضارات جعلت هاجس الخوف من عدو محتمل يطفو على السطح ما جعلها اشبه بوثيقة عمل لدى بعض المفكرين والسياسيين الذين عملوا على تأكيدها باستحضار التاريخ او بتعسف قراءة الواقع معتبرين "ان حرب الاسلام مع الغرب تحمل محرضات كامنة، فكرية وعرقية، اضافة الى صراع المصالح"، وتتلخص هذه المحرضات في ان الاسلام مبني على يقين جازم بأنه فوق الاسس التي يضعها البشر(٣٠).

ويشير الاستاذ وجيه قانصوره في دراسته المعنوية: "ايديولوجية الحضارات في النظام العالمي الجديد"، بأنه ولئن اراد ان ينهي دورة التاريخ وفق ايديولوجي متفائل يحول العالم الى نسق سياسي واقتصادي واحد، فأن هنتنغون اراد انعاش حركة التاريخ الصاخبة. وراى في وجود الاخر غير الغربي خطراً مؤكداً ومزاحماً صلباً في ظل قانون تنازع البقاء. فالاخر غير الغربي قابل بحكم تكوينه الحضاري على اسيعاب النموذج الغربي او السكن داخل جدرانه، وبالتالي فأن الخيار الطبيعي يمكن في قرع طبول الحرب واسترجاع عقيدة الغرب في تكوين الرأي العام، أي ان خيار الحضارات الوجودي هو اما العيش في قوة او الموت. وعلى ضوء ذلك، فانه استطاع تبرير الترسانة النووية لصانعي القرار الامريكي وتضخم التحالف الغربي كحقيقة حضارية متفردة(٣١) ويؤكد قانصوره بأن مقولة "صدام الحضارات" تأسست على معطيات الواقع الراهن وتفاعلاته، وانها وسيلة لارساء الواقع الراهن بصوت المدفع، حيث الهيمنة الامريكية ومركزية الغرب في تشكل العالم(٣٢).

لقد خصص الدكتور محمد عابد الجابري الفصل الخامس من كتابه "قضايا في الفكر المعاصر"، لتقيد الاسس التي قامت عليها نظرية "صدام الحضارات" الهنتنغونية، وتفكيك عناصر افتراضاتها، وتهافت الاستنتاجات التي وصلت اليها، وذلك انطلاقاً من "اننا نحن العرب والمسلمين على راس المستهدفين فيها فمن الواجب المساهمة في فضحها، فضلاً عن وجوب تعميم الوعي بمضمونها واهدافها..". ويتساءل الجابري استطراداً، لماذا توارت فكرة نهاية التاريخ بسرعة واختفت ولم تعد تثير الاهتمام بعد اعلان هنتنغون عن اطروحته "صدام الحضارات"؟ هل يرجع ذلك، حسب ما يؤكده الجابري الى كون مركز هنتنغون في مجال الدراسات الاستراتيجية والعلاقة مع

---

(30) المصدر نفسه، ص١١٥.

(31) وجيه قانصوه، ايدلوجية الحضارات في النظام العالمي الجديد"، مجلة شؤون الاوسط، العدد ٩٠/٩١، ديسمبر/ك١-يناير/ كانون ثاني/ ٢٠٠٠، ص٩٢.

(32) المصدر نفسه، ص٩٣.

الادارة الامريكية اقوى بكثير من مركز ذلك الامريكي من اصل ياباني، ام لان اطروحة صدام الحضارات انما قصدتها ازاحة فكرة نهاية التاريخ من مسرح الاهتمام؟. قد يكون للوزن الشخصي دور، ولكن الدور الحقيقي، حسب ما يراه الجابري، هو للوظيفة التي تؤديها الفكرة. ان فكرة "نهاية التاريخ" عن الماضي، وبالتالي تبعث على الاطمئنان على مستقبل امريكا، اذ هي تؤكد على الانتصار النهائي الليبرالي، الشيء الذي اثار -مثلاً- التساؤل عن جدوى تخصيص مبالغ هائلة للدفاع في ميزانية الولايات المتحدة تساؤلاً مشروعاً. اما اطروحة "صدام الحضارات" تتحدث عن المستقبل وتنذر بخطر المواجهة والحرب وتدعو صراحة الى اخذ الحيطة والاستعداد للدفاع عن النموذج الحضاري الامريكي وعن المصالح التي يقوم عليها[٣٣]. وهو ما تجسد في عقلية المحافظين الجدد، وما افضت به افكارهم في الحرب الاستباقية، والحرب العادلة.

"الحرب الباردة الحضارية":

وبناء على ذلك فأن "نظرية" صدام الحضارات، وحسب ما يراه الجابري، فانها من الناحية الاستراتيجية السياسية والعسكرية والثقافية تنطوي فعلاً على قضية، حاول المفكرين الغربيين التنظير لها، ثم الترويج لها في حملة اعلامية لم يسبق لها. ويؤكد الجابري بأنه سبق هنتنغون ان نشر السيد باري يوزان الاستاذ بجامعة ورويك البريطانية، مقالاً في مجلة شؤون دولية بتاريخ ٣/تموز-يوليو/١٩٩١ تحت عنوان "السياسة الواقعية في العالم الجديد: انماط جديدة للامن العالمي في القرن الواحد والعشرين" مقسماً العالم من جديد الى "مركز" و"اطراف": اما المركز فهو "كتلة رئيسية من الاقتصاديات الرأسمالية المسيطرة على العالم" واما الاطراف فهي "مجموعة من الدول الاضعف من النواحي الصناعية والمالية والسياسية تتحرك ضمن نمط من العلاقات التي يشكلها المركز في المقام الاول، اضف الى ذلك "اشباه الاطراف" وهي الدول الاقوى في الاطراف. والقضية الاساس التي يريد صاحب المقال دراستها من خلال التصنيف الذي ابقى تصنيفات فترة الحرب الباردة، هي مسألة "الامن"، امن المركز تحديداً، الغرب بوصفه "المركز" وبقية العالم بوصفها "الاطراف"[٣٤]. وبعد ان يحدد بوزان التطورات التي حصلت في "المركز" من عودة ظاهرة الدول العظمى، وبروز الرأسمالية الليبرالية، وقيام جماعة امنية تضم المراكز الرئيسية للقوة الرأسمالية، وتعزيز قوة وفعالية "المجتمع الدولي"، فان هذه التطورات انعكست على

(33) محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، حزيران/ ١٩٩٧، ص٨٣-٨٤.
(34) المصدر نفسه، ص٨٨-٨٩.

الامن في الاطراف وذلك في مجالات خمسة: في المجال السياسي، انخفاض قيمة الاطراف، في المجال العسكري، حيث تفشي النزاعات، وفي المجال الاقتصادي حيث بقيت الاطراف اطرافاً بسبب المعوقات الذاتية. ويكرس بوزان اهمية للامن الاجتماعي في مجال علاقة المركز والاطرف، ويعتبر الهجرة وما يسميه بـ"التصادم بين الهويات الحضارية المتنافسة" اهم قضيتين في هذا المجال. اذ ان الهجرة من دول جنوب المتوسط الاسلامية تشكل خطراً على امن دول "المركز"، اذ تهدد هويتها الحضارية. اما المتصادم الحضاري فهو في نظره "اوضح ما يكون بين الغرب والاسلام"، نظراً للتعارض بين القيم العلمانية السائدة في الغرب وبين القيم الاسلامية، ونظراً كذلك للتنافس التاريخي بين المسيحية والاسلام، ولغيره المسلمين من قوة الغرب، اضافة الى الجوار الجغرافي..ويقول بوزان: "فاذا اجتمع خطر الهجرة وخطر تصادم الثقافات اصبح من السهل وضع تصور لنوع من الحرب الباردة الاجتماعية بين المركز وجزء من الاطراف على الاقل، ولاسيما بين الغرب والاسلام". ثم يضيف: "كما ان تصادم الهويات الحضارية لا يقل قوة على الجانب الاخر من الاسلام، حيث يتجاوز الغرب مع الحضارة الهندية، مثلما يتجاوز مع الاسلام". وهكذا فـ"الحرب الباردة الحضارية" المقبلة ستكون بين طرفين: الغرب والحضارتان الاسلامية والهندية من وجهة اخرى. وذلك ما سيقول به هنتنغون مع تعديل واحد هو وضع الحضارة الكونفوشية، مكان الحضارة الهندية[٣٥].

ومن هنا، وكما يؤكد الجابري، فان هذه الفكرة نفسها التي يقررها هنتنغون في مقالته "صدام الحضارات" وفي ظرفية جديدة و"باسلوب صدامي"، وان المبدأ الذي يحكم النص هو المبدأ المعروف بـ"الغاية تبرر الوسيلة"، ولجأ الى التعميم واصطناع الغموض والقفز من قضية الى اخرى، انه يقدم "فرضيته" في شكل نبوءة وبأسلوب هجومي، حتى انه يرد وبطريقة غير مباشرة على فكرة "نهاية التاريخ" لفوكوياما، وهي الفكرة التي تقرر انتصار الليبرالية بصورة نهائية، وهذه الفكرة او الاستنتاج يتعارض مع الاستراتيجية الكونية التي تخطط لها الولايات المتحدة. ومن هنا، فانه جاء دور هنتنغون الخبير في "الاستراتيجية العسكرية" يتصدى بسرعة وعنف لفكرة "نهاية التاريخ". وبما ان افضل استراتيجية لابطال فكرة وقبرها هي الترويج لفكرة العكس دون الدخول معها في جدال صريح. ان فكرة "نهاية التاريخ" بغرابتها واستفزازها للمنطق والتاريخ معاً، لم يمحوه الا الصدع بفكرة اكثر غرابة واشد استفزازاً، فكرة "صدام الحضارات"[٣٦].

---

(35) نقلاً عن المصدر نفسه، ص٩٠-٩١-٩٢.
(36) المصدر نفسه، ص٩٤-٩٥.

فقد كانت مهمة فكرة "صدام الحضارات" ترتيب حوادث التاريخ بالشكل الذي يجعل النتيجة المتوخاة تأتي كمرحلة حتمية من التطور التاريخي، حيث الحروب والنزاعات العسكرية لتصب في مرحلة مقبلة هي الصراع، وهي مرحلة "صدام الحضارات"، أي بين الحضارات الغربية والحضارات الاخرى. وهذه التصورات، كما يؤكد الجابري، مبنية على مغالطات عديدة حتى انه يتجاهل عن الحروب الدينية في اوروبا وعن الحرب الانكليزية-الامريكية، والحرب الامريكية-الفيتنامية. واذا كان هناك صراع في المستقبل فسيكون بين الامم والشعوب المتطلعة الى الحرية والديمقراطية مع القوى الامبريالية المهيمنة، تحت أي غطاء كانت[٣٧].

ويشير الجابري بأنه بالاضافة الى التصنيفات التي يقدمها هنتنغون التي يقدمها ما بين الثقافة والحضارة وافعال حدود التمايز بين الحضارات، فانه ينتقل الى مغالطة على مستوى العلاقة بين الحضارة والايديولوجيا، والغرب والنخب، والانتماء الغربي، والانتماء الطبقي، والديني والسياسي. واذا كان الدين هو العنصر الاهم في التمييز بين الحضارات، فلماذا لا يسمى جميع الحضارات بأسم الدين الذي تعتنقه وستكون عندنا حينئذ الحضارات التالية: الحضارة المسيحية والحضارة الاسلامية والحضارة البوذية، الا انه يستخدم الدين فقط لتمييز الحضارة الاسلامية وحدها[٣٨].

ومن خلال تحديده للحضارة الاسلامية التي تحدت الغرب المسيحي منذ ان وصل العرب الى مدينة تور الفرنسية عام ٧٣٢، ثم الحروب الصليبية، فانه تاريخ سلسلة من الحروب المتجددة. ويطالب من الغرب ان لا يعمل على نشر الديمقراطية في العالم الاسلامي "انها تؤدي الى تعزيز القوى السياسية المناهضة"، وهو ما يكشف تمشدق الغرب بالديمقراطية وحقوق الانسان بالنسبة للشعوب غير الغربية[٣٩].

وينتهي صاحب نظرية "صدام الحضارات" الى الاعلان صراحة بعد ان يقرر ان العلاقة بين الغرب والاسلام ستكون علاقة صدام حضاري، بأن "للاسلام حدوداً دموية" وهو الذي كان مسؤولاً عن كل الصدامات والحروب التي اندلعت على حدود الفصل بين الحضارات التي كانت دائماً "حدود التوتر"[٤٠]. وينتهي الجابري الى وصف هذه "الافتراضات" وما احتوته النظرية، بانه لم يكن الا "منطق القبلية" الذي يحكم تفكير هنتنغون.

اما الكاتب السعودي الاستاذ تركي الحمد فيري من جانبه في قراءاته لاطروحات هنتنغون وفوكوياما، بان كلا الكتابين يصلان الى نتيجة واحدة، وان

---

(37) المصدر نفسه، ص٩٩-٩٧.
(38) المصدر نفسه، ص١٠٤.
(39) المصدر نفسه، ص١١٧.
(40) المصدر نفسه، ص١١٨.

اختلفت بهما السبل لدرجة التناقض الظاهري. وهي ضرورة استمرار سيادة الغرب حضارياً وسياسياً. فصموئيل هنتنغون يصل الى هذه النتيجة عن طريق "ما يجب ان يكون عليه الوضع" وذلك حين يفصل فصلاً قاطعاً بين الغرب والبقية، ويضع الحضارة الغربية في مواجهة صراعية مع بقية الحضارات التاريخية في هذا العالم، ويطلب من صانعي القرار في دول الغرب ان يأخذوا هذه الفكرة بصفتها "حقيقية"، في الاعتبار والعمل على استمرار السيادة الغربية عن طريق اقامة تحالفات "حضارية بين دول الغرب ذات الثقافة المشتركة مع الولايات المتحدة بصفة خاصة، اما فرانسيس فوكوياما، وحسب ما يؤكده الحمد، فيصل الى ذات النتيجة عن طريق ما يعتبره من مسائل الحتم والضرورة، وذلك حين يحاول طرح فلسفة انهيار الكتلة الاشتراكية وانتهاء الحرب الباردة تاريخياً، بحيث يعلن انتصار الديمقراطية الغربية والمشروع الحر هو نهاية التاريخ وان سيادة الغرب الرأسمالي والديمقراطي قد اصبحت نهائية، ولا مجال لتغييرات جذرية عميقة في التاريخ القادم للانسان، التغيرات القادمة التي تعدو التفاصيل، ومدى سرعة الدول والشعوب الاخرى في الوصول الى النموذج النهائي، أي النموذج الغربي.

وبناء على ذلك، فان الاستاذ تركي الحمد يؤكد بأن كلا الكاتبين كان يقوم بارسال رسالة خاصة الى السياسة الخارجية الامريكية، موصياً فيها بما يجب ان تكون عليه هذه السياسة أي هناك "مشروع معين" للسياسة الخارجية الامريكية[٤١]، وهو ما اتضح في الخطوط العامة التي طرحها "مشروع القرن الامريكي الجديد"، حيث يشكل مشروع الشرق الاوسط الكبير، المشروع الفرعي المتوجه نحو المنطقة لاغياً حدودها الجغرافية، وهوياتها القومية، وذلك لاذبتها في هويات، وعرقيات، واثنيات متعددة يفترض الصراع بينها، والتي تشكل بالمقابل خطر يهدد الغرب، ولابد من اعادة بناءها من الداخل على وفق الصيغ والآليات "الجديدة"، بدلاً من تركها بؤراً تفرغ الارهاب والمنظمات الارهابية.

(41) تركي الحمد، صراع الثقافات بين السياسة والتاريخ (١-٢)، صحيفة الاتحاد الاماراتية، العدد، ٩٦٧٠، الاربعاء، ٢٦/ديسمبر/ ٢٠٠١، ص٣٠.

حقوق الانسان بين مبادئ الاسلام وسلوك الدول الغربية

الاستاذ الدكتور
سعيد مجيد دحدوح(*)

مقدمة:

حقوق الإنسان، اصطلاحا حديثا نوعاً ما لحقيقة قديمة لازمت البشرية منذ أقدم العصور، واهتمت بها الديانات السماوية والاتجاهات الفكرية والفلسفية المختلفة، ومنذ أن ظهرت دولة المدينة وظهر الحكم المطلق ثم أدعاء الربوبية من الحاكم، كما هو حال نمرود وفرعون وغيرهم كما يحدثنا القرآن الكريم عنهم.. ((فقال أنا ربكم الأعلى))[1] و((ما علمت لكم من اله غيري))[2]، بدأت الإنسانية تعاني ألواناً من الهدر للكرامة والسحق لأرادتها، ومصادرة الحقوق والحريات... وفي كثير من الأحيان يأخذ جور الحاكم أبعاداً مأساوية، تنتهي إلى نهايات مؤلمة يسحق على أثرها الملايين من الضحايا والإجهاز على الأخضر واليابس بدعوى الإصلاح ((وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون))[3].

ولم تنحصر دائرة حقوق الإنسان فيما بين البشر أنفسهم بل اتسعت الدائرة لتشمل كل متعلقاتهم من مفردات الطبيعة التي يعيشونها حيازة واستثماراً. وقد أصبح لها قدسية خاصة في التاريخ الراهن لدى المنظمات الدولية والقانون الدولي العام والنظم السياسية، ولكن العبرة ليس أن تسطر هذه الحقوق في لوائح أو إعلانات بل تنفيذها بشفافية وتجسدها في الواقع، أو أن تستخدم هذه الحقوق لأغراض سياسية وفي العلاقات الدولية، لاحتلال الدول، أو تهديدها ومحاولات تغير النظم السياسية. سنحاول في هذا البحث التطرق إلى حقوق الإنسان في القرآن والسنة النبوية وكيف تعاملت مع هذه الحقوق فضلاً عن سلوك الغرب الاستعماري مع الشعوب والأمم التي خضعت لسيطرته أو استخدام هذه الحقوق لأغراضه الخاصة بعد التعرف على مدلول الحق والإنسان وماهية حقوق الإنسان.

ومن الله التوفيق

(*) استاذ في كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

[1] النازعات، آية ٢٤.

[2] القصص، آية ٣٨.

[3] البقرة، آية ١١.

المبحث الأول

ماهية حقوق الإنسان:

قبل الولوج في حقوق الإنسان تعريفاً ومفهوماً، نجد من الضروري الإلمام بمدلول الحق والإنسان وعلى الشكل الآتي:

١. الحق:

الحق في اللغة: أصله المطابقة والموافقة، وهو ضد الباطل، وحقائق الشيء ما حق وثبت[4]. **أما اصطلاحاً:** فالحق يعني الثبوت الواقعي أو الاعتيادي الناظر إلى مصلحة واقعية، الذي لا يتغير لوح الواقع والاعتبار حين ثبوته سواء أدركه الذهن الإنساني أم لا، وسواء اعلنته الشرائع والقوانين الاجتماعية أم لا؛ لأنه معنىً واقعيا أو اعتباريا ناظرا إلى مصلحة واقعية قبل إدراك الذهن الإنساني، وقبل الصياغة التشريعية أو القانونية له انه حق[5].

٢. الإنسان:

الإنسان كائن تتفاعل فيه بشكل متوازن جوانب جوهرية ثلاثة هي:

١. "العقل" كونه محور القيمة الإنسانية وفيه تدرك قوة الإدراك.
٢. "العواطف والمشاعر" كالحب والبغض والغضب والسرور...الخ، وهي تحقق للنفس صورة التفاعل والانفعال.
٣. "الإرادة" التي تعبر عن الاختيار بحدوده الإنسانية والتي تكمن وراء السلوك الإنساني بمعنى الفعل والترك[6].

٣. تعريف حقوق الإنسان :

أن موضوعاً شائعاً كموضوع حقوق الإنسان، ليس من السهولة إيجاد تعريفا جامعا مانعا يحيط به، ولم يجمع الفقهاء على تعريف يمكن الركون إليه أو يغطيه كونه نسبي ويرتبط بثقافة أو فلسفة المجتمع، وعلى الرغم من ذلك هناك محاولات جادة للتقرب من الموضوع وعلى الشكل الآتي:

١. مجموعة الحقوق الطبيعية التي يمتلكها الإنسان واللصيقة بطبيعته، التي تظل موجودة، وان لم يتم الاعتراف بها، بل أكثر من ذلك حتى وأن انتهكت من قبل سلطة ما[7].

---

[4] فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، ٥، باب ما أوله الحاء (مادة حقق).

[5] فؤاد كاظم المقدادي، رسالتنا الإسلامية بين الأصالة والتغريب، مجمع الثقلين العلمي، بغداد، ٢٠٠٣، ص٨١.

[6] المصدر نفسه ، ص٨١– ٨٣.

[7] محمد سعيد مجذوب، الحريات العامة وحقوق الإنسان، مطبعة طرابلس، بيروت، ١٩٨٦، ص٩.

٢. قدرة الإنسان على اختيار تصرفاته وممارسة نشاطاته المختلفة دون عوائق مع مراعاة القيود المفروضة لمصلحة المجتمع[٨].
٣. مجموعة الحقوق والمطالب الواجبة الوفاء لكل البشر على قدم المساواة دونما تميز فيما بينهم[٩].
٤. وقد عرفها فان بوفن[١٠] ((الحقوق التي تتجاوز الإطار الوضعي، ولا يحتاج أعمالها إلى تشريع وضعي وطني، لأنها من القواعد الأساسية في المجتمع الدولي وكل دولة تتخلى عن هذه القواعد تعد دولة في قائمة الدول الاستبدادية))[١١].
٥. هناك من ينظر إليها على أنها. فرع خاص من العلوم الاجتماعية يستهدف دراسة الروابط بين الناس لتحقيق الكرامة الإنسانية بتحديد الحدود والمكنات التي تعد بمجموعها ضرورية لإنماء شخصية كل كائن بشري[١٢].
٦. أوانها : مزيجاً من القانون الدستوري والقانون الدولي، مهمتها الدفاع بصورة منظمة قانوناً عن حقوق الشخص الإنساني ضد انحرافات السلطة الواقعة من أجهزة الدولة، وان تنمو بصورة متوازية معها الشروط الإنسانية للحياة والتنمية المتعددة الأبعاد للشخصية الإنسانية[١٣].
٧. تلك الحقوق اللصيقة بالإنسان والمستمدة من تكريم الله له وتفضيله على سائر مخلوقاته والتي تبلورت عبر تراكم تاريخي من خلال الشرائع والأعراف والقوانين الداخلية والدولية، ومنها تستمد وعليها تبنى حقوق الجماعات الإنسانية في مستوياتها المختلفة ، شعوباً وأمما ودولاً[١٤].

---

[8] روسكو باوند، ضمانات الحرية في الدستور الأمريكي، ترجمة محمد لبيب، دار المعرفة، القاهرة ١٩٥٦، ص١١.
[9] المصدر نفسه.
[10] تيودور فان، معايير التفريق بين حقوق الإنسان، مجلد الأبعاد الدولية لحقوق الإنسان مجموعة مترجمين، اليونسكو، ١٩٧٩، ص٤٦.
[11] نقلاً عن، عزت سعد السيد البريجي، حماية حقوق الإنسان في ظل التنظيم الدولي الإقليمي، مطبعة العاصمة، القاهرة، ١٩٨٥، ص٤.
[12] إبراهيم أحمد عبد السامرائي، الحماية الدولية لحقوق الإنسان في ظل الأمم المتحدة، أطروحة دكتوراه، كلية القانون، جامعة بغداد، ١٩٩٧، ص٩.
[13] صلاح حسن مطرود، السيادة وقضايا حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، ١٩٩٥، ص٤٤.
[14] محمد عبد الله الدوري، حول انتهاكات حقوق الإنسان في إيران، مجلة الحقوقي، الأعداد (١-٤) السنة ١٦، بغداد، ١٩٨٤، ص٢٣٧.

وتحتاج حقوق الإنسان لتحقيقها ثلاثة شروط أساسية هي[15]:

١. وجود مجتمع منظم في دولة قانونية.
٢. توفر الإطار القانوني المسبق الذي تمارس في ظله هذه الحقوق، فضلاً عن المرونة التي تمكن المجتمع من مواجهة الظروف الخاصة المحتملة.
٣. توفر الضمانات القانونية التي تمنع الممارسات اللاقانونية، وتمكن الفرد من المطالبة بحقه في حالة تحقق انتهاكها كلا أو جزءاً.

إن حقوق الإنسان هي الحقوق التي يمتلكها جميع الأشخاص، بحكم إنسانيتهم المشتركة، لكي يعيشوا في حرية وكرامة، وهي تمنح جميع الناس حقوقاً معنوية فيما يتعلق بسلوك الأفراد وفيما يتعلق بتصميم الترتيبات الاجتماعية وهي شاملة ولايمكن التصرف فيها ولايمكن تجزئتها. وحقوق الإنسان تعبِّر عن أعمق التزاماتنا بكفالة أمن الجميع وتمتعهم بالخيرات والحريات اللازمة لكي يحيوا حياة كريمة. كما ان حقوق الإنسان تنتمي لجميع الناس، وجميع الناس يتساوون فيما يتعلق بهذه الحقوق.. فهو ليس أفضل أو أسوأ تبعاً لجنس الشخص أو عنصره أو أصله العرقي أو قوميته أو أي تميز آخر[16].

أن القول عن حقوق الإنسان بأنها حقوق طبيعية لارتباطها الوثيق بطبيعة الإنسان، وأنها منبثقة من صميم ذاته، ومن ثم فهي غير قابلة للتصرف، وليس منحه من سلطة معينة، إنما هي حقوق أساسية من حقوق البشر الطبيعية التي فطر الإنسان عليها.

أن حقوق الإنسان غير قابلة للتصرف: فليس من الممكن أن يسلبها آخرون، ولايمكن ان يتنازل عنها طوعاً.. كما أنها غير قابلة للتجزئة فلا يوجد ترتيب هرمي بين مختلف أنواع الحقوق، فالحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ضرورية جميعاً على قدم المساواة لكي يحيى المرء حياة كريمة، كما لايمكن قمع بعض الحقوق تعزيزاً لحقوق أخرى؛ فالحقوق المدنية والسياسية لايمكن انتهاكها تعزيزاً للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ولايمكن قمع الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تعزيزاً للحقوق المدنية والسياسية[17].

لقد شهدت "حقوق الإنسان" تحولاً كبيراً في مسألة الاعتراف بها، نقلها من الدائرة الوطنية الضيقة ترتبط بقيم وفلسفة وأماني شعب بعينه إلى الأطر والآفاق الإقليمية والدولية. أي أن قضية حقوق الإنسان لا تخضع لسياسة كل دولة على حده،

---

15 الأمم المتحدة، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٠، نيويورك، ص١٦.

16 المصدر نفسه، ص١٦.

17 فؤاد كاظم المقدادي، المصدر السابق، ص٨٢– ٨٣ .

وإنما أصبح الدور للمنظمات الدولية ضمن حركة دولية وميدان عمل جماعي حي لحماية حقوق الإنسان من خلال الكثير من المنظمات الدولية التي تتبنى ذلك.

المبحث الثاني

الإسلام وحقوق الإنسان

١- نظرة الإسلام إلى حقوق الإنسان:

أن الذي يميز نظرة الإسلام إلى الإنسان وحقوقه عن غيره من الأفكار والفلسفات والطروحات الوضعية، هو ان دائرة حركة الإنسان بجوانبه وقواه الجوهرية، لا يقتصر على عالم المادة المحسوسة، بل يشمل كذلك عالم ما وراء المادة (عالم الغيب) فالإنسان يحيط به عالمان واقعيان: عالم المادة المحسوسة؛ وهو عالم فان و"عالم الغيب" وهو خالد مهيمن كامن وراء العالم المادي.

أن معادلة اكتشاف حقوق الإنسان في الإسلام تتقوّم بأمرين أساسيين هما[١٨]:

أولاً: إدراك حقيقة موضوعها متمثل بالإنسان في كونه موجوداً ذا فطرة متميزة "فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" وبقواه الفطرية بمحورية العقل، وكونه أيضاً يتحرك في عالمين "مادي ومعنوي".

ثانياً: إدراك حقيقة المحمول المتمثل بالحقوق الإنسانية في كونها ثوابت واقعية تكتشف من خلال معرفة حقيقة الإنسان وواقعه وعالميه الذين يتحرك في دائرتها.

وعليه فإن أية دعوى لاكتشاف حقوق الإنسان وتقنيتها وتنظيمها لاتاخذ بالاعتبار لهذين المقومين، هي دعوى لا تتوفر فيها شروط إصابة الحقيقة، وأية لائحة يسيّطر فيها حقوق الإنسان لا تأخذ بالاعتبار حيثية الإنسان الذاتية، في كونه كائناً قائماً على الفطرة المتميزة، أو انهما تنظران إلى الإنسان محجوراً وأسيراً في دائرة عالم مادي محدود، هي لائحة ناقصة في أصابتها للواقع ، لكونها ستسقط من الحساب حقوقاً أساسية لاغنى لإنسان عنها، وبهذا ستفتح عليه باب الظلم والحيف، سواء أدركت ذلك وقصدته أم لا.

أن حركة حقوق الإنسان التي نشطت في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وسطّرت في ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ والإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨ وغيرها من المواثيق الدولية، فان الشريعة الإسلامية قد أقرت هذه الحقوق منذ أربعة عشر قرناً، ويذكر الشيخ محمد الغزالي "أن آخر ما أملت فيه الإنسانية من قواعد وضمانات لكرامة الجنس البشري كان من أبجديات الإسلام، وأن إعلان الأمم المتحدة

---

[18] محمد الغزالي، حقوق الإنسان في الإسلام بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، بلا ط٣ ١٩٨٤، ص٩.

عن حقوق الإنسان، ترديدا عاديا للوصايا النبيلة التي تلقاها المسلمون عن الإنسان الكبير الرسول الخاتم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)"[19].

ويمكن ان نذهب إلى أبعد من ذلك، إذ نجد ان حقوق الإنسان في الإسلام أكثر شمولية وعمقاً من تلك المبادىء المثبتة في المواثيق الدولية، ليس فقط لأنها تفتقر إلى الدوافع والعوامل الذاتية والموضوعية للالتزام بها وتطبيقها على أرض الواقع فحسب، أنما يُحاول المنادون بها أن يخفوا خلف شعاراتهم تلك، حجم الظلم والفساد والعدوان واحتلال الدول أو تهديها من خلال الاستخدام السياسي لحقوق الإنسان كما سنشير لذلك في المبحث الثالث .فعلى سبيل المثال لا الحصر، أن مفهوم الحياة يختلف بين ما يطرحه القانون الدولي لحقوق الإنسان وبين ما يعلنه الإسلام؛ الذي يرى أن الحياة تبدأ ببعدها المادي والمعنوي من حيث تكوّن الجنين في رحم الأم فلا يحق لأي أحد قتله بالإجهاض مثلاً بغير ضرورة، ويتواصل ذلك بعد الموت قيمة معنوية، فللإنسان حق في أن يحترم بعد موته في جنازته ومدفنه، ولا يحق لأحد انتهاك حرمته فيها، بالتشريح لجسده، أو النبش لقبره بدون ضرورة تقتضيه ولا التمثيل به، إذ يعلن الإسلام حرمة التمثيل حتى بالكلب العقور[20]. وفي الحديث النبوي الشريف، إذا مات أبن آدم أنقطع عمله إلا في ثلاث: (صدقة جارية وعلمٌ ينتفع به وولدٌ صالح يدعو له)[21].

كما أن الكرامة الإنسانية في الأنظمة الوضعية محدودة في دائرة الأصل الأولى للإنسان كموجود وكائن عاقل في هذه الحياة وهي قيمة مشتركة بين الناس جميعاً، ولكن في الإسلام يذهب إلى أبعد من ذلك، إلى القيمة المكتسبة التي يحصل عليها الإنسان بحركته التكاملية ضمن مساريها المعنوي الخلاق للنفس الإنسانية، والتصديقي العملي البناء للحياة الاجتماعية.

فمن المعلوم أن هناك فرقاً كبيراً بين فردٍ عظيم بعلمه وخصاله الأخلاقية العالية، التي اكسبها بجهده وجهاده، والتي ملكته قدرة أداء دور إنساني بنّاء وإصلاحي كبير في بناء الحياة وإثرائها، وبين فردٍ عادي لم يكتسب شيئاً في ذلك، ولم يترك أثراً بناءً في الحياة.. ففي الإسلام حقوقاً للكرامة المكتسبة، لا تجدها غالباً في القانون الدولي لحقوق الإنسان، كحقوق الكرامة للعلماء (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)[22].

---

19 فؤاد المقدادي، المصدر السابق، ص٨٨.
20 الحافظ المنذري، الترغيب والترهيب، ج٣، ص٦١٢.
21 فؤاد المقدادي، المصدر السابق، ص٨٩ .
22 النساء آية ٢.

إن الإسلام أمتاز عن القانون الدولي لحقوق الإنسان في نظرته إلى الإنسان، من حيث القيمة كإنسان، ومن حيث الحقوق التي منحها إياه ببعدها المادي والمعنوي.. وفيما يتعلق بجانب القيمة نلحظ ذلك في الأمور الآتية:

أولاً: بيانه لوحدة الأصل الإنساني.. كلكم لآدم وآدم من تراب. وكما جاء في القرآن الكريم ((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها))[23].

ثانياً: عدم التفاضل بين الناس، بالعنصر أو اللون أو اللسان، وإنما التفاضل بالتقوى، وهذا البعد المعنوي لم يأخذه القانون الدولي لحقوق الإنسان بالاعتبار ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم))[24] وفي الحديث الشريف (لافضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى).

ثالثاً: تكريم الإنسان ورفع قدره ((ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً))[25].

لقد منح الإسلام الإنسان الحقوق التي تتطلبها الحياة الإنسانية الكريمة التي تجعل منه خليفة الله في الأرض ((ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون))[26].

وهناك العديد من الحقوق والحريات الأساسية التي أحاطها الإسلام بكل الضمانات والقواعد الواضحة والصريحة والملزمة كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن أبرزها حقوق العائلة بما تشمله من حقوق الوالدين والأولاد وصلة الرحم، إذ يجعل من الوالدين أولياء رساليين على أولادهم في التربية والتعليم والإعداد، ومن الأولاد أوفياء مطيعون لهم.. وهكذا في دائرة الأرحام، إذ تتأكد المسؤولية الرسالية وحقوقها في الأقرب فالأقرب، وهذا ما نفهمه من سياق الآيتين الكريمتين ((وقضى ربك ألا تبعدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحساناً))[27] ((واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً))[28] لذا فأننا لانجد في القانون الدولي لحقوق الإنسان أي اهتمام بهذه الحقوق.

---

[23] النساء اية ١.
[24] الحجرات آية ١٣.
[25] الإسراء آية ٧٠.
[26] الحج آية ١٠٥.
[27] الإسراء آية ٢٣.
[28] النساء آية ١.

نظرة الإسلام للعلاقات الإنسانية والدولية :

ان العلاقات الإنسانية والدولية في الإسلام تخضع لمجموعة مبادئ أساسية مستمدة من أحكام القرآن والسنة النبوية. وأن هذه المبادىء من شانها أن تقيم للجماعة الدولية قانوناً دولياً يضمن السلم لكافة الشعوب، فالحالة الطبيعية في العلاقات هو السلم الذي أمر به الله في قوله تعالى ((وأن جنحوا للسلم فأجنح لها))[29] لذلك كانت الحالة الشاذة لتلك العلاقات هي الحرب لأنه، في نظر الإسلام. أن الدولة التي تعلن السلام ولا تريد الحرب لا يجوز محاربتها[30]، كما منع الإسلام عن العدوان في قوله تعالى ((ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين))[31] كما دعا إلى توطيد السلم بين الدول والشعوب في قوله ((وأدخلوا في السلم كافة))[32].. وتطبيقاً لهذه الأحكام الإسلامية، يمكن أن نُقيم العلاقة بين الدولة الإسلامية والحبشة ، فكانت حقاً مثالاً للعلاقات الودية. فالسياسة الخارجية للدولة الإسلامية تجاه الحبشة خلال القرون الأولى من العصر الإسلامي تمثل سابقة لا مثيل لها. اذا اعتبر المسلمون الحبشة ولقرون طويلة أنها مصونة من الجهاد، وامتنعوا عن مهاجمتها، ولم يفكروا في ذلك، ولعل السبب وراء ذلك، هي أن الحبشة قد اعترفت ، ومنذ البداية بالدولة الإسلامية الناشئة بطريقة ودية، ولم تتخذ سياسة هجومية ضدها[33]. كما شكلت الحبشة مكاناً آمناً للمسلمين الأوائل بعد اضطهاد قريش واضطرارهم للهجرة إلى الحبشة كما أمرهم في ذلك رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم). كما يمكن ان نفهم طبيعة العلاقة الإنسانية بين المسلمين وأهل الكتاب، من خلال العقد الذي أقره رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) مع نصارى نجران، بعد ان وفدوا على المدينة المنورة ليعارضوا الرسول ويحاجوه في أمر عيسى بن مريم (عليها السلام).. وجرى بينهم حوار طويل، إلى أن فصلت في الأمر الآية الكريمة ((فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقُل تعالوا ندعُ أبنائنا وأبنائكم ونسائنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين))[34].

فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) وهو في أوج قوته وانتصاراته على قريش.وغيرهم: فباهلوني فإن كنت صادقاً أنزلت اللعنة عليكم وان كنت كاذباً أنزلت عليّ فقالوا: أنصفت فتواعدوا للمباهلة، فلما حضر رسول الله (صلى

---

29 الأنفال آية ٦١.

30 كاظم هاشم نعمة. الوجيز في تاريخ العلاقات الدولية، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩٢، ص١٥.

31 البقرة ١٩٠.

32 البقرة اية ٢٠٨ .

33 صلاح عبد الرزاق، العالم الإسلامي والغرب، دراسة في القانون الدولي الإسلامي، مؤسسة دار الإسلام، لندن، ٢٠٠٠، ص١٦٠.

34 آل عمران آية ٦١.

الله عليه واله وسلم) وأهل بيته ليوم المباهلة، ولكن نصارى نجران تراجعوا، وقالوا لرسول الله نعطيك الرضا فأعفنا من المباهلة، فصالحهم رسول الله[35] وأقرهم على ديانتهم وحمايتهم ضد أي عدوان يقع عليهم، نفهم ذلك من قوله (صلى الله عليه واله وسلم) (ولا يطأ أرضهم جيش)[36].

وقد تعاطف المسلمون مع الروم ضد الفرس على الرغم من موقفهم من المسلمين ففي أثناء الصراع بين الدولتين، وخسارة الروم للمعركة أمام الفرس، أستاء المسلمون لذلك، لكون الروم البيزنطيين من أهل الكتاب، وهذا الذي دفع المسلمون إلى التضامن والتأييد للروم وهذا ما نفهمه في سياق الآية الكريمة ((الم. غُلبت الرومُ في أدنى الأرض وَهُم مِّن بعد غَلَبِهم سَيَغلبوُن. في بضع سنين لله الأمرُ من قبْل ومن بَعْد ويومئذٍ يَفرحُ المؤمنون))[37].

كما كفل الإسلام الحرية الفكرية، فالإنسان حر في ان يختار ما يشاء من عقيدة أو يريد من فكر، انطلاقاً من قوله تعالى ((لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشدُ من الغي))[38] وفي ذلك نفي للدين الإجباري، كون الدين هو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات والاعتقاد والأيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار.. وعن أبن عباس (رضي الله عنه) أن المرأة من الأنصار تكون "مقلاة" لايكاد يعيش لها ولد، فتجعل على نفسها أن عاش لها ولد أن "تهوده" فلما أجليت بنوا النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لاندع أبنائنا، ومنهم من أكره أبناءه على الإسلام[39] فأنزل الله عز وجل ((لا إكراه في الدين))[40]. ومن ذلك يمكن ان نفهم أن الحرية الفكرية الإسلامية، فيها من الحرية والالتزام، فليس حرية مطلقة تفسح المجال للفوضى أن تتحرك في حياة الناس وأفكارهم، من دون حماية لهم من عوامل الضلال أو عناصر الضعف، أو رعاية لعقيدتهم أن تنمو في جو طبيعي، وليس التزاماً مطلقاً يغلق عليهم نوافذ التفكير أو يحجرّ عليهم أن يطلعوا على الأفكار المضادة التي يفكر بها الآخرون.. فمن حق الإنسان أن يفكر كما يريد ويتبنى ما يريد. لأنه هو وحده–الذي يتحمل مسؤولية عقيدته وفكره، ولكن، من حق الدعوة ان تدافع عن نفسها وفكرها.

---

35 محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٣١، ١٩٧٢، ص٢٢٦–٢٢٩.

36 كاظم هاشم نعمة، المصدر السابق ، ص٢٢.

37 الروم آيات ١ – ٥.

38 البقرة آية ٢٥٦.

39 محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق ، ص٣٤٢– ٣٤٧.

40 الكهف، آية ٢٩.

بهذه المبادئ والقيم انتشر الإسلام وعم المعمورة، كونه دين رحمة، حـــرر الإنسان من العبودية والظلم والطغيان تقبلته النفوس الصافية من دون إكراه.. ودليلنـــا على ذلك اعتناق اندونيسيا الإسلام.. إذ يعد القرن الثالث عشر الميلادي بداية العصـــر الإسلامي في اندونيسيا، وكان انتشار الإسلام بين السكان سلمياً ومتدرجاً، لكنه ثابـــت ومستمر في الانتشار وقد يندهش المرء اذا راجع حقيقة ذلك، وكيف أصبح الإسلام في المركز الأول وأصبحت الأغلبية الساحقة من السكان تدين بالإسلام. على الرغم من أن هذه الجزر تبعد عن منبعه الأصلي آلاف الأميال. وأصبحت اندونيسيا خلال فترة من الزمن أكبر دولة إسلامية في العالم، إذ وصل نفوسها إلى ٢١٠ مليون نسمة وأن نسبة المسلمين فيها قد تصل إلى ٩٠%.. وقد جاء ذلك الانتشار عن طريق التجار المسلمين من عرب حضر موت أو تجار بلاد فارس أو عن طريق تجار الهند المسلمين بعد أن توطد الإسلام فيها كقوة حاكمة وبخاصة سواحل "كروماندل"[41].

يقول المؤرخ توماس أرنولد: في القرن الثاني عشر، جذب الإسلام الكثيـــر من الصليبيين، الذي اعتنقوه. ولم يقتصر ذلك على الناس العاديين: بل الأمراء والقادة ففي الليلة السابقة لمعركة حطين. التي أنتصر بها صلاح الدين على الملك الصـــليبي غي دو لوزينيان ملك القدس وتمزق جيشه البالغ ٢٠,٠٠٠ مقاتل ووقع الملك أسيراً– اعتنق الإسلام ستة أمراء من مملكة القدس، والتحقوا بقوات العدو (المســـلمين)، دون أكراه[42].

المبحث الثالث

حقوق الإنسان وسلوك الغرب

١. النظام السياسي القائم في الغرب:

قبل ان يأخذ النظام القائم على الديمقراطية الليبرالية مظهراً عمليـــاً ســـبقته تيارات فكرية تدعو إلى النظام الديمقراطي، حيث السيادة للشعب، ولكن أنظمة الحكـــم المطلقة لم تتأثر سريعاً بالحركة الفكرية، تلك الحركة التي استمرت تسير في طريقهـــا نحو التطور والتقدم حتى جاء القرن الثامن عشر فكانت النهضة الصـــناعية وانهيـــار النظام الإقطاعي وقيام طبقات جديدة من التجار والصناع وأرباب الحرف وأصـــحاب

---

41 مصلح خضر شرقي، سياسة اندونيسيا الخارجية تجاه العراق ١٩٨٠ – ٢٠٠٠، رسالة ماجستير، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية، الجامعة المستنصرية، بغداد، ٢٠٠١ ، ص١٥– ٢٤.

42 محمد حسن فضل الله، كتاب الجهاد، دار الملاك ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ص٨ – ١٠ .

الرأسمال. فاستغلوا هذه الحركة الفكرية ودعوات الداعين إلى التغيير من أجل انتزاع السلطة لحماية حقوقهم الوليدة، من اجل الحد من سلطة الدولة[43].

وبهذا اكتسبت فكرة الديمقراطية قوة لا غالبة لها. إذ انتقلت من نطاق الفلسفة والنظريات إلى دائرة القانون الوضعي والتطبيق العملي وان تكون حقيقة سياسية، وقد تبلورت تلك الأفكار بصفة رسمية في إعلان الحقوق الأمريكية والفرنسية، وقد تضمن إعلان استقلال الولايات المتحدة الصادر سنة ١٧٧٦، وكذلك حقوق الإنسان الصادر سنة ١٧٨٩ عقب الثورة الفرنسية، مؤكداً ان هدف كل جماعة سياسية هو المحافظة على حقوق الإنسان الطبيعية الثابتة[44]. فالسيادة للشعب وليس لأي فرد أو هيئة أن تتولى سلطة ليس مصدرها الشعب.. لذلك يمكن القول أن الأساس الفلسفي للديمقراطية الليبرالية هو المذهب الفردي وما بني عليه من نظرية للحقوق والحريات الفردية الطبيعية.

وقد قامت الديمقراطية الرأسمالية: على الأيمان بالفرد أيماناً لاحّد له، وبان مصالحه الخاصة بنفسها تكفل مصلحة المجتمع في مختلف الميادين، وان فكرة الدولة إنما تستهدف حماية الأفراد ومصالحهم الخاصة فلا يجوز لها أن تتعدى حدود توفير الأمن الداخلي والدفاع عن أمن البلد وتحقيق العدل.

ويتلخص النظام القائم في الغرب الرأسمالي في إعلان الحرّيات السياسية والاقتصادية والفكرية والسياسية. وكان هذا النظام. نظام مادي خالص. كان مشبعاً بالروح المادية الطاغية، وكان من جرّاء هذه المادية التي زخر النظام بروحها: ان أقصيت الأخلاق من الحساب. وأعلنت المصلحة الشخصية كهدف أعلى والحرّيات جميعاً كوسيلة لتحقيق تلك المصلحة، فنشأ عن ذلك أكثر ما ضج به العالم الحديث من محن وكوارث ومآسي ومصائب.

٢- سلوك الغرب الاستعماري

بعد حركة الاستكشافات التي بدأها البرتغاليون، في القرن الخامس عشر، واكتشاف العالم الجديد، وبداية النهضة الأوربية الحديثة بعد الثورة الصناعية في منتصف القرن الثامن عشر.. وبعد اختراع واستخدام الآلة البخارية وتطور وسائل الإنتاج وأدوات التصنيع وما تلاها من تطور صناعي ضخم ومتتابع، كان لابد أن ينعكس على غايات وأهداف الدول الاستعمارية.

---

[43] محمد عصفور، الحرية بين الفكرين الديمقراطي والاشتراكي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦١ ، ص٧٥ .

[44] ثروت بدوي، النظم السياسية، الجزء الأول ، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٤، ص٣١٠ - ٣١٤.

والعلاقة مع الغرب ككل، تحكمه الرغبة في الهيمنة والسيطرة والاستعمار. فلذلك تجد الغرب الذي أنتج عصر الأنوار ورفع شعار الحرية والعقلانية.. هو أيضاً الغرب المستعمر والإمبريالي الذي قام بإبادة الشعوب وقاد إلى حربين عالميتين راح ضحيتها الملايين من البشر.

ولنتوقف هنا عند بعض سلوك الغرب":

١. يقول "هوش منه" مؤسس جمهورية فيتنام الشعبية مدة ثمانين عاماً حضرت إلينا العصابات الاستعمارية الفرنسية رافعة العلم ذا الألوان المعبرة عن الحرية والمساواة والإخاء، واقتحموا إقليمنا وعصفوا بشعبنا ولم تمنحنا فرنسا أية حرية سياسية ، بل وضعت تشريعات بربرية، وأنشأت السجون حتى زاد عددها عدد المدارس، وعملت على نشر الأفيون والخمور ليمكنها تحقير جنسنا[٤٥].

٢. ويمكن القول أنه لم تشذ دولة من دول أوربا عن تجارة الرقيق، البرتغال أسبانيا، فرنسا، ألمانيا، السويد، وكان لإنكلترا، الحق في احتكار ومطاردة العبيد ونقلهم وبيعهم[٤٦] ويرى بعض الباحثين أن عدد الزنوج الذين اقتنصوا وأخرجوا من ديارهم لا يقل عن مائة مليون، لم يصل منهم إلى العالم الجديد إلا نسبة قليلة جداً، حيث كانوا يموتون سواء في البر وفي البحر وهم مكدسون في قاع السفن، أو يرمون في عرض البحر عندما تتعرض السفينة للخطر[٤٧].

٣. في رسالة "سيسل رودس" الذي أسس شركة جنوب أفريقيا البريطانية يقول "أن الله يريد ان يوجد الإنسان في أحسن هيئة.. ولكي يتحقق هذا الهدف يجب أن يجد الجنس-انكلو ساكسوني-نفوذه على أكثر ما يمكنه من الأرض[٤٨]. إن أعلام الفكر الغربيين كافة لم يخرجوا عن فكرة السيطرة والاستعلاء، فمثلاً: نجد "فولتير" و"مومنتسكيو" قد تحدثوا عن الحضارات، ولم يكن لديهم شك في سيادة الحضارة الغربية، وموقعها القيادي الطبيعي، وكان "فولتير" ينطلق من المبدأ العنصري في تكوين عقيدته القائلة: بان الزنوج بالذات غير قابلين لأيّ تحضر.. وكان "سان سيمون" يرى أن أوربا المنظمة وفق طريقته ستمدّ نعمة التقدم[٤٩] إلى العالم، وتملأ

---

45 محمد مصطفى، نجيب الياس، الدول النامية ومشاكلها، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٤، ص٥.

46 صبري أبو المجد، الاستعمار والاستغلال والتخلف، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص٢٢٥.

47 محمد صبري، الإمبراطورية السودانية، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٤٨ هامش ص٢٦٦.

48 شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١، ص١٤٢.

49 حسين مؤنس، الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتدهورها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨،ص٤١.

الأرض بسكان من العنصر الأبيض، الذي هو أرقى من الأجناس الأخرى. ويرجع إلى أصل آري أو هندي أوربي، وهذا الجنس هو الموهوب الذي ساد أهل المعمورة بامتيازه البدني والذهني وأخرج عباقرة مثل زرادشت وبوذا، وأطلع العبقرية الفنية عند الإغريق والعبقرية السياسية عند الرومان، وأخرج آخر الأمر أهل الغرب الأوربي. وهذا الجنس الشريف النبيل-بزعمهم-هو الذي صنع كل ما هو عظيم في حضارة البشر[٥٠].

وتناول الألمان هذا الوهم. ومازالوا يحورون فيه حتى استبدلوا مصطلح الجنس الهندي الأوربي بمصطلح الهندي الجرماني، وجعلوا الموضوع الذي تربت فيه أحسن فصائل هذا الجنس، بوميرانيا وهي مهد بروسيا وملكها.. ولكن أرنولد توينبي هدم هذه النظرية من أساسها بطريقته الفذة في نقد القضايا بميزان الإحصاء الذي لايخطيء[٥١].

٤. في أسبانيا التي كانت تحت الحكم العربي الإسلامي حتى عام ١٤٩٢م تاريخ سقوط غرناطة. صدر قرار ملكي عام ١٥٠١م يضع المسلمين بين خيارين: التنصر أو مغادرة أسبانيا، وبدأت حملات التنصير واستخدام العنف والشدة في معاملة المسلمين . فذاقوا صنوف العذاب والإرهاب والتميز.. وفي عام ١٥٢٦ أصدر الإمبراطور "شرلمان" قرارات تقضي بإكراه المسلمين على ترك ملابسهم الخاصة بهم ولبس القبعات والسراويل الأسبانية. وحضر عليهم التكلم بالعربية.. وأخذت محاكم التفتيش على عاتقها تنفيذ هذه القرارات ومطاردة المطلوبين والتفتيش عن عقائدهم وملاحقة من يمارس الشعائر والسنن الإسلامية بين "المورسكين" الذين اضطروا لإعلان تنصرهم، وأخفوا إسلامهم خوفاً من التعذيب والحرق الذي كان من الأساليب المشهورة لمحاكم التفتيش الأسبانية، وكانت محاكم التفتيش تحرق بالنار من لم تثبت نصرانيته. وحين رأى بعض الأساقفة تفاقم الأعمال الوحشية بحق المسلمين فراسلوا البابا في روما سائلين إياه عن جواز التنصر تحت التهديد بالموت والحرق، فأجابهم البابا "يونيفاس الثامن" بالفتوى-الغريبة-الآتية "التهديد بالموت لا يعد إكراهاً يبطل مشروعية التنصر. وان الإكراه لا يكون إكراهاً إلا إذا سيق المسلم إلى المعمودية ويداه موثقتان ورجلاه مقيدتان، وكان يصيح بأعلى صوته محتجاً على هذا العمل"[٥٢].

---

50 المصدر نفسه، ص٤٥.

51 المصدر نفسه.

52 شكيب إرسلان، حاضر العالم الإسلامي، الجزء الثاني، دار الفكر، بيروت، ط٤ ١٩٧٣، ص ٣٧-٣٨.

مقابل ذلك، عندما انتهى الحكم العثماني في أوربا، وكما يذكر ذلك شاخت وبوزرث: كانت الأمم المسيحية التي حكمها العثمانيون خلال عدة قرون لا تزال هناك: بلغاتها وثقافاتها ودياناتها والى حد ما مؤسساتها، كل هذه الأمور بقيت سليمة وجاهزة لاستئناف وجودها الوطني المستقل، أما في أسبانيا وصقلية فليس فيها اليوم مسلمون أو ناطقون باللغة العربية[٥٣].

٥. عندما أحتل نابليون مصر، أتبع سياسة براغماتية تميل إلى كثير من النفاق، فحاول التقرب من المسلمين ولبس العمامة، وصلى مع المسلمين.. وقد واجه نابليون عدة ثورات وانتفاضات شعبية. عندها أمر بتوجيه المدافع المصوبة في القلعة صوب الجامع الأزهر وما حوله من الدور والأسواق، وبدأت تدك المباني بالقنابل.. وفي المساء أحاط الجنود الفرنسيون بالجامع ثم دخلوا فيه، وأخذوا يأسرون من كان فيه من الثوار، ويعبثون به وبمحتوياته. وعندما ذهب شيوخ الأزهر لمقابلة نابليون يرجونه الكف عن انتهاك الجامع وقتل الناس، فأخذ يلومهم ثم أعلن العفو عنهم، ولكن عفواً ظاهرياً، إذ أنه أصدر أوامره بقتل كل من قاد الثورة أو شارك فيها، وكان من أوامره لأحد قادته: تفضل أيها القائد بان تأمر "قومندان" القاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين، ولتلقي جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر.. هكذا تصرف القائد المتنور بمبادىء الثورة الفرنسية. إذ حمل معه المقصلة (الجيلوتين) التي أصبحت من أبرز معالم الثورة الفرنسية. وأعدم عشرات من شيوخ الأزهر وطلابه دون محاكمة أو تحقيق[٥٤].

٦. أن اندحار فرنسا المشين في "ديان بيان فو" سنة ١٩٥٤ لم تضع نهاية لتصلب وظلم فرنسا في أماكن أخرى، فشاركت بالعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، كما تفننت فرنسا في استخدام القسوة والتعذيب والقتل والتشريد لتحطيم إرادة الجزائريين[٥٥]، وقد كلف نضال الشعب الجزائري لإخراج المستعمر البغيض أرواح مليون شهيد، في النهاية أدركت فرنسا الكلفة المادية والمعنوية، كما أدركت ضرورة الأقدام على تنازلات سياسية، لينال الشعب الجزائري استقلاله.

٧. قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين بمباركة بريطانية ومن ثم دعماً أمريكياً منذ أن بدأت الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين بعد مؤتمر بازل عام ١٨٩٧، وصدور وعد بلفور عام ١٩١٧ وصولاً إلى قرار التقسيم عام ١٩٤٧، وعلى

---

[53] شاخت وبوزرث، تراث الإسلام، الجزء الأول، ترجمة محمد زهير السمهوري وآخرون، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ط٢، ١٩٨٨هـ، ص٢٨٦.

[54] صلاح عبد الرزاق، المصدر السابق، ص١١٤ ــ ١١٦.

[55] بيتروسلي، العوالم الثلاث، الثقافة والتنمية العالمية، ترجمة صلاح الدين محمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧، ص٥٤.

الرغم من أن العصابات الصهيونية منذ أن وطأت أقدامها أرض فلسطين، وأساليب القمع والقتل والتهجير وشراء الأرض بدعم بريطاني، بعد ان أخضعت فلسطين إلى الانتداب البريطاني، فلم تستطع العصابات الصهيونية ان تحصل من أرض فلسطين عشية قرار التقسيم إلا على نسبة ٦%، وقد منحها قرار التقسيم عام ١٩٤٧ (٥٦%) من أرض فلسطين.. وقد تم تشريد شعب كامل خارج أرضه، بدعم أوربي أمريكي، لتقوم اكبر جريمة في تاريخ الإنسانية. وما يزال الشعب الفلسطيني يعاني الاضطهاد والقتل والحصار بغطاء أمريكي داعم للكيان الصهيوني وتعطيل كامل للقرارات التي صدرت عن مجلس الأمن الدولي لصالح القضية الفلسطينية منها قرارات العودة والانسحاب.. الخ

٣- السلوك الأمريكي في ظل المتغيرات الدولية

أدت الحرب العالمية الثانية إلى اضمحلال الدور الأوربي على المسرح الدولي لحساب القوتين الكبيرتين اللتين كانتا مؤهلتين ذاتياً وموضوعياً للإسهام بالأدوار القيادية وكقوى دولية أمامية مؤثرة خارج حدودهما الإقليمية.. وقد أخذ هذا الامتداد إطاراً هيكلياً تمثل على شكل حلفين رسميين هما: حلف الأطلسي وحلف وارشو.. وقد أضحت الساحة الأوربية طوال الحقبة التي امتدت إلى عام ١٩٩٠ بؤرة الصراع الجيوبولتيكي بينهما وامتدت إلى الكثير من بلدان العالم الثالث. مرحلة استمرت حوالي نصف قرن سميت بالحرب الباردة.. وفي هذه الحرب استطاع المعسكر الغربي من استنزاف المعسكر الآخر اقتصادياً وفلسفياً وصولاً إلى انهياره التام، كإعلان عن انتهاء مرحلة كاملة من مراحل الصراع الكوني من اجل القوة والسيطرة.. وأصبحت الولايات المتحدة تشكل القطب الأول في العالم. ووجدت الولايات المتحدة في انهيار الوضع الدولي الذي ساد طيلة مدة الحرب الباردة، كما فسر ذلك الانهيار انتصاراً للأفكار والفلسفة الغربية وحقوق الإنسان.. إذ عد فرنسيس فوكوياما-المفكر الأمريكي من أصل ياباني في كتابه (نهاية التاريخ) انهيار الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية انتصاراً حاسماً للرأسمالية على الشيوعية، بعد أن شخّص المرحلة الراهنة في التاريخ وكأنها مرحلة انتصار نهائي للأنموذج السياسي والفكري الليبرالي الذي يحظى-حسب ادعائه-بالقبول الواسع من اكبر قدر من الدول والمجتمعات في العالم[٥٦]. وأكد فوكوياما مرة أخرى في كتابه (الثقة) ان هناك حركة بين دول العالم نحو الأخذ باقتصاديات السوق والاندماج في التوزيع الرأسمالي العالمي

---

[56] فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ، دار الحضارة الجديدة، بيروت، ١٩٩٣، ص١٢.

لليد العاملة وتكون هذه الحركة نهاية التاريخ وتطور المجتمعات الإنسانية التي تسير نحو الهدف النهائي هو النظام الرأسمالي الليبرالي[٥٧].

كما شن الغرب الرأسمالي بالتحالف مع الصهيونية العالمية، هجمة شرسة ضد العرب والإسلام بدعوى الإرهاب والتطرف والتخلف، وجاءت هذه الهجمة بعد إنهيار المعسكر الاشتراكي وانكشاف الحضارة العربية الإسلامية وجهاً لوجه أمام المعسكر الرأسمالي الغربي، خاصة بعد ان أعلن منظروه حتمية التصادم، وان الإسلام يكون تحدياً وعامل صراع مستقبلي حاد لذلك دعا الأمريكي من أصل يهودي "صموئيل هنتغتون" إلى كبح تطور القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية للبلدان الإسلامية"[٥٨].

تحت هذه الذرائع تم محاصرة العراق ثم احتلاله. وكان احتلال العراق شكلَ عدواناً صارخاً على الشرعية الدولية، كما هو حال احتلال العراق للكويت وقد عد ذلك نقلة خارج قيود الشرعية الدولية التي تعزز وتؤكد احترام القانون الدولي العام. وتجنيب البشرية الآلام والمآسي والدمار وإرجاع الجهود التي بذلتها الإنسانية لإرساء مبادئ القانون الدولي العام عقوداً إلى الوراء.

الخاتمة

ان مبادئ الإسلام استطاعت أن تبني أمة، واستطاعت أن ترسخ قيم وأخلاقيات ليس بين العرب المسلمين فحسب وإنما في التعامل مع الغير أفراداً أم أمم.. كما استطاعت هذه القيم أن تصمد بوجه الهجمة الشرسة التي يشنها الغرب الاستعماري بالتحالف مع الحركة الصهيونية العالمية لإسقاط هيبة الإسلام اجتماعياً وسياسياً، ومحاصرة العرب المسلمين بألوان التهم والافتراءات المفضوحة. كما نجد ان في طروحات مفكريهم ماضياً وحاضراً فيها نوع من الإقصاء والعنصرية أو تعدي بدعوى نهاية التاريخ أو صراع الحضارات وغيرها من الأفكار التي تؤكد على النظرة الاستعلائية وشعارات زائفة لا يسترها الإعلام الخادع. فاهتمام الولايات المتحدة والغرب بقضية حقوق الإنسان والديمقراطية لا تثبت أمام الحقائق في تعامل هذه الدول مع الكيان الصهيوني ودول كثيرة أخرى، فهو يتعامل مع هذه القضية بنوع من البرغماتية والانتهازية السياسية التي تتجلى أبرز صورها في المعايير المزدوجة التي تطبقها بهذا الخصوص، وعدم ترددها في التضحية بمبادئ حقوق الإنسان والديمقراطية في حالة تعارضها مع مصالحها الاقتصادية والتجارية.

---

[57] فرانسيس فوكوياما، الثقة، مركز الأمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ١٩٩٨، ص١٥.

[58] صموئيل هنتغتون، صدام الحضارات، اعادة بناء النظام العالمي، ترجمة مالك عبيد ابو شهيرة ومحمود\ محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلام، بغداد، ١٩٩٦، ص٣١٩.

الاعلام الاسلامي.. وتحديات المستقبل في "ظل النظام الدولي الجديد"

الاستاذ المساعد الدكتور
عبد الامير محسن جبار(*)

مقدمة:

على امتداد تاريخ البشرية كان الاتصال: هو النشاط الإنساني الاهم لحياة الإنسان وتفاعله مع أخيه الإنسان في إطار بيئته. واذا كانت البشرية قد عرفت وسائل اتصال مختلفة، فان هذه الوسائل-على تنوعها- كانت السبيل لتحقيق التواصل الإنساني للتعبير عن حاجاته الأساسية في المعيشة والتفاعل والتكيف مع البيئة وحل النزاعات وكانت كذلك سبيلاً للتعبير عن الذات. وأصبح حق الانسان في الاتصال من الحقوق الثابتة التي اقرتها الدساتير والمواثيق الدولية.

فميثاق الامم المتحدة يقر على احترام حق جميع الشعوب في المشاركة في تبادل المعلومات على المستوى الدولي على اساس الانصاف وتكامل المصالح فضلاً عن اقراره حق كل امة في استخدام مواردها الخاصة من المعلومات لحماية سيادتها والدفاع عن قيمها السياسية والاخلاقية والثقافية واطلاع العالم على مصالحها وتطلعاتها.

وفي عالم اليوم، اصبحت وسائل الاتصال الجماهيري والمعلوماتية تهيمن على حياة الانسان، فالراديو والتلفزيون في كل مكان وهما معاً دائماً اذ تستمع الملايين الى الاخبار والاعلانات التجارية نفسها وتشارك شخصيات المسلسلات المعاناة والانتصار للحق والفضيلة، ان وسائل الاتصال تؤثر في خلق اتجاهات المجتمع وبناء الاطر السياسية والتلاعب بالحالة النفسية للشعوب فوسائل الاعلام تغير دورة الحرب بالزعامات وتحط وترفع من قدر شخوص دون اخرى من خلال توجيه انتباه الملايين الى الحدث نفسه وبالطريقة نفسها في نفس زمن حدوث الحدث.

وفي ظل هيمنة الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية على وسائل الاعلام العالمية وتوجيهها لثورة الاتصال والمعلوماتية حسب خططها المدمرة لامتلاك ناصية العالم وفرض نظامها العالمي الجديد الموسوم (بالعولمة)، فانها تفرض نظريتها الحضارية الاوحد بالغاء الحضارات الاخرى من خلال خلق الصراعات المفتعلة.

(*) معاون عميد كلية العلوم السياسية –الجامعة المستنصرية.

الهدف من البحث:

يهدف البحث الى رصد جملة تحديات يواجهها الخطاب الاسلامي في حقل الاتصال الجماهيري في الالفية الثالثة، بعد ان وضعته الامبريالية العالمية في قمة اولوياتها.. والتصدي له بأعتباره العدو رقم واحد بالنسبة لها.

وحاولنا الاشارة الى الاضرار التي تصيب الامة الاسلامية من جراء تشويه صورة الاسلام والعرب المسلمين في خلق صورة نمطية لهم مرادفة للارهاب والعنف في كافة وسائل الاعلام العالمية.

اولاً: مفهوم الاعلام الاسلامي

اختلف الاعلاميون والباحثون في مجال الاعلام والاتصال في وضع صيغة محددة اعريقية لمصطلح الاعلام الاسلامي، وان اتفقوا على بعض العموميات التي تصب جميعها في جملة واحدة هي نقل الحقائق حول قضية من القضايا بهدف تشكيل رأي عام او قريباً منها.. ولم يستطع احد فرض تعريف معين.

ولعل التعريف الاقرب الى الشمولية هو الذي ينص على ان الاعلام الاسلامي (هو اعلام بالخير لكي نتبعه واعلام بالشر كي نتقيه او نحذر منه).

وهذا التعريف بهذه العبارة الموجزة استطاع ان يوظف الاعم لخدمة المجتمع، من خلال خصال الخير والشر التي لا يخلو منها أي مجتمع.. ونخلص الى القول ان الاعلام الاسلامي هو "امر بمعروف ونهي عن المنكر".

وهذه الرسالة انبياء الله ورسله لجميع الثقلين، يقول الله يبحانه وتعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ويقول سبحانه (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون).

وعند هذا التعريف تستطيع ان تنخرط تحت سقفه كل دعوة اسلامية سابقة باعتبارها لبنة في صرح الاعلام الاسلامي منذ بدء الرسالة المحمدية الى يومنا هذا.

ولكن ينبغي ان نوجز رسالة الاعلام الاسلامي اليوم بأنها تقديم رسالة اعلامية دينية ذات مضامين هادفة تنبع من القيم والمفاهيم الاصلية وتنهض بالوعي العام في المجتمع من خلال اهداف اسلامية وحضارية وانسانية في طليعتها الحفاظ على الهوية الاسلامية وتعزيز الوحدة الاسلامية.

ولو شئنا لقلنا ان الاعلام الاسلامي هو كل رسالة منطوقة او مكتوبة او مرئية يتاح نشرها للجمهور عبر وسائل الاعلام الجماهيرية تستمد مادتها من كتاب الله (القرآن الكريم) والسنة النبوية الشريفة مؤكدة النهج الاسلامي القويم الصالح وثقل التراث الحضاري للامة الاسلامية.

ثانياً: الاهداف العامة للاعلام الاسلامي

ان ما نقدمه هنا ليس سوى قراءة اولية لواجبات الاعلام الاسلامي في مواجهة التحديات المستقبلية التي تواجهها الرسالة الاعلامية في بدء الالفية الثالثة للبشرية، ويمكن تلخيص اهداف اساسية تنطلق منها أي رسالة اعلامية دينية:

١. النهوض بالاعلام الديني مقروءاً او مسموعاً او مرئياً والاستفادة من القدرات والامكانات والادوات الاعلامية المتاحة.
٢. التوعية بالمفاهيم والقيم الاسلامية في مختلف مجالات الحياة والسعي للاتفاف حولها والمساهمة في تكوين المواطن القادر على تحمل المسؤولية تجاه نفسه ودينه وبيئته واكسابه القدرة على وقاية نفسه وتحصينها والالتزام بقيمه وثوابته الاسلامية.
٣. دعم وتنمية التواصل التفاعلي مع جميع شرائح المجتمع عن طريق مختلف الوسائل الاعلامية بما يسهم في احداث تغيير ايجابي وتكوين الاتجاهات الصحيحة من منظور حضاري اسلامي واستثمار كل معطيات العصر لخدمة قضايا الاعلام الاسلامي.
٤. رصد اهم القضايا والاحداث المثارة على الساحة المحلية والدولية التي تدخل في دائرة الاهتمام الاعلامي الاسلامي وتصميم رسائل اعلامية مناسبة للتعامل معها.
٥. الرد على حملات التشويه والدس المتمثلة في التحامل على الاسلام والمسلمين من خلال وسائل الاعلام المختلفة.

الخطاب الاسلامي وتحديات النظام الدولي الجديد:

مع انتهاء عقد الثمانينات وبداية عقد التسعينات (أي مع انتهاء العقد الاول من القرن الخامس عشر الهجري) حدث مالم يكن في الحسبان... حيث ان الدراسات والتحليلات التي بدأها كل من (كارل ماركس) و(فردريك انجلز) وتبناها اصحاب المعسكر الشرقي... والتي كانت تتوقع انهيار المعسكر الرأسمالي تطبيقاً للجدل المادي والتاريخي. فلبث المجن على صاحبه واذا صرح المعسكر الشرقي واذا بالمتفكك عرى الاتحاد السوفيتي.

وبعد خروج الكتلة الشرقية من حلبة الصراع تباهت (الامبريالية العالمية) بالهيمنة التامة وبرزت الولايات المتحدة الامريكية كقوة عظمى وحيدة في العالم ومن هنا انبثقت فكرة (النظام الدولي الجديد) هذه الفكرة التي كان لها نظير الى حد ما في اعقاب الحرب العالمية الاولى، حيث انهارت الامبراطورية العثمانية وفي اعقاب

الحرب العالمية الثانية حيث بروز الكتلتين... ولكنها هذه المرة وفي اعقاب انتهاء الحرب الباردة تتضمن تحدياً للوجود الاسلامي-حضارة وكياناً.

ان منظري الصراع في الغرب بعامة والولايات المتحدة الامريكية بخاصة طرحوا (الاسلام) باعتباره الخطر الجديد القادم من الشرق الذي يهدد الحضارة الغربية، وتفنن مروجو هذه النظريات في تشويه صورة الاسلام وتاريخ الحضارة العربية الاسلامية وفي التخويف من الصحوة الاسلامية التي سموها (الاصولية) والخلط بينها وبين (التطرف الديني) وفي وضع شرائط مشاهد حول المواجهة الحتمية القادمة بين الحضارتين الغربية والعربية الأسلامية، وقد نظمت قوى الهيمنة الدولية (الصهيونية القلب والقالب) حملة قوية دعائية اعلامية لتقييم ذلك كله[1].

وامام هذا التحدي الخطير، بتنا بحاجة الى خطاب اسلامي يتناسب ومتطلبات النظام الدولي الجديد. ففي مطلع القرن الخامس عشر الهجري تزايد الاهتمام بالفعل بعقيدة الاسلام وشريعته وسرعة انتشاره في العالم المعاصر.

ولكن كيف نطور الخطاب الاسلامي (الرسالة الاعلامية)؟

في طليعة ما يجب الالتزام به هنا هو المعاصرة، فان العصر الذي نعيش فيه عصر التقدم العلمي والتكنولوجي البالغ الى قمته، ومن امثلة التأكيد على عامل المعاصرة: ان النبي (صلى الله عليه ولسم) اقترح على المسلمين في بداية الدعوة ان يهاجروا الى ارض الحبشة، مبيناً لهم السر في ذلك بقوله: "لو خرجتم الى ارض الحبشة فان لها ملكاً لا يظلم عنه احد وهي ارض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما انتم فيه"[2].

ولنتأمل في لغة الحوار الذي استعمله (جعفر بن ابي طالب) امام النجاشي ملك الحبشة في مجلس ضم الاساقفة والمسلمين المهاجرين، يذكر فيه حسنات الاسلام ومساوئ الجاهلية، الى ان قرأ عليهم صدرا من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكى الاساقفة، وينتهي الحوار بقول (النجاشي) (ان هذا والذي جاء به عيسى، يخرج من مشكاة واحدة)[3].

ونبرز اهمية (المعاصرة) في مسايرة معجزات الانبياء لجنس الخبرات والمهارات الشائعة في كل عصر، فكانت معجزة اليد البيضاء والعصا (لموسى عليه السلام) لان الشعر والسحر كان شائعاً في ذلك الزمن، وكان ابراء (المسيح عليه السلام) الاكمة والابرص واحياء الموتى في عهد تقدم فيه الطب والعلاج، كما ان

---

[1] فريد النقاش، حول التبعية الثقافية والاعلامية وامكانيات الخروج منها، مجلة ادب ونقد، العدد السابع، السنة الاولى، ١٩٨٤، ص ٤٩-٥٠.

[2] ابن هشام، السيرة النبوية ٣٣٤/١ وما بعدها، وابن كثير، السيرة النبوية ٩/٢-١١.

[3] ابن كثير، السيرة النبوية، ٩/٢.

معجزة القرآن البلاغية والبيانية كانت في مواجهة البلغاء من العرب الذين كانوا يتفاخرون بأنهم سادة الفصاحة وفرسان البيان، نحن-اذن-بحاجة الى ادخال الاساليب العصرية في خطابنا الاسلامي كي نكون بمستوى التحدي.

وهناك عامل اخر لا يقل اهمية عن العامل الاول وهو البعد عن المثيرات مع الحفاظ على المبدأ، واعتماد اسلوب الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي احسن، ان اعاء صوت الحق هذا هو جهاد في احدى صوره الحية او لعل ادل من صرح بذلك في عصورنا المتأخرة هو الشيخ (محمد عبده) مفتي الديار المصرية ومن كبار رجال الاصلاح والتجديد في الاسلام المتوفي سنة ١٣٣٣هـ ولنسمع اليه يقول "القتال في سبيل الله هو القتال لاعلاء كلمته وتأييد ونشر دعوته والدفاع عن حزبه كيلا يغلبوا على حقهم ولا يصدوا عن اظهار امرهم. فهو اعم من القتال لاجل الدين؛ لانه يشمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته، الدفاع عن الحوزة اذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات ارضنا او اراد لعدو باغي اذلالنا والعدوان على استقلالنا فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق كله، جهاد في سبيل الله"[4].

(اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا، وان الله على نصرهم لقدير، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق، الا ان يقولوا ربنا الله..)[5].

ثالثا: ضوابط الرسالة الاعلامية (الخطاب الاسلامي)

١. الاحاطة التامة بالفكر الاسلامي بالنسبة للقائمين على توجيه الاعلام الاسلامي فان قيام من لم يستوعب حقائق الاسلام ولم يتعمق في شؤون الفكر الاسلامي بذلك، فان ضرره اكثر من نفعه.
٢. الدعوة عن بصيرة وتوجيه الرسالة الاعلامية الى الجمهور على قدر عقولهم، فقد قال علي (عليه السلام): "خاطبوا الناس على قدر عقولهم، اتحبون ان يكذب الله ورسوله"[6].
٣. اعتماد الحوار الهادئ والنقاش الحر والرفق في الدعوة تحقيقاً للتعلم القرآني (فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)[7].
٤. الرد على الشبهات بالمستوى اللائق، خصوصاً الدعايات السيئة التي تبث ضد الاسلام وذلك بمهارة تامة كمل يفعل الطبيب الحاذق.

---

[4] تفسير المنار، ج٢، ص٤٦١.
[5] سورة الحج، ٣٩-٤٠.
[6] اخرجه البخاري من صحيحه.
[7] سورة ال عمران/١٥٩.

ان الاعلام الاسلامي هو احد اهم قنوات الدعوة الاسلامية الداعية الى اتباع الحق وبهذه الدعوة الصادقة يجب ان لا تبثها الا الالسن الطاهرة والاقلام الصادقة ولا يتحمل مسؤوليتها الا ذوو الهمم العالية والنفوس الطيبة الذين يبتغون مرضاة الله وراعون حدوده واحكامه ممثلين قول الحق عز وجل (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم)[٨].

لذا فان الاعلام السياسي جزء من منظومة النظام العام الساعي لتحقيق مصالح الناس وسعادتهم وهو بهذا التوجه لابد ان يصاغ صياغة متزنة تتوافق وذلك النظام، وتنسجم مع كل معطياته الفكرية والسلوكية، كي لا يحدث صدام بين جزء واخر في داخل النظرية الواحدة.

كما ان (الاعلام الاسلامي) لابد ان يبتعد عن اسلوب الخطاب غير المتوافق مع طبيعة الشمولية-او الخطاب الذي يوجهه فكر ضيق لم يستوعب بعد مفهوم (خطاب النخبة) فيبقى محدود الجمهور، متقوقع الوجه، سلبي العطاء[٩].

- رابعاً: الاعلام الاسلامي.. ومواجهة التحديات

ان الحديث عن التحديات التي تواجه الاعلام الاسلامي يجعلنا نؤشر جملة من العوامل التي هي في حقيقتها كوابح وضغوط تقف في مواجهة الاعلام تثبط من عزمه وتحول دون تأديته لرسالته على اكمل وجه، وهذه التحديات كانت قائمة في نهاية القرن العشرين وامتدت الى القرن الواحد والعشرين ويمكن اجمالها كالاتي:

١. تحديات سياسية: وهي تتمثل بمجموعة القضايا الكبرى التي تواجه الاعلامي ويأتي على رأسها الاحتلال الصهيوني لفلسطين، والتجزئة وما ينتج عنها من نزاعات اعلامية عربية-عربية وعربية اسلامية وقضية الديمقراطية والحريات السياسية في اقطار الامة الاسلامية وقضايا التنمية والتبعية.
٢. السيطرة الحكومية والقانونية: تتمثل بالقوانين والتشريعات النقابية المنظمة لاعلام واللوائح المنظمة للمؤسسات الاعلامية والقوانين التي تكفل او تحد من الحريات وهذا يثير مسألة حرية وسائل الاعلام، وديمقراطية الاتصال.
٣. تحديات تمويلية واقتصادية: وهي تتمثل بمجموعة ضغوط وتأثيرات مباشرة وغير مباشرة في الاعلام كالممول والمستهلك (الجمهور) والتوزيع ومحدودية السوق.

---

[8] سورة النحل، اية ١٥٥.

[9] سيد محمد الشنقيطي، دراسات في الاعلام الاسلامي والرأي العام، القاهرة، ١٩٩٣، ص٣٧.

٤. تحديات مجتمعية: وتتمثل بالمستوى التعليمي والثقافي للمجتمع او مـا يمكـن تسميته بالامية التعليمية والامية الثقافية، وتثير هذه التحـديات مسـألة تـأثير الاتصال في المجتمع.
٥. تحديات تكنولوجية: تشكل المنافسة والتكنولوجية الاعلامية وما يرافقهـا مـن تدفق للمعلومات شكلاً من اشكال التحديات الدائمة للاعلام من حيـث قـدرتها على مواكبة التطورات التكنولوجية للصمود بوجه المنافسات الاعلامية المحلية والاقليمية والدولية[10].

ان هذه العوامل لا يمكن فصلها، فهي عوامل ديناميكية متفاعلة لانها تـرتبط بعملية الاتصال وتشكلها، ولكننا سنركز بحثنا على التحدي الاخير لمـا يشـكله مـن خطورة نلمسها يومياً وهي تتصاعد بخطى سريعة تعجزنا احيانا عن اللحاق بها.

خامساً: التبعية الاعلامية في ظل النظام الدولي الجديد

هناك ثورة جديدة في الاتصال والاعلام الدولي بدأت منذ منتصف السـبعينات توجب عليها تغيير النظرة الى تكنولوجيا الاعلام وسياسته ونظرياته. جعلت المجتمـع المعاصر يعتمد اعتماداً كبيراً على اساليب ووسائل الاعلام في نقل الحقائق او انصافها او تشويهها الى الجمهور، وتقوم بهذه العملية مؤسسات ضخمة قد تكون مملوكة للدولة او لمؤسسات تستعين باجهزة متطورة وفعالة كالصحافة والاذاعة والتلفاز وغيرها.

ولا نتوقع في القرن القادم ان يتم انصاف بشان التوازن في تدفق الاتصال بين دول الشمال والجنوب. وستظل مسألة تدفق الاتصال الحر باتجاه واحد من الشمال الى الجنوب ذات سيطرة على سوق المعلومات العالمية. وسيظل البون الشاسع موجوداً في تكنولوجيا الاتصال ويشير تقرير ادارة (شؤون المجتمع الدولي) الى ذلك بالقول.

"على الرغم من انه حدث توسع هائل في المدى الذي تصل اليه بعض وسائل الاتصال تظل اوجه اختلاف خطيرة فيما يتعلق بفرص الوصول الى المعلومات وفـي توزيع حتى التكنولوجيا الاكثر اساسية، فلا يزال نحو ملياري نسمة أي ما يزيد علـى ثلث عدد السكان في العالم-يفتقر الى الكهرباء، وفي عام ١٩٩٠ كان عـدد خطـوط الهاتف المتوافرة في بنغلادش والصين ومصر والهند واندنوسيا ونيجيريا مجتمعة اقل منه في كندا التي يعيش بها ٢٧ مليون نسمة فقط، ويتكرر هذا التفاوت في ملكية اقمار الاتصالات وهي الاساليب في عولمة وسائل الاعلام"[11].

---

[10] صالح ابو اصبح، تحديات الاعلام العربي، داز الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩، ص٨٩-٩٠.

[11] شريف درويش اللبان، تكنولوجيا الاتصال، المخاطر والتحديات، الدار المصرية للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٥٣.

ويرى كبير مهندسي شركة MCI فريد بريجز ان شبكة الهاتف مثلاً اخذت مائة سنة لتصبح على ما هي عليه الان، اما شبكة الانترنيت فأنها ستأخذ المستوى نفسه خلال خمس سنوات فقط، ويؤكد (جوشوا كوير رامو) بأنه يمكن تتبع بسهولة وبمنطق بسيط بان شبكة الانترنيت ستكون قوتها مائة ضعف عما عليه هي الان كأداة معلوماتية اعلامية في نهاية القرن العشرين[١٢].

وفي هذا السياق فان الغرب الذي فقد خصمه التقليدي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي سوف يزيد من حدة عدائه لعدو جديد مصطنع ممثلاً بالاسلام وصحوته الاعلامية، ويجد الخبراء الاعلاميين ان الاسلام سيكون محوراً رئيساً من محاور النقاش والجدال عبر شبكات الانترنيت. وبالطبع نتوقع من وسائل الاعلام الغربية ان تستمر في تشويه الاسلام وتشويه الشخصيات العربية والاسلامية المؤثرة على الساحة امعاناً في تحيزها المفضوح الى جانب الكيان الصهيوني ضد العرب.

فالدول الصناعية الغربية تمتلك عادة اكثر وسائل الاعلام تطوراً وتنوعاً لهذا فقطاعها الاعلامي اكثر انتشاراً. بينما تعاني الدول النامية من ضعف في الصناعات الاعلامية فهي محدودة الانتشار.

كما ان وسائل الاعلام في الدول النامية تتميز بأنتشارها غير المنظم فوسائل الاعلام الحديثة مركزة في المدن وتقل نسبة المعلومات كلما بعدنا عن المدن (وبالرغم من حصول اكثر دول العالم على استقلالها السياسي فان الثابت في واقع الخريطة الاعلامية الدولية يشير الى حقائق مؤلمة وتكريس الهيمنة الاعلامية والسياسية نتيجة هذا الاختلال الكبير في وسائل الاعلام)[١٣].

فلابد من الاعتراف بانه هناك عدداً محدداً من الوكالات الدولية تسيطر على بث الاخبار وتداولها، وتملك امكانيات ضخمة تغطي العالم كله وهي (وكالة الاسوشيتد-برس) الامريكية و(اليونيتد انتر ناشيونال) الامريكية ووكالة الانباء الفرنسية ورويتر البريطانية ووكالة تاس. حيث تمتلك هذه الوكالات والصحف والاذاعات المرئية والمسموعة حيث تشكل شبكة اخطبوطية مسيطرة بنوع الاخبار وبثها وصياغتها فهي تحتكر سوق الاعلام على المستويين الدولي والاقليمي.

وقد اسفرت هذه الظاهرة عن ظهور اختلال واضح يطلق عليه (التدفق في اتجاه واحد) من الدول المتقدمة، الى الدول النامية أي من الدول التي تمتلك القوة التكنولوجية الى الدول الاقل تقدما.

---

12 المصدر نفسه، ص٥٤.

13 احمد بدر، الاعلام الدولي، دراسات في الاتصال والدعايا الدولية، القاهرة، ١٩٧٧ بتصرف.

ومن ثم يتلقى العالم ٨٠% من الابناء من لندن وباريس ونيويورك في حين لا تخصص وكالات الانباء الرئيسة الا ما بين ١٠% الى ٣٠% من ابنائها للعالم النامي كله باحداثه وفعالياته.

فقد وجه احد الباحثين الغربيين الذي قام بمقارنة الاخبار الخارجية في جرائد نيويورك تايمس ولندن تايمس واللوموند ان دول العالم الثالث لا تحظى الا بتغطية هزيلة[١٤].

وتشير احدى الدراسات الاعلامية المقدمة لجامعة الدول العربية الى انه خلال المدة بين عام ١٩٧٣ الى ١٩٨٠ روجت وكالة الانباء العراقية لوكالات الانباء العالمية الخمس (١٤٥) الف و(١٠٨) خبراً في حين لم رتوج (واع) خلال نفس الفترة لوكالات الانباء العربية سوى (٤١) الف و(١٨٤) خبراً، ولمجموع وكالات العالم الاخرى التي تجاوز عددها عن مئة وكالة انباء سوى (١٠) الاف و(١٧١) خبراً بينما تشير الدراسة الى تجاهل وكالات الانباء العالمية وكالة الانباء العراقية فقد تبين انه في خلال ثلاث سنوات بثت واع (٥٥) الفا و(١٢٢) خبراً للوكالات العالمية الخمس في حين لم تروج هذه الوكالات لواع سوى الفين و(٤٣٠) خبراً. أي بنسبة ٥% من كمية الاخبار التي روجتها الوكالة العراقية لهذه الوكالات[١٥].

وهذا ما جعل الدول النامية دائماً في موقف المتلقي للاخبار والمعلومات وكانت دائماً ضحية تشويه شديد بسبب التغطية الاخبارية التي اتسمت دائماً بانعدام التعاطف بل والنزعة للتدمير.

وما يزيد الخطر تفاقماً ان وسائل الاعلام ووكالات الانباء الدولية واقعة في دائرة احتكار ثلاث دول غربية تتزعمها الولايات المتحدة الامريكية الامر الذي يجعل في ايديهم القدرة على تحديد وتقدير ما يراه ويقرأه ويسمعه العالم من انباء دولية.

ولم تقتصر السيطرة الغربية على المضمون الاعلامي بل امتدت الى امكانيات نقل المعلومات عبر الحدود الوطنية من خلال الاقمار الصناعية مما عمق كثيراً من التدفق الحر للمعلومات.. ولم تحاول الولايات المتحدة الامريكية اخفاء مفهوماً حول مسؤوليتها كقوة عظمى على الاعلام الدولي، فهي تعد الاعلام من الامور التي لا غنى عنها وان تحتفظ لنفسها بحق الاشراف على التسهيلات الفنية للاتصال الدولي وعلة مضمون الاعلام المتدفق.

وننقل هنا قول هو بمثابة (وشهد شاهد من اهلها) فالعالم الامريكي هربرت أز شيلر ينتقد بيئة وسائل الاعلام الامريكية بقوله: "ان الاتصال الجماهيري اصبح الان عماد المجتمع الامبريالي الصاعد فالرسائل الاعلامية التي يتم تصنيعها في امريكا تبث

---

14 شون ماكبريد، اصوات متعددة وعالم واحد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١، ص١٠٤.

15 المصدر نفسه، ص١٠٥.

اشعاعها الى الدول وتمثل القاعدة الحيوية لقوتها وتوسعها. بينما نجد ان التصورات العقائدية التي يحلم بها الفقراء هي حبيسة في سجون وسائل الاعلام الامريكية"[١٦].

ولقد لخص اوجه هذا الخطر، احد الخبراء الاعلاميين الغربيين (ستيفنسون شو) بالنقاط التالية[١٧]:

١. يقوم الغرب بتحديد اخبار العالم وتحريفها واستبعاد قيم العالم الثالث غير الغربية منها. وهذا يعني بانه يتم فرض قيم الغرب ويتم عرض صور التطور الثقافي لدول العالم الثالث من خلال عيوب الغرب واختياراتهم (وغربلتهم).
٢. وهذه الغربلة الثقافية تستبعد كثيراً من دول العالم الثالث التي ليس للغرب مصالح انية فيها.
٣. ان القليل من المعلومات التي تنفذ من العالم الثالث الى نظام الاخبار العالمي هي اخبار تؤكد على اوجه التمزق في العالم الثالث.
٤. تقوم وسائل الاعلام الغربية بنقل معالجة محرفة وسلبية للعالم الثالث والتي تنتقل الى دول العالم الثالث نفسها نظراً لاعتمادها بشكل رئيس على وكالات الانباء الغربية.

سادساً: وسائل الاعلام الغربية وتشويه قضايا العرب والمسلمين

نشرت احدى اكثر الصحف شعبية وتوزيعاً في بريطانيا تغطية لحادث تفجير لم يعرف بعد مسبباته وحملت ضد صفحتها الاولى (وقبل ان يعرف مرتكب هذه الجريمة) صورة رجل اطفاء يحمل طفلة قتيلة من ضحايا الحادث وفوق الصورة عنوان بارز يقول: بأسم الاسلام!!.

هذا المثال يعكس مدى سوء الفهم والعداء وردود الفعل اللاعقلانية ضد العرب والمسلمين حيث تقدم وسائل الاعلام الغربية صورة الاسلام على انه مرادف للتخلف والعنف والارهاب ومعاد لحقوق الانسان وحقوق المرأة، بل ان التغطية الاعلامية السائدة في الغرب للعرب والمسلمين تصورهم على انهم يعشقون العنف والدم.

يقول المؤرخ رونالد ستيل: "ان الامريكيون يعتقدون ان المسلمين هم اناس غاضبون جداً ليس لهم مطالب محددة يحركهم الكرة لامريكا ولاسرائيل ولاعداء الاسلام ويشكلون تهديداً للحضارة الامريكية ولمهمتها العالمية والتي تتجسد في تحقيق العولمة"[١٨].

---

[16] جيهان رشتي، الاسس العلمية لنظريات الاعلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠١، ص١٩٦.
[17] المصدر نفسه، ص١٩٩-٢٠٠.
[18] محمد حسنين هيكل، الصورة العربية في وسائل الأعلام الغربية: كيف يمكن تحسنها، من كتاب الأعلام الغربي والعرب، أبحاث ومناقشات ندوة الصحافة الدولية، لندن، ١٩٧٩، ص١٧-١٨.

يرى محمد حسنين هيكل: "ان جذور تشويه صورة العرب والمسلمين وسائل الاعلام الغربية يعود في بعضها الى اسباب تاريخية نتيجة عدم الثقة والخوف المتبادلين بين العرب واوروبا نتيجة نزاعات رئيسة كالاسلام والامبراطورية الرومانية الشرقية والصليبيين نتج عن ذلك علاقات بين العرب والغرب امتازت بالحساسية الاقتصادية والعسكرية والدينية"[١٩].

وبالطبع ساهمت وسائل الاعلام الغربية الى حد كبير في تعميق سوء الفهم بتشويه صورة الشخصية العربية والاسلامية فهي احد اهم مصادر التضليل الاعلامي ضد العرب.

يقول اريك رولو الصحفي الفرنسي اليهودي الشهير (اعترف بالتحيز ذلك ان معشر الصحفيين متحيزون بطريقة او بأخرى).

هذا التحيز الاعلامي له عواقبه السياسية والاقتصادية الوخيمة حيث استخدم التضليل الاعلامي ذريعة للانشطة واتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية الاوروبية والامريكية ضد العرب والمسلمين في المحافل الدولية[٢٠].

كما ساهم في وضع معالم الشخصية العربية في الادبيات والمؤسسات الغربية في صورة نمطية تشوه حضارتها وثقافتها. وهذه الصورة النمطية هي نتيجة حتمية لمحاولة الغرب على ابقاء صورة العربي والمسلم في صورة نمطية جامدة هي حصيلة تراكمية لهجوم قديم موجه ضدهم بتشبيه العربي والمسلم بالفقير الوسخ والسلطان السمين وربطه بالحريم والجواري والمتاجرة بالعبيد والارهاب الدولي.

ويرى ادوارد موتايمر: "ان الجمهور الغربي بدلا من ان يبدأ في الفهم والتعاطف مع مختلف الشعوب المسلمة، فانه يثبت رؤية لهم بأنهم همجيون غامضون غير عقولانيين وسلوكهم محكوم بقانون اخلاقي بدائي وسري وغير مؤهلين للمشاعر الانسانية"[٢١].

ولقد انعكست صورة التشويه للاسلام والمسلمين-والعرب خير من يمثله في الالة الاعلامية الغربية-في دراسات المستشرقين ودراسات الاكاديميين. وقد انعكست هذه الصورة على الطريقة التي بها تم تقديم الاسلام في الغرب. اذ يقدم الاسلام دوماً على انه تهديد للغرب وللحضارة الغربية".

وهذا الموقف من الإسلام والمسلمين.. يمثل اكبر التحديات التي تواجه الأعلام الإسلامي.

---

[19] المصدر نفسه، ص١٢٣.

[20] جون مارتن، الحكومات الأوروبية وتضليل الرأي العام، جريدة الاتحاد، ١ تشرين الثاني ١٩٨٨.

[21] المصدر نفسه.

ولا يقتصر التشويه على الأعلام المقروء والمسموع والمرئي فلقد امتدت أصابع التضليل الغربية الى أحدث وسائل الاتصال الجماهيري ونعني بها شبكة الانترنيت.

ففي صيف عام ١٩٨٨ قامت أحدى المنظمات المشبوهة من خلال شبكة الانترنيت بمحاولة لتشويه القرآن الكريم. حيث طالبت هذه المنظمة من زوار موقعاً على الانترنيت بتأليف سور تحاكي السور القرآنية الكريمة في محاولة منها لاقناع جمهور الشبكة العالمية بأن القرآن ليس معجزة الهية من عند الله عز وجل، بل هو من صنع البشر..!! وبعد كم الاحتجاجات الهائلة من قبل المسلمين المستخدمين للشبكة العالمية لهذه المنظمة مع ما تبثه من افكار هدامة وتسيء للاسلام، اعلنت شركة (امريكا اوم لاين) (Ameruca On Linc) التي تدير الانترنيت رفضها بث افكار هذه المنظمة[٢٢].

ورغم ما تثيره هذه المحاولة للنيل من عقيدة الاسلام من غضب واستياء في نفوس المسلمين.. الا انها تمثل انذاراً مباشراً بينها الى اننا لم نعد الاعلامي الاسلامي المناسب للتعامل مع تقنيات القرن القادم، والذي يتمتع بفهم جيد للاسلام ويتحدث لغة اجنبية بطلاقة. ويستطيع استخدام تكنولوجيا الحسابات الرقمية، ويمكن له ان ينفذ الى مثل هذه المواقع على الشبكة العالمية، ويعد الرد المناسب على ما تبثه من اكاذيب ودعاوي مضللة.

ورداً على هذه المحاولات.. قاد د. محمد سيد طنطاوي شيخ الازهر بتشكيل لجنة برئاسته، نضم جميع التخصصات الدينية بهيئاتها من الازهر والمجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، ومجمع البحوث الاسلامي، ودار الافتاء وجامعة الازهر وحدد لها مهاما ثابتة، وهي متابعة ما ينشر على شبكة الانترنيت من معلومات تسيء للاسلام وتعاليمه، وإعداد المادة العلمية الموثقة للبث على الشبكة للتعريف الصحيح بالاسلام، وشرح تعاليمه، وتقديم تفاسير للقرآن الكريم والاحاديث النبوية، مع تزويد الموقع بعنوان البريد الالكتروني للرد على الفتاوي من مختلف المسلمين في بلدان العالم، وللجنة الحق في ان تستعين بمن تراه لتحقيق مهامها، ولها ان تؤلف لجاناً فرعية متخصصة في العلوم الدينية[٢٣].

---

[22] اخبار اليوم، منظمة عالمية مشبوهة تهاجم الازهر ١٥ اب ١٩٩٨.

[23] الاهرام، الاسلام الصحيح، كيف نقدمه على الانترنيت، ٢٥ ايلول ١٩٩٨.

وللرد على هذا العبث رداً حقيقاً يجب ابتاع استراتيجية ثابتة تجاه المحاولات المتتالية لتحريف القرآن عبر الشبكة العالمية ولتعدد المواقع المخربة والمشبوهة، وتتضمن هذه الاستراتيجية:

اولاً: تطوير اسلوب عرض مفاهيم الاسلام على العالم باستخدام الاساليب الفنية الحديثة لاتاحة المعلومات الصحيحة لكل من يرغب ان يعرف شيئاً عن الاسلام مع التأكيد على الوسيلة الاحدث، شبكة الانترنيت.

ثانياً: الرد المباشر على الافتراءات التي تروج من حين الى الاخر ضد الاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام عبر الشبكة الدولية.

ثالثاً: اتخاذ الاجراءات القانونية ومقاضاة بعض الشركات التي تسمح ببث مواقع تسيء الى الاسلام.

وقد انشأ (مركز الدراسات والموسوعات الاسلامية) بالمجلس الاعلى للشؤون الاسلامية موقعاً على الانترنيت[٢٤]. ويتضمن صفحة للتعريف بالاسلام ومفهومه وصفحة للعقيدة وشرح اركان الايمان وصفحة للفن الاسلامي وتاريخه وسماته، وصفحة اركان الاسلام بالاضافة الى استخدام الصورة والرسوم الشارحة وترجمات باللغة الانكليزية.

سابعاً: الحرب الاعلامية.. حرب المستقبل

الحرب الاعلامية.. حرب من نوع جديد، تستغني عن كل ما عرفناه من اشكال الحروب، فهي حرب مستقنية عن بؤرة معينة، ارض او موراد-لاحتلالها او مسرح استراتيجية للقتال وهي حرب لا تحتاج الى السلاح ولكنها افتك من قوة النيران، وهي حرب يصعب ملاحقة حركتها واثارها التدميرية فليس هناك جيوش تتقدم او تتراجع وخسائر بشرية يمكن احصائها، انها حرب غير مرئية العواقب تشتغل في عقول الناس ووعيهم وضمائرهم وذاكراتهم، فالاصابة هنا تكون فادحة فالنزيف ليس دماً يمكن تعويضه بل ادراكاً واعتقاداً يتسرب، والمنتصر لا يستولي على جغرافية بل على تاريخ وتراث وثوابت وقيم.

ولذلك على ما سبق بحدث قريب الوقوع ونعني به غزو افغانستان فنلاحظ ان الضربات الاعلامية التي تعرضت لها طالبان كانت اشد ضراوة من القصف بالقنابل.

---

[24] عنوان هذا الموقع هو:www.cise,goreg .

فالسيطرة الامريكية والغربية على الادوات الاعلامية ساهمت في التراجع السريع لسيطرة طالبان على الولايات الافغانية فالاعلام اسقط الولايات قبل ان تسقط فعليا بترويج الاشاعات والاكاذيب في حرب نفسية ضارية احادية الضغط.

حيث لم يعد لطالبان وسيلة اعلامية تبث اخبارها بعد تدمير اذاعاتها المحلية الوحيدة وغلق سفارتها في اسلام ابادج والناطق باسمها واستبعاد الوسيلة الاعلامية المتعاطفة معها بعد قصف مكتب الجزيرة في كابل. واجبار مراسليها (تيسير علوني ويوسف الشولي) على مغادرة افغانستان.

ونتيجة لهذا الحصار والتعتيم الاعلامي ازدادت خطورة هذه الحرب الاعلامية على من يتابع الاحداث خارج افغانستان وكذلك على الشعب الافغاني في الداخل حيث لم يعد امام المواطن الافغاني من وسيلة لتقصي اخبار ما يدور حوله الا الاذاعات الغربية الموجهة التي تبث اكاذيب تطمس الحقائق وتشوهها.

وهذا العجز الاعلامي الاسلامي ليس وليد اللحظة، فللاسف الدول الاسلامية لم تنتبه الامؤخراً او لازالت غافلة عن اهمية الاعلام كأداة حيوية في حروبنا العسكرية والسلمية، فهي تمتلك المال والكفاءات ولا تخطوا خطوة واحدة باتجاه انشاء اداة اعلامية قوية كوكالة الابناء الاسلامية.. هذا المقترح الاسلامي المهمل في ادراج منظمة المؤتمر الاسلامي منذ عشر سنوات.

نحن بحاجة الى وعي اسلامي جديد يدرك اهمية الجهاد الاعلامي وينظر للاعلام على انه سلاح اكثر فتكاً من القنبلة وانه احد الاسلحة التي يستخدمها الامريكان وحلفائهم كجزء اساسي من منظومة الاسلحة التي يخوضون بها حروبهم، فثمن دبابة واحدة كفيل بتمويل ادارة اعلامية متميزة بالغة التأثير، نحن بامس الحاجة الى ان توظف الاموال والكفاءات في دعم الادوات الاعلامية الجادة القائمة وانتشار المزيد وابتكار الامكانات التي تفيد من التكنولوجيا الحديثة.

ولكي ندرك اهمية الاعلام في حروبنا المستقبلية علينا ان نستذكر الكم الهائل من الضغوط والتهديدات التي تعرضت لها قناة الجزيرة اثناء تغطيتها للحرب رغم انها قناة واحدة امام مئات القنوات الغربية فانهم لم يحتملوا مع ان المادة الاخبارية التي كانت تبث لصالح الامريكيين بلغت ٩٠% تقريباً في بعض الفقرات.

لكنهم لم يحتملوا نسبة ١٠% من الحقائق لانهـا تعـري جـرائمهم وتفضـح فظائعهم. وقد سبق ان سلط الاعلام الغربي هيمنته الطاغية في حربه العدوانية علـى العراق في خلال الاعوام ١٩٩١-٢٠٠٣ ولازال.

وهناك فكرة تنفيذ بث تلفزيوني على غرار اذاعة القران الكريم يـدفعنا الـى تحقيق هذه الفكرة كثرة الرسائل والاتصالات المباشـرة التـي تصـل مـن المتلقـي (المستمع) حيث تشكل النسبة الاصلية من جمهورنا من المواطن العادي ثم تأتي النسبة الاخرى من النخبة الثقافية والفكرية من المستمعين، وهناك خـط تصـاعدي للجـذب نستطيع رصد تصاعد الى نسبة ٧٠% من الجمهور.

ثامناً الاعلام الاسلامي.. آفاق المستقبل

ان الاعلام هو قوة رديفة للعمل السياسي والاقتصادي. وقد جاء في اول قمـة عربية عقدت في عام ١٩٦٤ اعتبار الاعلام احد الاسلحة الاساسية لمواجهة الخطـر الصهيوني.

ولكي ينجح الاعلام الاسلامي في تحقيق اهدافه، فانه رهين في اقتداره علـى مجابهة التحديات التي تحتاج الى وعي لدى الاعلاميين يدركون من خلاله مـن هـم الاصدقاء ومن هم الاعداء ويدركون مدى الاخطار التي يفرزهـا الواقـع الاقليمـي والصراعات المحيطة به.

فنحن بحاجة الى المتصل (الاعلامي) الخبير الذي يعرف كيف يصمم الرسالة ذات تأثير مستخدماً امكانيات العلم في تصميم الرسالة الاعلامية، وهذا المتصل يجـب ان تكون لديه مواصفات عديدة. من بينها الثقافة مع الالتزام بالثوابـت والقـيم كـي تستطيع مواجهة التحديات. وهذا الاعلامي يجب ان تكون لديه معرفة بنظريات الاعلام وتأثيراته وخبرة في معرفة الجمهور. والاسلوب الامثل بمخاطبته ومعرفـة التوقيـت الانسب للوصول اليه.

واما الرسالة الاعلامية فيجب ان تكون ذات مضمون وشكل قـادرين علـى استقطاب الجمهور. واما الوسيلة فيجب ان تدرك ان لكل وسيلة خصائصها فالصحيفة ليست كالكتاب وليس الاذاعة كالتلفاز واذا كان لكل وسـيلة جمهورهـا فـان درجـة المصداقية والتأثير لكل وسيلة ستختلف عن الاخرى.

ولتفعيل هذه الخصائص فان هناك افاق جديدة يجب طرقها بعد تحديد الاهداف:

١. تحديد المشكلات الحقيقية والحيوية التي جب ان يعرضها الاعلام الاسلامي.
٢. اعداد الخطط الاعلامية واضحة المعالم طويلة المدى واخرى قصيرة المدى تكون مؤشراً لتحقيق الهدف من خلال حملات اعلامية شاملة.
٣. توفير الكوادر الاعلامية المدربة وذات الخبرة والكفاءة والمسلحة بالوعي القومي والديني وطبيعة المشكلات الدولية.
٤. توفير التنسيف والتعاون بين مختلف الاجهزة الاعلامية.
٥. توفير الميزانيات الملائمة لتمويل المشاريع الاعلامية مما يوفر افضل الكوادر الاعلامية. واستخدام احدث انواع التكنولوجيا الاصتالية.
٦. توفير المعلومات المسبقة لاعداد الحملات والخطط الاعلامية وذلك من خلال البحوث والدراسات التي تتناول الظاهرة الاعلامية.
٧. الاستفادة من الظروف الملائمة للبدء في حملات اعلامية مثلاً: الانتفاضة العربية البطلة في فلسطين وضرورة كشف الارهاب الصهيوني ووحشيته للرأي العام العالمي.
٨. الوقوف بحزم امام حملات التشويه التي يتعرض لها الاسلام والمسلمين في كافة وسائل الاعلام الغربية.
٩. ضرورة وجود روابط بين خريجي الكليات والمعاهد الاعلامية والاسلامية وتوثيق علاقتهم بالمؤسسات الاعلامية تكثيفاً لمستوى خدماتها المجتمعية.

النظرية الاتحادية والاتجاهات الحديثة فيها

الدكتور
قحطان احمد سليمان الحمداني(*)

المقدمة

اذا كانت النظرية السياسية هي الاراء والافكار التي تخص الظاهرة السياسية، والتي ثبتت صحتها من خلال الممارسة الفعلية وتكرار النتائج المستخلصة منها، وامكانية تعميمها والاخذ بها ادراكا لاهميتها في الحياة السياسية، فان النظرية الاتحادية هي نظرية سياسية وقانونية واجتماعية واقتصادية، تتضمن مجمل المبادئ والاراء التي استقر عليها الفقه السياسي في موضوع الاتحاد بين الدول والمنظمات الدولية والتي افرزتها الممارسات العملية المتكررة كنتائج يمكن الاعتماد عليها في الاتحادات الدولية القائمة، وتعميمها على الحالات المستقبلية، وهي عملية مستمرة في الحياة السياسية الدولية، فكل حالة اتحادية مستمدة من الحالات التي سبقتها، ولكنها متطورة عنها، ويمكن الاستفادة من تطبيقاتها سلبا وايجابا من اجل تثبيت الحالات الايجابية، وحذف او تعديل الحالات السلبية، وبهذا المعنى فان النظرية الاتحادية متطورة مع الزمن، مفتوحة لكل التجارب الاتحادية، ومتفاعلة مع كل المبادئ والسياسات الجارية، ومع كل التجارب في الحاضر والمستقبل، سيما في ظل المتغيرات الدولية الجديدة، وحرية انتقال الافكار، واختلاف وجهات النظر، وضرورات التنوع الفكري النابع من التنوع السياسي، فهي ليست نظرية جامدة وانما منطلقة نحو الامام للاغتناء الفكري من مختلف المنابع الفكرية.

ان النظرية الاتحادية مرت بمراحل عديدة وممارسات متباينة، وقد اتحدت دول وشعوب منذ اقدم الازمنة، ونشأت الدول والامبراطوريات، ولكن معظمها كانت قسرية، واتخذت اشكال الدولة البسيطة الاندماجية، اما الدولة المركبة ،فرغم قدمها الا انها ازدهرت في العصر الحديث، وتركت اشكالا مختلفة، وقد اصبحت بعضها تاريخية او شبه تاريخية كالاتحاد الشخصي (اتحاد التاج) والاتحاد الفعلي، بينما استقرت الاتحادات الفيدرالية والكونفيدرالية، وانتشرت في القرنين الماضيين، وان كانت مختلفة بعضها عن البعض الاخر، ولكن، واستنادا إلى منطق التطور فقد اتيحت

(*)كلية العلوم السياسة ـجامعة بغداد.

الفرصة لانواع جديدة من الاتحادات تجمع بين عدة نماذج، وتحتاج الى تسميات جديدة.

ان هذه الورقة تحاول عرض النظرية الاتحادية من خلال المبادئ والافكار المترشحة عن التجارب الاتحادية اولا ، ومن خلال الممارسات الاتحادية المختلفة ثانيا، واضافة ما يمكن اضافتها عليها ثالثا، اسهاما في رصد التحولات والتغيرات الجديدة، وطرح الاراء والمبادئ التي يمكن لها ان تجد طريقها الى النجاح.

اولا: نظرية الاتحاد الفيدرالي

.اشتق مصطلح (الفيدرالية) من الكلمة الانكليزية (Federation) بمعنى الاتحاد[1]، و(ederal state) بمعنى (الدولة الاتحادية) التي توجد فيها حكومة مركزية، ومجموعة حكومات اقليمية، وفق دستور معتمد يورد اختصاصات مستويي الحكم[2]. ولكل منها سلطات مختلفة، فالحكومة المركزية لها سلطات اتحادية محصورة في السياسة الخارجية وعقد المعاهدات والاقتصاد والمالية وشؤون الدفاع والعدل، بينما تختص الحكومات الاقليمية بمسؤوليات السلطة في الاقاليم كالنقل والتعليم والصحة والخدمات والتشريع الداخلي.. وهذا يعني ان السلطة مركبة وليست سلطة واحدة كما هو الحال في الدولة البسيطة الموحدة (الاندماجية). غير ان الدولة المركبة ليست على نوع واحد، فهنالك الاتحاد الشخصي والاتحاد الفعلي والاتحاد الكونفيدرالي واتحادات اخرى مختلفة تجمع بين خصائص عديدة، وهي تتراوح بين القوة والضعف وفقا لصلاحياتها واشكالها[3].

ان نشاة الاتحاد تاريخيا تعود الى جذور قديمة ، ففي العهد اليوناني كان هنالك اتحاد عسكري دفاعي بين (١٢) مدينة يونانية سمي بـــ(عصبة أشيان)، وقد احتفظت

---

[1]- حسن عبد الله. قاموس مصطلحات العلاقات والمؤتمرات الدولية. بيروت، مكتبة لبنان ١٩٨٢ ص ١١٧.

[2]- د. احمد زكي بدوي. معجم المصطلحات السياسية والدولية. القاهرة، دار الكتاب المصري ١٩٨٩ ص ٥٨. انظر ايضاً:

جورج روبرتز، والستر ادواردز. المعجم الحديث للتحليل السياسي، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي. بيروت، الدار العربية للموسوعات ١٩٩٩ ص ١٧١ ــ ١٧٢.

[3]- د. يحيى الجمل. الانظمة السياسية المعاصرة. بيروت، دار النهضة العربية ١٩٦٩ ص ٥٢. انظر ايضاً:

د. حسين عثمان محمد عثمان. النظم السياسية والقانون الدستوري، الاسكندرية، دار المطبوعات الجامعية ١٩٩٨ ص ٩٣.

د. عبد الغني بسيوني عبد الله. النظم السياسية . الاسكندرية ، دار المطبوعات الجامعية ١٩٨٥ ص ٩٢.

كل مدينة بحق ادارة شؤونها الداخلية وفقا لنظمها السياسية، واضعة ادارة الشؤون الخارجية والدفاعية بيد العصبة، وبذلك لم يكن من حق اية مدينة اعلان الحرب او اقرار السلام لوحدها، ولولا السيطرة الرومانية عليها لاستطاعت تحقيق اتحاد كافة المدن اليونانية [4]. وفي عام ١٢٩١ تحقق الاتحاد السويسري من (٣) مقاطعات انضمت اليه دول ومقاطعات اخرى، وقد اسندت مسألة الدفاع الى الاتحاد، بينما احتفظت كل دولة باستقلالها الخاص. وتعتبر الولايات المتحدة الامريكية اول دولة اتحادية فيدرالية في العصر الحديث وفقا لدستور عام ١٩٨٧[5].

اما اسباب الاتحاد فهي عديدة، وفي مقدمتها الرغبة المشتركة في اقامة الاتحاد بسبب الشعور بالتجانس الشعبي او القومي او الوطني في الانتماء الى امة واحدة وشعب واحد، او عامل الجوار الجغرافي لمجموعة دول متجاورة، او التاريخ المشترك للشعوب والامم والاوطان، او المصالح الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المشتركة في مواجهة دول اخرى، اوالعادات والتقاليد المتقاربة[6]، والتشابه في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية[7]، والاعتبارات الدينية والمذهبية والايديولوجية، وتحقيق المساواة والعدالة، واكتساب القوة والنفوذ[8]، ووجود العدو المشترك الذي يحتم على الدول التضامن مع بعضها ومن ثم الاتحاد[9] وعلى ذلك فان الاتحاد يتحقق بسبب واحد من الاسباب الانفة الذكر او عدة اسباب او كلها تبعا لاوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والوشائج التي تربط بينها.

ان اقامة الاتحاد المركزي (الفيدرالي) تتم بعدة طرق هي:

١- اتفاق مجموعة دول مستقلة لاقامة الاتحاد، وهو الاسلوب الغالب بين الدول، اذ يتم وضع دستور دائم للدولة الاتحادية تحدد حدود السلطات الاتحادية والاقليمية[10]، كسويسرا.

4- د. لؤي بحري. مبادئ علم السياسة . بغداد ، مطبعة شفيق ١٩٦٧ ص ١٣٨-١٣٩.

5- المصدر السابق ص ١٣٠-١٤٠ .

6 - Leon N. Lindberg and Stuart A. Schengold. Reginal Integration. Harvard press 1971 p 11.

7 - Steven Rosen. Walter. S. Jonse. The Logic of International Relations. London, Winthro Publishers 1914 p 330.

8- د. محمود اسماعيل. المدخل الى العلوم السياسية. الكويت، مكتبة الفلاح ١٩٨٦ ص ٣٠١-٣٠٢.

9- د. محمد لبيب شقير. الوحدة الاقتصادية العربية، تجاربها وتوقعاتها، ج ٢. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٦ ص ٨٤٠ –٨٤٢.

10- لؤي بحري. المصدر السابق ص ١٤١.

٢- تفكك دول بسيطة الى عدة دويلات صغيرة، مع رغبتها في الاستمرار معا بشكل اتحاد مركزي فيدرالي كالمكسيك والبرازيل والارجنتين[11].
٣- قيام حكومة مركزية لدولة بسيطة موحدة باقامة الاتحاد الفيدرالي بين اقاليمها كاستراليا، وكندا، وجنوب افريقيا[12].
٤- التحول من اتحاد كونفيدرالي الى اتحاد فيدرالي كما حدث للولايات المتحدة عام ١٧٨٧ بموجب الدستور الاتحادي[13].
٥- قيام الدول الاستعمارية باقامة اتحاد بين مستعمراتها. كاتحاد الجنوب العربي الذي ضم عدن والامارات المجاورة لها، والتي قامت بريطانيا باقامتها عام ١٩٥٩[14].
٦- اتفاق مجموعة اقاليم على اقامة اتحاد بينها عشية الاستقلال، كاتفاق الامارات العربية السبعة على اقامة دولة الامارات العربية المتحدة عام ١٩٧١ [15].
٧- قيام الامم المتحدة باعلان الاتحاد الفيدرالي، استنادا الى رغبة الشعب في الاستقلال عن الاستعمار وتحقيق الاتحاد، وهو ما حدث عام ١٩٥١ حين اعلن عن قيام المملكة الليبية المتحدة [16].

ان النظرية الفيدرالية تستند الى التوفيق بين تناقضين هما:

أ. الحرص على الذاتية.

ب. السعي لتنظيم جماعي يشمل الجماعات الذاتية (الدول والاقاليم)

---

[11]- هشام ال شاوي. مقدمة في علم السياسة. الموصل، مطابع دار الكتب ١٩٧٠ ص ١٥١.

[12]- ريموند كارتيل كيتيل. العلوم السياسية. ج ٢، ترجمة د. فاضل زكي محمد. بغداد، مكتبة النهضة ١٩٦٣ ص ٣٠٧.

[13]- ميشيل ستيوارت. نظم الحكم الحديثة، ترجمة احمد كامل. القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٦٢ ص ١٣١.

[14]- جيليان كينج. اهداف الاستعمار في عدن، ترجمة خيري حماد. القاهرة، الدار القومية ١٩٦٦ ص ٨٢.

[15]- د. عبد الله حسن الاشعل، اتحاد الامارات العربية، رسالة ماجستير – كلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة ١٩٧٦ ص ٣٧-٣٨.

[16]- احمد طربين . التجزئة العربية كيف تحققت تاريخيا. بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٧ ص ٢٠٠. انظر ايضاً:
محمد فرج . الامة العربية على الطريق الى وحدة الهدف. القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٦٤ ص ٣٣٧.

وهذا التوفيق يطرح نفسه بصيغة دستورية وقانونية في الظاهرة الفيدرالية التي يحكمها قانونان علميان هما:

أ. قانون التراكب.

وهو وجود انظمة كلية باختصاص شامل للجماعة الفيدرالية المركبة، وهي انظمة تميل لان تكون فوق الانظمة الخاصة بالجماعات المؤلفة للجماعة الكلية.

ب. قانون الذاتية.

وهو ان الجماعات المؤلفة للفيدرالية المركبة تتمتع كل واحدة منها باختصاص ذاتي خالص لا تخضع فيه لرقابة من جانب الانظمة الكلية ، وهي بهذه الصفة تتميز عن غيرها من الهيئات والجماعات اللامركزية في الدولة الموحدة [17].

وعلى هذين القانونين ينهض كل نظام فيدرالي، وبهما معا تتحدد حالة التوازن فيه، وعلى اساس مدى غلبة كل من القانونين ازاء الاخر تتعدد نماذج النظم الفيدرالية، ونماذج النظم الكونفيدرالية، ففي الاول ترجح كفة قانون التراكب ازاء قانون الذاتية، بينما في الثاني تكون الغلبة لقانون الذاتية على قانون التراكب[18]، وهذا يعني ان السيادة بين السلطة الاتحادية (الفيدرالية) والسلطات الاقليمية ليست متعادلة، او متساوية، وانما تكون اليد العليا في القرارات الرئيسية للسلطة الاتحادية، اي انها ليست ندية، وانما يخضع اقليم الدولة ورعاياها للقوانين الاتحادية دون حاجة الى موافقة حكومات الاقاليم، في حين ان قوانين الاقليم لا تلزم السلطة الاتحادية، ولا سلطات الاقاليم الاخرى. وفي الدستور الامريكي الاتحادي تكون النصوص الدستورية والقوانين الاتحادية والمعاهدات والاتفاقيات التي تبرمها الحكومة الاتحادية القانون الاعلى للبلاد، بمعنى اخر ان سمو القواعد الدستورية الفيدرالية على قوانين الولايات هو روح الرابطة الاتحادية ومن اهم سمات الدولة الفيدرالية [19].

وفي الحقيقة ان نظرية سيادة الدولة الفيذرالية دون الولايات او الاقاليم تؤكدها الممارسات السياسية للدول الفيدرالية المستندة الى الدستور الاتحادي، ويدافع العديد من

---

[17]- د. محمد طه بدوي. اصول علم السياسة، ط٢. الاسكندرية، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر ١٩٦٥ ص ١٨٨.

[18]- المصدر السابق ص ١٨٩.

[19]- بول روتيه. التنظيمات الدولية ، ترجمة احمد رضا. القاهرة. دار المعرفة ١٩٧٨ ص ٢١٥-٢١٧. انظر ايضاً:

د. محمد انور عبد السلام. التجربة الاتحادية الامريكية وقيمتها للوحدة العربية. القاهرة، مكتبة الانجلو مصرية ١٩٧٤ ص ١٣٦.

الفقهاء القانونيين والسياسيين عنها لانها تمثل الواقع السياسي[20]. اما نظريات تجزئة السلطة بين السلطة الاتحادية وسلطات الاقاليم، او نظرية الابطال التي تعتقد ان السلطة بيد الاقاليم، وان السلطة الاتحادية ليست سوى تجميع لسلطات الاقاليم، فهي لا تمثل الا اراء القلة، والتي لا تجد لها سندا واضحا في الواقع السياسي[21].

وبناءا على ذلك فان اختصاصات السلطة الاتحادية (التنفيذية والتشريعية والقضائية) نابعة من كونها تمثل الشخصية الدولية للاتحاد وكل مايتعلق بالسيادة والاستقلال والسياسة الخارجية والدفاع، وعقد المعاهدات واعلان الحرب والسلام، والمالية والاقتصاد الفيدرالي، وما يتبعها من المحكمة الفيدرالية واجهزة الامن والمخابرات والعلم الوطني، والعملة الوطنية وجوازات السفر وهي صلاحيات مختلفة بين دولة واخرى، فهي تضيق وتتوسع وفقا للنظم السياسية الليبرالية-الراسمالية، والنظم السياسية الاشتراكية ووفقا لدساتيرها [22]، ففي الدول الغربية كالولايات المتحدة وبريطانيا، والمانيا وسويسرا تكون الصلاحيات محدودة بالسياسة الخارجية والدفاع والاقتصاد والعدل[23]، بينما في الدول الاشتراكية كالاتحاد السوفيتي السابق ويوغسلافيا السابقة كانت صلاحية السلطة الاتحادية واسعة [24].

ان بعض الدول الفيدرالية تحدد الاختصاصات الفيدرالية حصرا في الدستور، سواء بالنسبة للسلطة الاتحادية، او بالنسبة لسلطات الاقاليم، فاذا حددت بالنسبة للسلطة

---

[20] - انظر على سبيل المثال:
د. الشافعي محمد بشير . نظرية الاتحاد بين الدول وتطبيقاتها بين الدول العربية. الاسكندرية ، منشأة معارف الاسكندرية ١٩٦٣ ص ٣٨.
د. ميشال خطار الرياشي. اسهام في دراسة النظرية التقليدية للدولة الفيدرالية. بيروت – الجامعة اللبنانية ١٩٩٢ ص ٢٩٩ .

[21] - د. محمد عمر مولود. الفيدرالية وامكانية تطبيقها في العراق، ط٢. اربيل، مؤسسة موكرياني للطباعة والنشر ٢٠٠٣ ص ٢٨٨-٢٩٤. انظر ايضاً:
عبد الله جمعة الحاج. النظام الاتحادي الفيدرالي. الادبيات والمفاهيم. في مجلة (العلوم الاجتماعية) العدد (٢) المجلد (٢٦) صيف ١٩٩٥ ص ٧٧ .

[22] - د. نظام بركات واخرون. مبادئ علم السياسة . عمّان ، دار الكرمل ١٩٨٤ ص ١٦٨ . انظر ايضاً:
د. بطرس بطرس غالي ، د. محمود خيري عيسى . نظم الاتحادات الدولية. القاهرة، الدار القومية ١٩٦٠ ص ٢١-٢٢ .

[23] - روبرت بوي، وكارل فردريك. دراسات في الدولة الاتحادية، ج٣، ترجمة وليد الخالدي وبرهان دجاني، بيروت، نيويورك ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٦٦ ص ١٨٤ .

[24] - ميشيل ستيوارت .المصدر السابق ص ٣٦٧-٣٨٣ . انظر ايضاً:
د. عصام العطية. القانون الدولي العام ، ط٣. بغداد ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. جامعة بغداد ، كلية القانون والسياسة ١٩٨٢ ص ٢٤١-٢٤٧ .

الاتحادية حصرا، فان ما دونها تكون لسلطات الاقاليم، فقد حدد الدستور الامريكي عام ١٧٨٧اختصاصات الاتحاد بادارة الشؤون الخارجية، والعسكرية والمحافظة على الامن العام، وامور الجنسية والعملة وتنظيم التجارة مع الدول الاجنبية والعقوبات للجرائم المرتكبة ضد امن الاتحاد، وضد القانون الدولي، وفرض الضرائب الاتحادية. بينما ترك للاقاليم اختصاصات التصرف بالشؤون ذات الطابع المحلي كإنشاء وتنظيم المصالح المحلية والتربية والصحة والتجارة المحلية والضرائب[25].

وقد يحدد الدستور اختصاصات الولايات والاقاليم حصرا على ان تكون بقية الاختصاصات للسلطة الاتحادية كما هو في دستور كندا، او ان يحدد الدستور اختصاصات الاتحاد والاقاليم حصرا، وهو اسلوب لايستوعب الحالات التي تتطلب تشريعات دستورية جديدة[26].

وهنالك اختصاصات مشتركة، كأن تكون المحافظة على امن الاقاليم من مسؤوليتها ، فاذا اخفقت في ذلك تتدخل السلطة الاتحادية، او ان تخضع حرية تصرف الاقاليم لرقابة اتحادية، او ان تمنح سلطات الاتحاد صلاحيات اختيارية، فان لم تمارسها اكتسبت الولايات حق تنظيمها[27].

اما مؤسسات الاتحاد فهي السلطة التنفيذية التي قد تكون رئاسية حيث ينتخب الرئيس من الشعب مباشرة كما في الولايات المتحدة، او برلمانية بمعنى وجود رئاسة جمهورية او ملكية لها صلاحيات شكلية، ومجلس وزراء بيدها الساطة الفعلية نتيجة الفوز في الانتخابات، كما في المملكة المتحدة.

اما السلطة التشريعية الاتحادية فتتكون من مجلسين، احدهما يمثل الشعب في انتخابات حرة عامة، والثاني يمثل الاقاليم بنسبة معينة، كمجلس الشيوخ الامريكي الذي يضم عضوين من كل ولاية، ومجلس الدول في سويسرا الذي يضم عضوين من كل كانتون[28]، بينما يختلف مجلس الشيوخ في كندا اذ يمثل كل ولاية من (٤-٢٤) ممثلا طبقا لعدد السكان[29]، وهي تراقب السلطة التنفيذية في سلوكها وقراراتها في كل المجالات.

وفي الامارات العربية المتحدة هنالك مجلس واحد فقط يمثل كل الامارات السبعة، ولكن اعضاؤها ليسوا متساوين، فالامارات الكبيرة لها ممثلون اكثر من

25- د. حسن الجلبي . القانون الدولي العام ، ج١ . بغداد ، مطبعة شفيق ١٩٦٤ ص ٢٣٤ .
26- هشام ال شاوي. المصدر السابق ص ١٥١-١٥٢ .
27- المصدر السابق ص ١٥٢.
28- د. علي غالب العاني .مجلس واحد ام مجلسان . بغداد ، مطبعة المعارف ١٩٦١ ص ١٤- ١٥ .
29- ميشيل ستيوارت. المصدر السابق ص ٥٢ .

الامارات الصغيرة في الحجم والسكان، ويجري اختيارهم من قبل الامارات نفسها[30]. وقد جرى اخيرا اعتماد قانون انتخاب نصف الاعضاء من قبل الشعب مباشرة واختيار النصف الخر من قبل حكام الامارات[31].

وتعتبر السلطة القضائية الاتحادية هي الاساس في مراقبة السلطتين التنفيذية والتشريعية، وتعتبر المحكمة الفيدرالية العليا ضمانة لأية انتهاكات للدستور، او تجاوزات من قبل رئيس الدولة واعضاء السلطة الاتحادية[32].

اما السلطات الاقليمية فهي صورة مصغرة للسلطات الاتحادية، اذ يتم انتخاب الحاكم للاقليم، واعضاء السلطة التشريعية الاقليمية عبر الاقتراع الشعبي، ويخضع الحاكم والسلطة التنفيذية لرقابة السلطة التشريعية المنتخبة، وهما معا يخضعان لرقابة السلطة القضائية للاقليم .

ان بعض الدول الفيدرالية التي يحكمها دستور اتحادي تسمح لحكومات الاقاليم بوضع دساتير محلية تنظم شؤونها، ولكنها لا تتعارض مع الدستور الاتحادي، واذا اقرت قوانين اقليمية تتعارض مع الدستور الاتحادي الفيدرالي، فانها تلغى او تعدل لضمان الانسجام والتكامل في الدولة الاتحادية الفيدرالية، ومنع الازدواج في القرارات والاحكام.

وليس من حق السلطات الاقليمية ممارسة اية سلطات سيادية ، كالتعامل مع الدول الاجنبية مباشرة الا في حالات استثنائية وفقا لدساتيرها[33]، ومن ذلك دستور الاتحاد السوفيتي السابق لعام ١٩٤٤ الذي سمح للجمهوريات السوفيتية بالتعامل مع الدول الاجنبية، الا ان هذا الحق بقي نظريا، ولم يستخدم عمليا، فقد رفض مجلس السوفيت الأعلى رغبة بعض الدول لاقامة علاقات دبلوماسية مع اوكرانيا، ولكنه سمح لروسيا البيضاء واوكرانيا بالانضمام الى الامم المتحدة لضمان صوتيهما لصالحه، ولم يحدث ان صوتتا عكس ارادة الدولة السوفيتية[34].

اما حق الانفصال فهو غير وارد الا اذا نص الدستور الاتحادي على ذلك، كالدستور السوفيتي الذي سمح للجمهوريات السوفيتية بحق الانفصال، ولكن السلطة

---

[30]- محمد عتريس. معجم بلدان العالم. القاهرة، الدار الثقافية للنشر ٢٠٠٠ ص ٤٢.

[31]- جريدة الحياة.

[32]- عبد الله جمعة الحاج. المصدر السابق ص ٧٦ ــ ٧٧ .

[33]- د. عبد الواحد عزيز الزنداني. السير والقانون الدولي. صنعاء ، الافاق للطباعة والنشر ١٩٩٨ ص ١١٢ .

[34]- شارل ديران. اتحاد الدول والدولة الاتحادية، ترجمة عبد الرحمن شبل حسن. القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٣ ص ٤٥ــ ٤٦.

السوفيتية الاتحادية لم تسمح لاية جمهورية بالانفصال، بل انهى الاستقلال الذاتي لبعض الجمهوريات كجمهوريات الفودكا[35].

اما حجم الاقاليم وشكلها فليس واحدا، وهذا امر بديهي، ولكن هل تكون اختصاصاتها ونشاطاتها متساوية؟ في الحقيقة، ان ما هو سائد هو مساواتها جميعا سواء في التمثيل او الاختصاصات ، ولكن بعض الاتحادات لا تساوي بينها، فالامارات الكبيرة حجما وسكانا في دولة الامارات لها مقاعد اكثر في المجلس الاتحادي، ودور اكبر في السلطة التنفيذية.

كما ان الاقاليم نفسها ليست على درجة واحدة في الادارة والاهمية ، فالاتحاد الروسي وفقا لدستور ١٩٩٣ يتكون من (٨٩) منطقة ادارية منها (٢١) جمهورية و(٦) مقاطعات و(٤٩) ولاية و(١٠) مقاطعات حكم ذاتي ومدينتان فيدراليتان، واقليم يتمتع بالحكم الذاتي[36].

ان الدولة الفيدرالية بطبيعتها دولة ديمقراطية لانها قائمة على فصل السلطات وتوزيعها بين السلطة الفيدرالية وسلطات الاقاليم، ولانها توفر للاقاليم ممارسة الشؤون الداخلية باستقلالية عن السلطة الاتحادية، ولكنها ليست كذلك بالمطلق، اذ ان الممارسة الديمقراطية قد تكون بدرجات متفاوتة، كالمجلس التشريعي الاتحادي في الامارات العربية المتحدة الذي هو مجلس معين، وليس منتخبا على سبيل المثال، بينما تتركز السلطة في يد الجمعية الوطنية السويسرية بدلا من فصل السلطات وتوازنها[37].

ودرءاً للانفصال فان معظم دساتير الاتحادات الفيدرالية هي دساتير جامدة، يتطلب تعديلها اجراءات معقدة، كاشتراط الاغلبية المطلقة، او اغلبية الثلثين في السلطة التشريعية الاتحادية، ومن ثم عرض التعديل على الاستفتاء الشعبي[38].

ان الاتحاد الفيدرالي يعد من اقوى الاتحادات في العالم، واكثرها استقرار اوتكاملا، اما تفكك بعض التجارب الفيدرالية في يوغوسلافيا والاتحاد السوفيتي بعد استمرارها لفترة اكثر من نصف قرن فقد كان لاسباب عديدة اهمها النزعة القومية والوطنية التي كانت مكبوتة طيلة الفترة السابقة، وقد انهارت بعد انهيار الرابطة التي كانت تجمعها وهي الرابطة الاشتراكية، فضلا عن استمرار استخدام القوة والعنف لمنع اية حركات انفصالية، ومن الامثلة على ذلك المانيا الشرقية التي انتفضت على اشتراكيتها، وفضلت قوميتها عليها، والاتحاد مع المانيا الغربية، وقد بدأ الصراع

---

[35]- د. حسن الجلبي. المصدر السابق ص ٢٤٤-٢٤٥.

[36]- محمد عتريس. المصدر السابق ص ٢٤٩.

[37]- د. بديع شريف. الفدرال، بحث في نظام الاتحاد السويسري. بغداد منشورات مكتبة المثنى ١٩٤٩ ص ١٧-١٩.

[38]- شارل ديران. المصدر السابق ص ١٠١-١١١.

القومي في الاتحاد السوفيتي قبل انهيارها بين ارمينيا واذربيجان، وكانت النتيجة الطبيعية تفكك البلاد، ونشوء مجموعة دول قومية بدلا منه[39].

وينبغي الاشارة هنا الى ان بعض الاتحادات الفيدرالية تحولت الى دول موحدة بسيطة كالاتحاد الالماني (١٩١٩–١٩٣٣). والمملكة الليبية المتحدة عام ١٩٥١ التي اصبحت دولة بسيطة عام ١٩٦٤[40].

ثانيا: نظرية الاتحاد الكونفيدرالي

الكونفيدرالية مصطلح لاتيني (Confederation) يقصد به الاتحاد التعاهدي بين الدول، او الاتحاد (الاستقلالي) لان اعضاء الاتحاد من الدول مستقلة بعضها عن البعض الاخر ولكنها تتعاهد مع بعضها على الاتحاد في امور معينة تحديدا، وتحتفظ كل دولة بسيادتها الداخلية والخارجية[41]، وتتفق على تشكيل هيئة مشتركة لها صلاحيات محدودة، سيما في الامور الدفاعية والسياسة الخارجية، واية امور اخرى يتم الاتفاق عليها.

ان الحاجة لمثل هذه الاتحادات كانت ولازالت ضرورية للدول التي تعاني من الضعف الامني تجاه دول اخرى اقوى منها، او لاسباب سياسية تقتضيها المتغيرات الدولية والاقليمية، او المصالح الاقتصادية بين الدول، او وجود تهديدات تمس الامن الداخلي والخارجي، او وجود عدو مشترك، او التمهيد لاقامة اتحادات اقوى في

---

[39]- عوض جمعة رضوان . يوغسلافيا وصراع القوميات. مصراته، الدار الجماهيرية للنشر ١٩٩٣ ص ٩٢-٩٣. انظر ايضاً:
محمد عتريس. المصدر السابق ص ٢٥١-٢٥٤ .

[40]- د. قحطان احمد سليمان الحمداني . الوحدة العربية ، دراسة سياسية تحليلية لتجاربها وواقعها ومستقبلها – رسالة دكتوراه غير منشورة – كلية العلوم السياسية – جامعة بغداد ١٩٨٩ ص ١٥٧ . انظر ايضاً:
جون فورد جولاي. انشاء جمهورية المانيا الاتحادية ، ترجمة حسين الحوت . القاهرة ، الدار القومية ١٩٦٢ ص ٧ .

[41]- د. احمد زكي. المصدر السابق ص ٣٢. انظر ايضاً:
حسن عبد الله . المصدر السابق ص ٥٥.
جيوفري روبرتز، والستر ادواردز. المصدر السابق ص ٩٠-٩١ .

المستقبل بين الدول المتجاورة التي ترتبط مع بعضها بوشائج اللغة والتاريخ والدين وغيرها[42]. ويمكن الوصول الى هذا الاتحاد بالطرق التالية:

١- اتفاق دولتين او اكثر من الدول المستقلة لاقامة الرابطة الاتحادية بينها خدمة لمصالحها، اوتلبية لارادة شعوبها التي لها صلات مع بعضها من النواحي التاريخبة والقومية والجغرافية والدينية والاجتماعية والسياسية وغير ذلك، ومن الامثلة على ذلك الاتحاد الكونفيدرالي الامريكي عام ١٧٧٦ بين (١٣) دولة امريكية تعاهدت على مقاومة الاستعمار البريطاني، وتحقيق الاستقلال، وقد نجحت في ذلك.

٢- رغبة الدول الاستعمارية لاقامة الاتحاد الكونفيدرالي بين مستعمراتها، كرابطة الدومينيون البريطاني في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والتي تطورت الى رابطة الكومنويلث بعد الحرب العالمية الثانية، وهي رابطة اتحادية اقل ارتباطا من الاتحاد الكونفيدرالي[43].

٣- تفكك الاتحاد الفيدرالي، وتحوله الى اتحاد كونفيدرالي بناءاً على اتفاق مسبق، او نتيجة للظروف الداخلية او الخارجية، كما حدث للاتحاد السوفيتي الذي تفكك نهاية عام ١٩٩١ واقيمت بدله (رابطة الدول المستقلة)[44] .

اما صيغة النشأة فقد تكون بموجب ميثاق اومعاهدة اواتفاقية دولية بين الدول المعنية والتي تنوه باسباب الاتحاد واهدافه وهياكله، وتحدد الهيئة او الجمعية المشتركة من الدول التي تتولى مسؤولية الاتحاد، وتتحدد اختصاصاتها بما يتم الاتفاق عليها كأن تكون في الشؤون الخارجية والدفاع والاقتصاد والامن الوطني، والتنسيق بينها خدمة لدولها، واتخاذ القرارات اللازمة حول مختلف القضايا المطروحة عبر اجتماعات دورية او غير عادية، والعمل على مواكبة التطورات الداخلية والخارجية لدول الاتحاد وللدول الاخرى اقليميا وعالميا وتنفيذ القرارات التي يتم الاتفاق عليها، غير ان قرارات الهيئة او الجمعية المشتركة لا تكون ملزمة لاعضائها، وانما يتطلب الامر الحصول على موافقة الهيئات الدستورية المختصة في كل منها كي تصبح نافذة وملزمة، بمعنى اخر ان القرارات الاتحادية الكونفيدرالية لا تنفذ مباشرة في دولها حتى

---

[42]- د.عبد المجيد عرسان العزام، ود. محمود سامي الزعبي. دراسات في علم السياسة. عمّان، دار الحامد ١٩٨٨ ص ١٥٠.

[43]- د. بطرس بطرس غالي ، د. محمود خيري عيسى .المصدر السابق ص ٤٤-٤٩ .

[44]- د.قحطان احمد سليمان الحمداني. الاساس في العلوم السياسية. عمّان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ٢٠٠٤ ص ٢٣٠.

لو وافق ممثلوها في الهيئة المشتركة على ذلك، اما الدول الرافضة لقرارات الهيئة المشتركة فمن البديهي انها لا تلتزم بها، ولا تعرضها على مؤسساتها الدستورية[45].

ان الاتحاد الكونفيدرالي لا يتمتع بالشخصية الدولية كما هو الحال في الاتحاد الفيدرالي ، لان تكوينه قائم على المعاهدات الدولية وليس الى الدستور، وبالتالي فليس له سيادة دولية، او حق عقد المعاهدات، واعلان الحرب والسلام، وليست لمؤسساته سلطة عليا على دوله، وان ادارة هيئاتها واعمالها لا تمثل حقيقة الاتحاد وفعاليته، لان ارادة الاتحاد تتكون من مجموع ارادات الدول الاعضاء فيه، وبالتالي فان الاتحاد الكونفيدرالي ليس دولة، وانما مجموعة دول تحتفظ بسيادتها الخارجية واستقلالها الداخلي[46]. وينسحب على ذلك ان المعاهدات المعقودة بين دوله لا تسري على الاتحاد واعضائه وانما على الدول المرتبطة بها والموقعة لها فعلا، سواء كانت احلافا عسكرية او معاهدات صداقة، او اتفاقات اقتصادية. كما ان اعضاء الاتحاد بامكانهم الدخول في اتفاقيات او معاهدات مع الدول الاخرى او المنظمات الدولية بكل حرية واستقلال عن الاتحاد واطراف الاتحاد[47]، مادامت تلك الاتفاقيات لا تمس اهداف ومبادئ وقرارات الاتحاد.

اما اعضاء الهيئة المشتركة او المجلس المشترك او الجمعية المشتركة فيتم اختيارهم من قبل حكوماتهم، وليس من قبل الشعب كاعضاء منتخبين[48]، اما رئاسة الاتحاد فيتم الاتفاق عليها من قبل دول الاتحاد، فقد يكون شخصا واحدا، كان يكون رئيس احدى الدول الاعضاء، او هيئة رئاسة مكونة من رئيس ونواب له كما في اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة (سوريا، مصر، ليبيا)، وقد تتوسع لجان الاتحاد واعماله ونشاطاته او تتقلص وفقا لظروفه وتطور الاحداث فيه[49].

ان الميثاق او المعاهدة الدولية التي تشكل الاتحاد الكونفيدرالي انما هي حصيلة توافق ارادات الدول المكونة له ، وفقا لقانوني التراكب والذاتية ، ولكن قانون الذاتية له الارجحية على قانون التراكب او الترابط بسبب رغبات الدول الاعضاء في استمرار الاستقلالية في السياستين الداخلية والخارجية، وعلى اساس التعاهد او التعاقد من منطلق استقلالي، وبالتالي البدء من نقطة الصفر لتوسيع اطار الاتفاق وترصينه، ومن

---

[45]- د. محمد طه بدوي. المصدر السابق ص ١٩١ .
[46]- د. محمد عمر مولود. المصدر السابق ص ٣٢٠-٣٢١ .
[47]- د. لؤي بحري . المصدر السابق ص ١٣٣.
[48]- المصدر السابق ١٣ .
[49]- د. محمد انور عبد السلام. المصدر السابق ص ١٩٢-١٩٥.

هنا فان تعديل الميثاق المؤسس للاتحاد او المعاهدة الدولية يحتاج الى الاجماع لانه يمثل ارادة الجميع[50].

ومعظم مواثيق الاتحادات الكونفيدرالية تسمح للدول الاعضاء بحق الانفصال في حالة اقتناعها ورغبتها بان استمرارها في الاتحاد يخل بسيادتها ومصالحها، والقليل من تلك الاتحادات تمنع الخروج منه كالاتحاد الكونفيدرالي الالماني[51].

اما المنازعات بين الدول الاعضاء فانها منازعات بين الدول، ويحاول الاتحاد حله بالطرق السلمية، ولكنه لا يحمل اية الية اتحادية للفصل في المنازعات، فلا توجد محكمة دستورية عليا[52]، ولكن بعض هذه الاتحادات انشأت مؤسسات قضائية للبت في تلك المنازعات كأتحاد الجمهوريات العربية عام ١٩٧١ [53]. وقد حدث نزاع على الحدود بين قطر والبحرين، وهما عضوان في مجلس التعاون لدول الخليج العربية دون ان يتمكن المجلس من حل خلافاتهما بسبب عدم وجود نص والية ترغمهما على الانصياع لقرارات المجلس. وقد انتبهت جامعة الدول العربية مؤخرا الى ضرورة اقامة محكمة عدل عربية للنظر في منازعات الدول العربية، دون ان تظهر في ارض الواقع، رغم مرور اكثر من ٦٠ سنة على انشاء الجامعة وفشلها في حل نزاعات كثيرة بين الدول الاعضاء[54].

ان الاتحاد الكونفيدرالي هو اتحاد واه، وقد اثبتت التجارب الاتحادية الكونفيدرالية ان مآلها اما الى اتحاد فيدرالي قوي، وهو ما حدث في اميركا حين تحول الاتحاد الكونفيدرالي الامريكي الى الاتحاد الفيدرالي (الولايات المتحدة الامريكية) وفقا لدستور ١٧٨٧، او الى الانفصال كالاتحاد الالماني عام ١٨١٥ والذي انتهى الى الانفصال عام ١٨٦٦، وكذلك انفصال اتحاد (الدول العربية المتحدة) بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨-١٩٦١[55]. ومع ذلك فان بعض الاتحادات الكونفيدرالية استمرت لمدة طويلة كجامعة الدول العربية المستمرة منذ عام ١٩٤٥ ومجلس التعاون لدول الخليج العربي الذي استمر منذ عام ١٩٨١، وربما يتحول الاخير الى اتحاد فيدرالي سيما بعد القرارات الاخيرة لاقامة وحدة اقتصادية وعملة خليجية واحدة في المستقبل القريب.

---

[50]- د. محمد عمر مولود. المصدر السابق ص ٣٢١.
[51]- المصدر السابق.
[52]-المصدر السابق.
[53]- د. محمد انور عبد السلام . المصدر السابق ص ١٩٣.
[54]- انظر قرارات القمة العربية في تونس في مجلة (الحوادث) ١٩-٢٥ اذار ٢٠٠٤ ص ٢٢.
[55]- طعيمة الجرف. نظرية الدولة والاسس العامة للتنظيم السياسي. القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٧٣ ص ١٩٠-١٩١.

ثالثا: نظرية الاتحاد المختلط

ان النظريتين السابقتين (الفيدرالية والكونفيدرالية) هما المعولتان عليهما في النظم السياسية في الماضي والحاضر، ومعظم الكتاب والمفكرين يعتقدون انهما الاساس في التعامل الدولي من خلال المبادئ والاهداف وبالتالي التنظير السياسي لهما، ومن ثم التطبيق الفعلي في مختلف انحاء العالم، غير ان الواقع السياسي والممارسة السياسية يختلفان في كثير من الاحيان بقليل او كثير، بل ان التطور المستمر في النظم السياسية اوجد اتحادات غير مقيدة بهما بشكل عام، فقد اخذت هذه الاتحادات ما يلائمها من المبادئ والنصوص الدستورية وفقا لمصالحها التي تختلف باختلاف ظروفها السياسية والاقتصادية. ومن هنا يمكننا القول بان نظرية جديدة بدأت بالتشكل خلال الفترات الماضية وهي التي يمكن ان نطلق عليها بنظرية الاتحاد المختلط لانها تجمع بين خصائص الاتحادات السابقة التي تضم نصوصا فيدرالية واخرى كونفيدرالية ، بل الاكثر من ذلك انها تتضمن بنودا للاتحادات المركبة والبسيطة في ان واحد، بمعنى اخر ان قانوني التراكب والذاتية اللذان نوهنا عنهما يتوازنان دون ارجحية احدهما على الاخر. ان الفقه الدستوري المعاصر لا يمكن ان يتقوقع على مبادئ معينة تكبل الدول في علاقاتها وتوجهاتها الاتحادية، وان اختيار افضل الصيغ الاتحادية حق للدول المتحدة ما دامت ترغب في ايجاد اسس قوية للاتحاد تكفل استمراره، وبهذا المعنى فاننا نقر بان الممارسة الفعلية لاتحادات جديدة لابد ان تؤطر نظريات جديدة تلائم التطور الدستوري وصولا الى الافضل.

واذا اردنا البحث عن امثلة هذا النوع الجديد من الاتحاد فسوف نجد ان العديد من الدول والاتحادات مارست اشكالا لم تكن مالوفة سابقا، فقد احتوى دستور الاتحاد العربي بين العراق والاردن والصادر في اذار ١٩٥٨ نصوصا قانونية توحي بأن هذا الاتحاد هو اتحاد فيدرالي كتحديد السلطة الاتحادية باختصاصات الخارجية والدفاع والاقتصاد والمالية، وترك الاختصاصات الداخلية الاخرى للقطرين (اي السلطات الاقليمية)، ولكن الدستور نفسه نص على احتفاظ كل من العراق والاردن بشخصيتهما الدولية، وعدم سريان الاتفاقيات السابقة لكل منهما على دولة الاتحاد العربي، وهذا مظهر كونفيدرالي[56]. وينطبق الاتحاد المختلط على (الجمهورية العربية المتحدة) بين سوريا ومصر ١٩٥٨-١٩٦١، فقد حدد دستورها مواصفات الاتحاد الفيدرالي من خلال تحديد اختصاصات السلطة الاتحادية الرئيسية، واختصاصات سلطات الاقليمين السوري والمصري وهي الامور الثانوية[57]. ولكن الغاء المجلسين عام١٩٦١[58]،

56- الحكومة العراقية. دستور الاتحاد العربي . بغداد ، مطبعة الحكومة ١٩٥٨ ص ٢ وما بعدها .

57- انظر نص الدستور في كتاب (المشاريع الوحدوية العربية ١٩١٣ــ ١٩٨٠) اعداد د. يوسف خوري. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٨ ص ٣٦٦ .

وممارسة السلطة المباشرة جعلت الاتحاد وحدة اندماجية بسيطة، اما من الناحية الواقعية فان اجراءات الوحدة لم تستكمل[59].

وفي الحقيقة ان هذا النوع من الاتحاد الذي فرضته الظروف الخاصة للدول المتحدة داخليا واقليميا ودوليا مرشح للتوسع والانتشار لانه اضمن للمصالح الدولية اولا ولانه مفتوح للتطور وعدم التقيد بأية اشكال اتحادية ثانيا ولانه تعبير عن حقيقة التطور السياسي للنظم والاتحادات الدولية باتجاه المنفعة والخدمة.

رابعا: نظرية الاتحادات ذات الطبيعة الخاصة

ان هذه النظرية تنبع من ملاحظة وجود اتحادات ضعيفة بين الدول المستقلة في سياساتها الداخلية والخارجية والتي تضم نظما سياسية مختلفة كالانظمة الملكية والانظمة الجمهورية، والانظمة الرئاسية والانظمة البرلمانية، ولكنها مرتبطة مع بعضها بروابط معينة كاللغة والثقافة ، والارتباط السابق باحدى الدول الاستعمارية السابقة. ومن امثلتها رابطة الشعوب البريطانية (الكومنويلث) والتي تضم اكثر من (٤٠) دولة كانت خاضعة للاستعمار البريطاني ثم استقلت، ولكنها بقيت مرتبطة مع بريطانيا بالولاء والتعاون، وهذه الدول تتشاور على اساس الاستقلال والمساواة، وتتبادل المعلومات في الشؤون المشتركة، والتنسيق السياسي، وتقديم تسهيلات لمواطنيها في مجالات العمل والدراسة، كما انها تجتمع في مؤتمرات قمة ومؤتمرات وزارية بشكل دوري[60].

كما ان الجماعة الفرنسية (الفرنكفونية) هي اتحاد للدول الناطقة باللغة الفرنسية والتي ترتبط مع بعضها بروابط اللغة والثقافة والتعاون في شتى المجالات، فضلا عن ارتباطها السابق بالاستعمار الفرنسي[61].

وهنالك مجموعة الدول الناطقة باللغة البرتغالية، سيما في امريكا اللاتينية، ومجموعة الشعوب الناطقة باللغة الاسبانية، وهي اتحادات على غرار الكومنويلث البريطاني والرابطة الفرنكفونية.

اما (رابطة الدول المستقلة) والتي اقيمت عام ١٩٩١ اثر تفكك الاتحاد السوفيتي فهي تضم كل الدول التي انسلخت من الاتحاد السوفيتي والتي تحتفظ مع بعضها بروابط اقتصادية وعسكرية قوية كعملة الروبل السائدة في دولها، والقوات

58- محمود رياض. مذكرات محمود رياض، ج٢. القاهرة ، دار المستقبل العربي ١٩٨٦ ص ٣٤٤.
59- محمد حسنين هيكل. ماالذي جرى في سوريا ؟ القاهرة ١٩٦١ ص ٧ .
60- د. حسن الجلبي . المصدر السابق ص ٢٤٧ — ٢٦٤ .
61- فيبي مار، ووليام لويس. امتطاء النمر، تحدي الشرق الاوسط بعد الحرب الباردة ، ترجمة عبد الله جمعة الحاج . ابو ضبي . مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ١٩٩٦ ص ٣٩-٤٧.

العسكرية الروسية المتواجدة فيها، وهذه الدول تتعاون سياسيا وامنيا وعسكريا واقتصاديا وثقافيا، ولكنها مستقلة في سياساتها الداخلية والخارجية[62]. غير ان هذا الاتحاد اقوى من الاتحادات السابقة (الكومنويلثات) لكنها غير متضامنة مع بعضها، بل ان الخلافات مستحكمة بينها كجورجيا وروسيا الاتحادية، وارمينيا واذربيجان، ومعظمها تعاني من حركات انفصالية للمكونات القومية فيها.

ان نظرية هذه الاتحادات قائمة على غلبة العامل الذاتي على العامل التراكبي، بمعنى السيادة الداخلية والخارجية دون قيود تذكر، والاتحاد في امور ثقافية ولغوية ومصالح اقتصادية وسياسية، ومادامت هذه الاتحادات لا تضر مصالح هذه الدول بشكل مباشر فانها مرشحة للاستمرار، ولكنها ايضا تسمح للخروج منها عندما تتعارض تلك المصالح بينها، ولا يمكن عدم توقع قيام اتحادات فيدرالية مع بعضها في حالة التوافق، والتعرض لاخطار خارجية محتملة او اخطار داخلية.

---

[62]- زلمي خليل زادة.التقييم الاستراتيجي.ابو ضبي، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ١٩٩٣ص ٢٢٦-٣٧٢.

المشاركة السياسية.. منظور تنموي

الدكتور
علي عباس مراد(*)

تمهيد..

منذ أن شهد القرن العشرين ظهور مجموعة الدول حديثة الاستقلال والمعروفة أيضا بـ(دول العالم الثالث) نسبة إلى نشأتها التاريخية اللاحقة لنشأة العالمين الأول (الرأسمالي) والثاني(الاشتراكي)، تلقى أوضاع هذه الدول وظروفها العامة والخاصة عناية الساسة والأكاديميين واهتمامهم في الداخل والخارج بقصد تحديد خصائصها والكشف عن مشكلاتها والتعرف على أسباب تدني قدراتها ومنجزاتها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والتقنية مقارنة بمثيلاتها في الدول الرأسمالية الغربية. إلا أن مرور عقود عديدة تراكمت فيها نتائج ذلك الاهتمام وتتابعت السياسات العملية المرتبطة به لم يأت معه بجديد. فلم يتغير شيء حقيقي في أوضاع هذه الدول، ولم تحل أي من مشكلاتها التي ولدت معها إن لم تصبح تلك المشكلات أكثر اتساعا وعمقا من ذي قبل واشد تعقيدا وأعصى على المعالجة مما كانت عليه في بدايتها. وفي سياق الجهود النظرية والعملية لمقاربة مشكلات العالم الثالث والتعاطي معها، جاءت نشأة مفهوم (التخلف) كصياغة اصطلاحية تعكس الطبيعة السلبية لتلك المشكلات وتعبر عنها، ثم شاع استخدامه كصفة سلبية لصيقة بالدول التي تعاني مثل هذه المشكلات لتظهر في الأدبيات السياسية مسميات مثل (الدول المتخلفة) و (المجتمعات المتخلفة). وإذ حاولت الدول المتخلفة تجاوز مشكلاتها وإيجاد الحلول والمعالجات لها، فقد أدى ذلك إلى إنتاج مفهوم "التنمية" كصياغة اصطلاحية تعكس الطبيعة الإيجابية لهذه المحاولات وتعبر عنها، ثم شاع استخدامه بعد ذلك كصفة إيجابية للدول التي تحتاج إلى تلك المحاولات وتعتمدها، لتظهر في الأدبيات السياسية تسمية (الدول النامية) كصيغة معدلة أو ملطفة للتسمية الأولى (الدول المتخلفة).

ومن منظور ظاهرة التخلف الشامل، ونقيضها ظاهرة التنمية الشاملة، تقارب هذه الدراسة موضوعها (المشاركة السياسية) وتعالجها انطلاقا من فرضية مفادها:

إن أحد أهم أسباب التخلف الشامل في البلدان المتخلفة هو التخلف السياسي الناتج عن غياب المشاركة السياسية أو شكليتها وانعدام فاعليتها، وعليه فإن معالجة التخلف الشامل في هذه البلدان مرهون بمعالجة التخلف السياسي فيها والمرهون بدوره

(*)كلية العلوم السياسة –جامعة بغداد.

بتحقيق المشاركة السياسية في هذه البلدان.

أو بعبارة أخرى، إن تحقيق المشاركة السياسية وتفعيلها في البلدان المتخلفة هو شرط تحقيقها للتنمية الشاملة، وبذلك نكون أمام معادلتين تعبران عن علاقة ارتباطية واحدة بصورتين متعاكستين:

المعادلة الأولى:

أزمة المشاركة السياسية ← أزمة التخلف السياسي ← التخلف الشامل

المعادلة الثانية:

المشاركة السياسية ← التنمية السياسية ← التنمية الشاملة

وبتساوي أطراف هاتين المعادلتين وتماثل نتائجهما عكسيا، ستكون أزمة المشاركة السياسية في المعادلة الأولى، سبب أزمة التخلف الشامل ومصدرها، مثلما أن المشاركة السياسية في المعادلة الثانية هي شرط التنمية الشاملة وقاعدتها. وقد انعكس المنظور المركب لهذه الفرضية ومعادلاتها، على منهجية الدراسة التي كان لابد لها من أن تستجيب لاجتماع وتفاعل الجزئي والكلي/ الفرعي والأساسي والحركة المتناوبة بينهما بجمعها بين المنهجين الاستنباطي والاستقرائي بقصد الانطلاق من الكل إلى الجزء ثم العودة من الجزء إلى الكل في دورة حركية متناوبة عالجت موضوعها في ثلاثة محاور هي: **التخلف والتنمية، التنمية السياسية، المشاركة السياسية.**

التخلف والتنمية..

تقدم القول بأن ظهور مفهوم (التنمية) أمر استدعاه الظهور الأسبق لمفهوم (التخلف) الذي يشير إجمالا إلى ظاهرة ذات بعدين:

الأول: التشوهات التكوينية والاختلالات البنيوية والوظيفية في بلدان العالم المتخلفة (العالم الثالث) بحكم معاناتها من الآثار السلبية الناجمة عن المسارات السلبية لسياقات تطورها التاريخي وظروفها الذاتية من جهة، وخضوعها من جهة أخرى للظاهرة الاستعمارية في صورها القديمة والجديدة المباشرة وغير المباشرة.

الثاني: إيجابية الأوضاع في الدول الرأسمالية الغربية وسلبيتها في الدول حديثة الاستقلال، والمقارنة بينهما على أساس أن الإيجابي هو النموذج القياسي والأداة المعيارية للسلبي لتكون نتيجة ذلك هي التمييز بين الأولى كدول (متقدمة) والثانية كدول (متخلفة).

أما محصلة ذلك فهي الحضور المؤثر للدول الرأسمالية الغربية وسياساتها الاستعمارية ونزعة مركزية الذات الأوربية لديها في ظاهرة التخلف مرتين، الأولى لأن هذه الدول وسياساتها من أهم أسباب تبلور ظاهرة التخلف واتساع نطاقها وتفاقم مظاهرها وآثارها، والثانية لأن أوضاعها ومنجزاتها هي النموذج المعياري أو الأداة القياسية التي تقاس بدلالتها مستويات التطور والنمو في المجتمعات الأخرى فتصنف وتوصف باعتبارها بلدانا متقدمة أو متخلفة. وقد جعل ذلك من مفهوم التخلف (مفهوما نسبيا) لأنه في الجانب الأساسي منه تخلف مصنوع تبلورت ملامحه وتجّذرت نتائجه بفعل مؤثرات وقوى خارجية، ولأنه أيضا (تخلف بالنسبة إلى ما أنجزته الرأسمالية، ناهيك عن الاشتراكية، من نمو اقتصادي واجتماعي شامل...معنى هذا أنه لا يوجد تخلف مطلق)[1]. وفي ضوء ذلك يمكن القول إن تخلف أي مجتمع (لا يعني عدم التطور لان المجتمعات كلها حصيلة لآلاف من سنوات التطور. إنها متخلفة بالنسبة إلي الأقطار الصناعية المتقدمة.. إن تخلفها اليوم ليس أمرا طبيعيا، بل حالة غير طبيعية، أي حالة اجتماعية هي نتاج للتاريخ)[2].

وإذا كان هناك من اختلاف بشأن حدود التخلف ومعاييره ومظاهره، فمن المؤكد أن هناك اتفاقا على طبيعته الشاملة والمركبة كظاهرة مرضية تعم بآثارها الضارة كل أنظمة المجتمع ومؤسساته أفقيا وعموديا، وتشمل بنتائجها السلبية كافة نواحي الحياة الإنسانية وفي كل مفرداتها الأساسية والفرعية. لذلك يمثل التخلف بالنسبة للمجتمعات التي تعاني منه تحديا شاملا لا مناص لها من مواجهته مواجهة شاملة بما يتناسب مع طبيعته ويستجيب لمتطلباته، وتحت مفهوم (التنمية) اجتمعت الصيغ المتنوعة والأشكال المختلفة لهذه المواجهة. ولأن التخلف (ظاهرة كلية شمولية أو حقيقة مركبة تتناول كافة جوانب البناء الاجتماعي..لذلك يجب التأكيد على أن قضية التنمية هي قضية تغيير حضاري شامل يتناول كافة أبنية المجتمع وأدواره، وتتضمن جوانبه المادية وغير المادية)[3]. وإذ لا سبيل لحل المشكلات الشاملة إلا بالمعالجات الشاملة، فلابد أن تكون تطبيقات التنمية ونتائجها كفعل إرادي غائي لمواجهة التخلف ومعالجة مشكلاته ذات طبيعة كلية شاملة تمتد أفقيا وعموديا لتشمل كل أنظمة المجتمع ومؤسساته. فالتنمية (ليست مجرد رفع مستوى الدخل، وليست مجرد تحقيق أهداف اقتصادية، بل أن النجاح في رفع مستوى الدخل لا يتوقف على ظروف اقتصادية

---

[1] فؤاد مرسي. التخلف والتنمية.. دراسة في التطور الاقتصادي. دار الوحدة. بيروت. ط١. ١٩٨٢. ص١٣.

[2] بيتر وورسلي. العوالم الثلاث. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. ط١. ١٩٨٧. ج١. ص٢٤-٢٥.

[3] علي الدين هلال. نحو إطاري نظري لتحليل عملية التنمية السياسية في الوطن العربي. مجلة قضايا عربية. بيروت. عدد١. س٨. ١٩٨١.

وحسب بقدر ارتباطه بظروف اجتماعية عامة تتعلق بالقيم والتعليم والأخلاق والنظام السياسي والاجتماعي والسياسة الخارجية إلى غير ذلك من اعتبارات)[4]. وطالما أن شمولية التحدي (التخلف) تفرض شمولية الاستجابة (التنمية)، فمن الواجب أن تكون هذه التنمية (أشمل من مجرد التنمية الاقتصادية التي تعتبر جزء لا يمكن عزله عن الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية في المجتمع، وأن تنمية البني التحتية..لا يمكن أن تتم بمعزل عن تنمية البني الفوقية.. بل أنه إذا لم تكن الثانية شرطا لتنمية الأولى، فلا أقل من أن تتزامن وتتوازى معها في الكم والكيف)[5]. ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن التنمية هي المجموع الكلي المتفاعل للأنشطة الفرعية المتخصصة والمسئولة عن تحديث وتطوير وتفعيل أفكار المجتمع وقيمه ومؤسساته وأنشطته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وبذلك ستكون التنمية الكلية الشاملة هي محصلة المنجزات المتكاملة والمتفاعلة لمجموع الأنشطة التنموية الفرعية التي تمس كل جوانب الحياة الاجتماعية وتعيد تشكيلها وفقا للنموذج التنموي المعتمد. وإذ يؤكد *جابرييل الموند* أن الأوساط الأكاديمية سادت فيها قناعة مبكرة تفيد بأن التنمية في بلدان العالم الثالث المتخلفة لا تتطلب سياسات اقتصادية فقط بل وتتطلب أيضا وجود مؤسسات سياسية قادرة على تعبئة وتنمية الموارد البشرية والمالية بفعل تمتع المتغيرات السياسية في هذه البلدان بنفس أهمية المتغيرات الاقتصادية. فإنه بذلك يجعل تحقيق التنمية الاقتصادية أمرا متعذرا في غياب التنمية السياسية[6]، ووفقا للمفهوم السابق للتنمية العامة والشاملة فإن التنمية السياسية وبشكل عام هي نشاط تنموي فرعي متخصص مسئول عن تحديث وتطوير وتفعيل أفكار المجتمع وقيمه ومؤسساته وأنشطته السياسية. كما تتأكد أهمية التنمية السياسية وضرورتها وأولويتها لتحقيق التنمية بفعل عاملين آخرين هما:

١. إن غالبية المجتمعات المتخلفة تخوض لأول مرة تجربة بناء الدولة العصرية وفقا للنموذج الغربي مما يقتضي ابتداء هذه المجتمعات ببناء الأفكار والقيم والمؤسسات الجديدة اللازمة لذلك من جهة، ومن جهة ثانية إعادة بناء الأفكار والقيم والمؤسسات التقليدية فيها بما يناسب متطلبات إقامة هذه الدولة.
٢. إن التنمية من حيث علاقتها بالسياسة وتأثرها بها خيار/قرار هو ابتداء

---

[4] المرجع السابق.؛ انظر أيضا: انطونيوس كرم. العرب أمام تحديات التكنولوجيا. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. ١٩٨٢. ص١٦٠-١٧٦.

[5] عمر إبراهيم الخطيب. التنمية والمشاركة في أقطار الخليج العربية. مجلة المستقبل العربي. بيروت. عدد٤٠. ١٩٨٢.

[6] محمد زاهي بشير المغيربي. التنمية السياسية والسياسة المقارنة..قراءات مختارة. جامعة قاريونس. بنغازي. ط١. ١٩٩٨. ص٣٣.

وبالأصل خيار/قرار سياسي، ومن ثم فإن التنمية في جوهرها (تخطيط والتخطيط بدوره هو إرادة سياسية تنبع من مفهوم الاختيار من جانب والفاعلية النظامية من جانب آخر)[7]، وبذلك تكون مشكلة التنمية أولا وقبل كل شيء (مشكلة سياسية)[8]. وعلى هذا الأساس فإن الإرادة السياسية ومؤسساتها هي المسئولة نظريا وعمليا عن اتخاذ قرار التنمية وتعيين نموذجها التطبيقي وتوفير متطلباتها المادية والمعنوية وتنفيذها وتحقيق أهدافها. وطالما أن قرار التنمية أخيرا وفي النهاية قرار سياسي، فسيكون تحقيق التنمية الشاملة مشروطا (بقيام مؤسسات سياسية تؤمن بفلسفة التغيير الدائم والتطور المستمر والتقدم المتواصل، وتضع المخططات العملية لتطبيق هذه الفلسفة)[9]، فهذه المؤسسات هي وحدها القادرة على اتخاذ قرار التنمية وتنفيذه وتوفير متطلبات نجاحه ماديا ومعنويا. وإذ لا يمكن للسياسة أن تحقق التنمية ما لم تتحقق التنمية في السياسة التي هي صاحبة قرار التنمية ومنفذته، فلابد للتنمية السياسية من أن تتمتع بالأولوية على باقي الأنشطة التنموية الفرعية وتحتل موقع الصدارة بينها. ولفهم أوضح للتنمية السياسية وعلاقاتها بالتنمية الشاملة وضرورتها لتحقيقها واشتراطها لإنجازها، لابد من تحديد النطاق التخصصي للتنمية السياسية وتعيين شروطها ومستلزماتها والمشكلات التي تسعى لحلها ومعالجتها.

---

7 حامد ربيع. الظاهرة الإنمائية والتطور الوحدوي.. حول بناء نظام إسلامي عربي جديد. مجلة شؤون عربية. بيروت. عدد٣. س١. ١٩٨١.

8 المرجع السابق.

9 محمد المجذوب. الإنماء والأنظمة السياسية العربية. مجلة قضايا عربية. بيروت. عدد٣((خاص)). س٦. ١٩٧٩.

التنمية السياسية..

لما كانت (التنمية السياسية) مفهوما تطبيقيا فرعيا مشتقا من مفهوم (التنمية) ومرتبطا به، فمن الطبيعي أن تأتي نشأة المفهوم الفرعي لاحقة لنشأة المفهوم الأساسي الذي يحتويه ويؤطره، وهو ما حدث فعليا بعد أن اتضحت الأبعاد السياسية لعملية التنمية الشاملة على مستوى المقدمات والنتائج وتأكد ارتهان إنجاز هذه العملية بتنمية الأفكار والقيم والمؤسسات والأنشطة السياسية في المجتمعات المتخلفة (النامية). ولأن الأصل وهو التنمية نشاط يستهدف معالجة مشكلات التخلف العامة، فإن الفرع وهو التنمية السياسية نشاط يستهدف معالجة مشكلات التخلف السياسي الخاصة التي لاحظ العديد من الباحثين اتساع نطاقها وتنوع مظاهرها وأبعادها وتعدد آثارها السلبية وأضرارها. فالمجتمعات المتخلفة تعاني من قائمة طويلة من مشكلات التخلف السياسي التي تشمل فقدان النظم السياسية فيها للشرعية وعدم استقرارها ومحدودية تخصصها الوظيفي وضعفها وقلة فاعليتها وافتقارها إلى الإجراءات المؤسسية القانونية والسلمية والمستقرة لممارسة السلطة وتداولها والقواعد العادلة لتوزيع الأدوار والموارد وتنظيم علاقات الحقوق والواجبات مجتمعيا وسلطويا، وحظرها أو تعطيلها لصيغ المشاركة السياسية وآلياتها، وعجزها عن تجسيد المصالح العامة لمواطنيها، وتدخلها المفرط في حركة المجتمع ونشاطاته، مرورا بتبعيتها للإرادات والمصالح الخارجية وعدم قدرتها على صنع سياسات مستقلة عنها، وفشلها في خلق الهوية الوطنية الموحدة...الخ[10]. وقد تعددت المسميات التي أطلقت على المشكلات السياسية للبلدان المتخلفة وتنوعت تصنيفاتها، فأسماها *جابرييل الموند* (تحديات Challenges التنمية السياسية) وصنفها إلى أربعة تحديات هي (بناء الأمة، بناء الدولة، المشاركة، والتوزيع)[11]. وأطلق عليها *روستو* تسمية (متطلبات Requirements التنمية السياسية) وصنفها إلى ثلاثة متطلبات هي (الهوية للأمة، السلطة للدولة، المساواة للحداثة)[12]. واتفق *لوسيان باي و لجنة السياسة المقارنة الأمريكية* على النظر إلى تلك المشكلات بوصفها (أزمات Crises التنمية السياسية)[13]، وقد حددتها اللجنة بخمس أزمات هي (أزمة الهوية، أزمة الشرعية، أزمة المشاركة، أزمة التوزيع، أزمة التغلغل) وأضاف إليها *باي* أزمة (الاندماج) ليجعلها ست أزمات بدلا من خمس. ويتجسد محتوى هذه الأزمات في:

---

[10] مايرون فينر. التغير السياسي..آسيا..أفريقيا..الشرق الأوسط. عن: محمد زاهي بشير المغيربي. التنمية السياسية والسياسة المقارنة. مرجع سبق ذكره. ص ١١١-١٤٣.

[11] محمد زاهي المغيربي. التنمية السياسية والسياسة المقارنة. مرجع سبق ذكره. ص١٨٦.

[12] المرجع السابق. ص١٨٦.

[13] المرجع السابق. ص١٨٦.

أزمة الهوية:

وهي الأزمة الناجمة عن غياب الهوية السياسية الوطنية الموحدة والمشتركة بين أفراد المجتمع السياسي/الدولة مما يُضعف أو يُغيّب لديهم الإحساس بالانتماء لهذه الدولة والولاء لها في مقابل حضور وقوة إحساسهم بالانتماء والولاء للجماعات الاجتماعية الفرعية التي يرتبطون بها (الاثنيات، القبائل، الديانات، المذاهب، الطوائف، الطبقات، الأقاليم)، فتضعف أو تغيب لديهم نتيجة لذلك مشاعر المواطنة والولاء القومي أو السياسي المركزي.

أزمة الشرعية:

وهي الأزمة الناجمة عن افتقار النظام السياسي للشرعية في صورها المجتمعية أو القانونية أو الإنجازية أو كلها معاً، وعجزه عن تجسيد الإرادة الاجتماعية والتعبير عنها لعدم صدوره عن هذه الإرادة ابتداء، أو فشله في تحقيق قيمها وأهدافها لاحقاً مما يتسبب في رفض المجتمع للخضوع الإرادي لسياسات هذا النظام وقطيعته معه ومعارضته له. وحيث إن الدولة مفهوم مجرد يجسده النظام السياسي ويعبر عنه من خلال شخوصه وأفكاره ومؤسساته ونشاطاته، فإن غياب الشرعية عن هذا النظام ينسحب بآثاره في الكثير من الأحيان على الدولة نفسها لتعاني هي الأخرى من غياب شرعية الوجود والاستمرار والفعل.

أزمة المشاركة:

وهي الأزمة الناجمة عن شكلية أو انعدام التشريعات والمؤسسات والآليات الضامنة للمشاركة الشعبية في العملية السياسية كنتيجة لعدم استجابة النظام السياسي للمطالب المتزايدة لتحقيق هذه المشاركة أو تفعيلها أو استجابته لها بصيغ شكلية تجردها من كل محتوى حقيقي، لتصبح العملية السياسية نتيجة لذلك منفصلة عن الإرادة الشعبية ومتعارضة معها. وبذلك يكون القمع والخوف، أو ما يسميه جون لوك (سلام المقابر)، هو أساس العلاقة بين السلطة والمجتمع في الأنظمة الاستبدادية فتغيب السياسة فكرا وممارسة وينعدم وجودها كأساس ومرتكز لهذه العلاقة.

أزمة التوزيع:

وهي الأزمة الناجمة عن التوزيع غير العادل للأدوار والموارد والحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع وجماعاته وأقاليمه بفعل استئثار فرد أو جماعة أو إقليم بالحصة الأساسية من كل ذلك على حساب حصص باقي الأفراد والجماعات والأقاليم.

والنتيجة الطبيعية لذلك هي استخدام النظام السياسي لسلطته وقدراته لانتهاك مبادئ المواطنة والعدالة والمساواة بين الأفراد والجماعات وليس لتحقيقها وضمانها، ومن ثم اختلال التركيبة المجتمعية جرّاء الشعور بالظلم والغبن وضياع الحقوق وعدم المساواة.

أزمة التغلغل:

وهي الأزمة الناجمة عن عجز النظام السياسي ومؤسساته وأجهزته عن تجسيد الإرادة المجتمعية والتعبير عنها مما يؤدي إلى عجزه عن ممارسة أدواره على كامل الامتداد الجغرافي للوحدة السياسية أفقيا أو في كامل مستويات البنية المجتمعية عموديا. ويترتب على ذلك عجز هذا النظام عن إنجاز وظائفه والقيام بمسؤولياته ومن ثم غيابه عن تفاعلات الحياة الاجتماعية إلا بقدر ما يفرض نفسه عليها بالقوة ويضمن وجوده واستمراره فيها قسرياً.

أزمة الاندماج:

وهي الأزمة الناجمة عن عدم تحقيق النظام السياسي للاندماج والتكامل الاجتماعي، جزئيا أو كليا، لعجزه عن تجسيد الإرادة المجتمعية والتعبير عنها وفشله في توحيد قيمها وأهدافها مما يوقع القطيعة بينه وبين المجتمع ويجعل الصدام بينهما هو الاحتمال الأكثر ترجيحا.

وتأسيسا على ما تقدم فقد استلزم ظهور مفهوم التنمية السياسية وتعيين أزماتها والحلول المناسبة لها تقديم معالجات نظرية مستقلة تعبر عن مضمون هذه التنمية وتحدد مقوماتها. إلا أن هذه المعالجات النظرية ما كان لها أن تولد من فراغ ولا أن تتطور في فراغ، فعلاقة التفرع والاستتباع بين التنمية السياسية (الفرع/الجزء) والتنمية الشاملة (الأصل/الكل) فرضت على تلك المعالجات أن تبدأ من الكلي وصولا إلى الجزئي مؤسسة بالتنمية الشاملة للتنمية السياسية لتصبح مراحل نشأة مفاهيم التنمية السياسية وتطورها جزءاً من مراحل تطور مفاهيم التنمية الشاملة ونظرياتها، وتشمل هذه المراحل[14]:

- مرحلة تحديد مفهوم التنمية السياسية بدلالة خصائص المأسسة والشرعية والاندماج والأخذ بالنموذج الغربي للديمقراطية الليبرالية في نطاق الممارسة

---

[14] المرجع السابق. ص ١٤-٢٣؛ انظر لمزيد من التفاصيل حول مفاهيم التنشئة السياسية ومعانيها المتعددة:

LUCIAN PYE. ASPECTS OF POLITICAL DEVELOPMENT. BOSTON. LITTLE BROWN & COMP. 1966. PP 31-42.

السياسية.

- مرحلة تحديد مفهوم التنمية السياسية بدلالة قدرة النظام السياسي على حماية النظام العام (Order) وكبح التوترات الناجمة عن الحركة الاجتماعية ومطالب المشاركة السياسية ومدى تحكم النظام السياسي بتلك التوترات وقدرته على ضبطها وتوجيهها.
- مرحلة تحديد مفهوم التنمية السياسية بدلالة قدرة النظام السياسي على الجمع بين حماية النظام العام (Order) وإمكانية صنع السياسات العامة العقلانية الرشيدة وتنفيذها.

وظهرت في إطار هذه المراحل صيغ متعددة ومتنوعة لتحديد مفهوم التنمية السياسية وتعيين أركانها. حيث رأى *أورجانسكي* أن التنمية السياسية تتمثل في (زيادة الكفاءة الحكومة على استخدام الموارد البشرية والمادية اللازمة لتحقيق الأهداف القومية، وهي جانب من جوانب التنمية الاجتماعية)[15]. وذهب *الموند* و *بويل* في كتابهما (السياسة المقارنة مدخل تنموي) إلى أنها تتجسد في (استجابة النظام السياسي للتغييرات في البيئة المجتمعية والدولية، وتحديدا استجابة النظام لتحديات بناء الدولة وبناء الأمة والمشاركة والتوزيع)[16]، مؤكدين أن التنمية السياسية هي التحديث السياسي وأن معايير إنجازها هي التمايز البنيوي واستقلالية النظم الفرعية وعلمانية الثقافة. وقدم *لوسيان باي* قائمة بعشرة تعريفات أساسية للتنمية السياسية هي[17]:

- التنمية السياسية هي المتطلب السياسي للتنمية الاقتصادية.
- التنمية السياسية هي السياسة كما تمتاز بها المجتمعات الصناعية.
- التنمية السياسية هي التحديث السياسي.
- التنمية السياسية هي بناء وإرادة الدولة القومية.
- التنمية السياسية هي التنمية الإدارية والقانونية.
- التنمية السياسية هي التعبئة والمشاركة الشعبية.
- التنمية السياسية هي الاستقرار والتغير المنتظم.
- التنمية السياسية هي بناء الديمقراطية.
- التنمية السياسية هي التعبئة والقوة.

---

[15] A. F. ORGANSKI. THE STAGE OF POLITICAL DEVELOPMENT. NEW YORK. 1965. PP 45-66.

[16] محمد زاهي المغيربي. التنمية السياسية والسياسة المقارنة. مرجع سبق ذكره. ص١٧١.

[17] LUCIANW PYE. OP. CIT.PP 45-66.

- التنمية السياسية هي جانب من جوانب عملية التغير الاجتماعي المتعدد الأبعاد.

واستخلص *باي* العناصر المشتركة بين هذه التعريفات والتي رأى أنها تمثل أسس التنمية السياسية ومرتكزاتها، وهذه العناصر هي:

- المساواة بين الأفراد في علاقتهم بالنظام السياسي.
- تمايز وتخصص البنى والمؤسسات والعمليات السياسية.
- قدرة النظام السياسي في علاقته مع محيطه.

وحدد *صامويل هنتنجتون* العناصر الأساسية للتنمية السياسية في[١٨]:

- ترشيد السلطة وعقلنتها.
- تمايز الوظائف والمؤسسات السياسية وتطويرها وتفعيلها.
- المشاركة السياسية لخلق علاقة متوازنة ومستقرة بين السلطة والمجتمع.

ثم استخلص من تعريفات *باي* أربعة عناصر مشتركة رأى فيها مقومات التنمية السياسية وأركانها وهي (العقلانية، الاندماج القومي، الديمقراطية، التعبئة أو المشاركة).

والملاحظ على هذه التعريفات موازاتها بين مفهومي (التحديث السياسي والتنمية السياسية) بحكم مطابقتها بين أركان التحديث وشروطه وأركان التنمية السياسية وشروطها. وهذا ما تعكسه أيضا تعريفات التحديث السياسي عند بعض الباحثين مثل *كوليمان* الذي رأى فيه (العملية التي تبغي تحقيق التمايز بين المؤسسات وإضفاء الطابع العقلاني على الثقافة السياسية بما من شأنه تعزيز قدرة النظام السياسي للمجتمع)[١٩]. *وايزنشتاد* الذي حدد مظاهر التحديث السياسي في[٢٠]:

- ترشيد بناء السلطة السياسية.
- تمايز البنيات والوظائف السياسية.
- تدعيم القدرات المؤسسية والسياسية للنظام السياسي.
- تسيّد روح المساواة في الحقوق والواجبات واستغراقها المجتمع بأسره.

وقارب الباحثون العرب المفاهيم الغربية للتنمية السياسية أو التحديث السياسي، فوصفها *نبيل السمالوطي* بأنها (تنمية قدرات الجماهير على إدراك مشكلاتهم بوضوح، وقدرتهم على تعبئة كل الإمكانيات المتاحة لمواجهة هذه المشكلات ...إلى جانب تمثيل

---

18 SUMUEL P.HUNTINGTON. POLITCAL ORDER IN CHANGING SOCIETIES NEW HEAVEN.YALE UNIVERSITY. 1976. PP 32-35.

19 السيد الزيات. التحديث السياسي والمسألة الديمقراطية. مجلة الوحدة. الرباط. عدد٨٥. سنة٨. ١٩٩١.

20 المرجع السابق.

الجماهير لقيم الديمقراطية وتحقيق المساواة السياسية بين أبناء المجتمع)[٢١]. ورأى عبد *المطلب غانم* أن التنمية السياسية (هي مجموعة التغييرات المخططة التي يتم تنفيذها للأبنية أو العمليات المجتمعية، بغرض زيادة قدرات النظام السياسي وزيادة استجابته للنظم المجتمعية وزيادة إسهامه في زيادة قدرات النظم المجتمعية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية)[٢٢]. وطابق محمد *علي* محمد بين التنمية السياسية والتحديث السياسي من حيث إن التنمية السياسية جزء من التنمية الشاملة ومن ثم فهي (العملية التي يحدث بمقتضاها تغير في القيم والاتجاهات السياسية والنظم والبناءات، وتدعيم ثقافة سياسية جديدة بحيث يؤدي ذلك كله إلى مزيد من التكامل للنسق السياسي)[٢٣]. ومضى *صادق الأسود* في ذات الاتجاه مؤكدا أن (الدراسات الحديثة في التنمية السياسية تنصب بصورة مباشرة على النظام السياسي بحد ذاته باعتباره مجموعة بنى متميزة عن البنى الأخرى الاجتماعية والاقتصادية. فكما أن النظام الاقتصادي مثلا تجري عليه تعديلات فيغدو عصريا، كذلك النظام السياسي يتطور ويتحول ويتكامل. ففيما وراء عملية التنمية الاجتماعية الاقتصادية توجد عملية أخرى معقدة هي التنمية السياسية... وهذه العملية الأخيرة التي يعبر عنها بعناصر متعددة تؤشر مرور نظام سياسي تقليدي إلى نظام سياسي عصري)[٢٤]. ونظر عبد *اللطيف القصير* إلى التنمية السياسية من حيث هي فعالية تهدف إلى (زيادة جدوى النظام السياسي وفاعليته في مواجهة المشكلات التي تعترضه عبر إعادة جدولة القيم والافضليات وفقا للإطار الفكري للنظام القائم، وبالتالي توسيع النشاط المتعاون عن طريق بلورة دور المواطنين في المشاركة في وضع جدولة القيم والافضليات تلك)[٢٥]. وقال *علي الدين هلال* إن التنمية السياسية هي (تطور حركي) يتضمن (زيادة قدرة النسق السياسي..على التأثير على باقي النسق الفرعية للمجتمع، فالنظام المتقدم يفترض قدرات أكبر لمؤسسات النسق السياسي في مجالات الأداء والإنجاز والفاعلية والتنفيذ المحكم.. ويتضمن ثلاثة عناصر أساسية أولها التنمية وتفترض نظاما قانونيا له طابع العمومية والتجريد ينطبق

---

[21] نبيل السمالوطي. بناء القوة والتنمية السياسية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٧٨. ص١٤٩.

[22] عبد المطلب غانم. دراسات في التنمية السياسية. مكتبة نهضة الشرق. القاهرة. ١٩٨١. ص١٣٥.

[23] محمد علي محمد. علم الاجتماع السياسي. دار الجامعات المصرية. الإسكندرية. ١٩٧٥. ص٣٩٠.

[24] صادق الأسود. علم الاجتماع السياسي ..أسسه وأبعاده. كلية القانون والسياسة. جامعة بغداد. ١٩٨٦. ص٢٨١.

[25] عبد اللطيف القصير. التنمية السياسية. محاضرات قسم الدراسات العليا. كلية القانون والسياسة. جامعة بغداد. ١٩٧٨.

على كل الأفراد.. ويفرض نوعا من المساواة عليهم أمام القانون. وثانيها إن التجنيد للمناصب العامة يعكس معايير الإنجاز والعمل ويقوم على عنصري الكفاءة والتفوق وليس على اعتبارات القرابة والنسب والعلاقات الاجتماعية، وثالثها إن التنمية السياسية تتضمن مزيدا من المشاركة الجماهيرية والإسهام الشعبي في العملية السياسية)[٢٦].

إن التعريفات السابقة للتنمية السياسية يمكن أن تزودنا بالأركان الأساسية لهذه التنمية إذا ما استخلصنا العناصر المشتركة بينها والتي هي:

- تمايز البنى والمؤسسات السياسية وتخصصها الوظيفي.
- تفعيل البنى والمؤسسات السياسية وزفع قدراتها الإنجازية.
- ترشيد الممارسة السياسية وبناؤها على أسس عقلانية وضعية.
- المشاركة الشعبية في العملية السياسية.

وتأسيسا على هذه الأركان/العناصر فإن التنمية السياسية وبشكل تفصيلي يتضمن أركانها الأساسية هي عملية متخصصة متفرعة عن التنمية الشاملة وتستهدف تحديث وتطوير وتفعيل أفكار المجتمع وقيمه ومؤسساته وأنشطته السياسية لإقامة نظام سياسي متمايز بنيويا ومؤسسيا ومتخصص وظيفيا وقادر وفاعل إنجازيا يمارس سياسة وضعية عقلانية أساسها المشاركة الشعبية في العملية السياسية لبلوغ مستوى الاستخدام الأمثل للموارد المادية والبشرية والاستجابة الفعالة للمطالب والمتغيرات الداخلية والخارجية. وعليه فإن تحقيق التنمية السياسية يشترط:

١. استقلالية البنى والمؤسسات السياسية وتمايزها عن باقي البنى والمؤسسات الاجتماعية وتخصصها بالوظائف السياسية حصرا.
٢. قدرة المؤسسات السياسية على صنع قراراتها وتنفيذ سياساتها وبرامجها وتحقيق أهدافها بشكل فاعل ومؤثر.
٣. ممارسة سياسية وضعية عقلانية تحدد الإرادة الإنسانية الحرة والواعية أسسها وأركانها وفقا للسياقات الاجتماعية-التاريخية الخاصة بهذه الإرادة ودون أي تدخل من المرجعيات الأخرى سواء الغيبية المقدسة أو الإنسانية القسرية. لتكون هذه الإرادة هي وحدها القادرة على تعيين غايات الممارسة السياسية ووسائلها وأساليبها وأهدافها تعبيرا عن المصالح العامة للجماعة السياسية وبعيدا عن المعايير والتفضيلات الفردية الخاصة أو الفئوية الضيقة.
٤. مشاركة سياسية تضمن أوسع صيغ الإسهام المجتمعي في بناء الأنظمة السياسية واختيار أفكارها وبرامجها وسياساتها ومؤسساتها وشخوصها وتحديد أهدافها

---

[26] علي الدين هلال. نحو إطاري نظري لتحليل عملية التنمية السياسية في الوطن العربي. مرجع سبق ذكره.

ووسائلها وأساليبها. وبذلك يكون للإرادة المجتمعية وحدها الحق في مراقبة هذه النظم والسياسات والمؤسسات والأشخاص ومحاسبتها وتغييرها استنادا إلى مبدأ المساواة القانونية والفعلية بين المواطنين في الأدوار والحقوق والواجبات المدنية والسياسية في إطار النظام السياسي وفي مواجهته ضمانا لحضور المجتمع المدني في العملية السياسية وفاعليته فيها، فالمساواة كما يقول *أرسطو* (هي بالضبط أن إرادة الأكثرية هي السائدة)[٢٧].

وباستحضار كل ما تقدم بشأن التنمية من حيث هي:

- نشاط كلي شامل تمس شروطه وتطبيقاته ونتائجه كل جوانب الحياة وعناصرها وتؤثر فيها تبعا لطبيعة نتائجها إن سلبا فسلبا وإن إيجابا فإيجابا.
- قرار/ خيار سياسي تتخذه المؤسسات السياسية وفقا لآليات عملها القانونية والإجرائية وتكون مسئولة عن توفير متطلباته وتنفيذه سياساته وتحقيق أهدافه ومتابعة نتائجه.

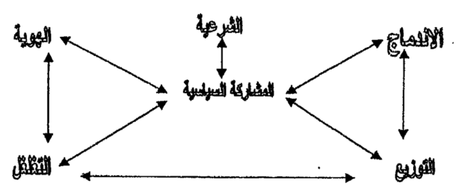
فمن الطبيعي أن تكون للمشاركة السياسية مكانة خاصة في عملية التنمية وأن تشغل فيها موقعا مميزا يجعل منها شرطا لازما وضرورة حتمية لتحقيق التنمية السياسية، وحيث إن التنمية السياسية بدورها شرط لازم وضرورة حتمية لتحقيق التنمية، فستكون المشاركة السياسية شرط التنمية الأول وضرورتها الحتمية من حيث هي الإطار والآلية الأقدر والأنسب لتحقيق أوسع مشاركة ممكنة للمجتمع المدني بأفراده ومؤسساته في اتخاذ القرارات المتعلقة بحياته حاضرا ومستقبلا وفي مقدمتها أكثر القرارات مساسا بكل عناصر الحياة وجوانبها:

- قرار التنمية ونموذجها التطبيقي.
- قرار توفير واستخدام الموارد المادية والبشرية اللازمة لتطبيق النموذج التنموي.

فمن خلال المشاركة السياسية وبواسطتها وفي إطارها يمارس المجتمع المدني حقه ودوره في رسم مسارات حياته واتخاذ القرارات التي تحدد توجهاته بما في ذلك ما يتعلق منها بالتنمية ونماذجها وعملياتها الفرعية، السياسية وغير السياسية، فلا يكون أي من تلك القرارات مفروضا عليه قسرا ودون موافقته، ولا ينفذ دون علمه أو دون مشاركته، ليكون للمشاركة السياسية بذلك موقع القلب بالنسبة لباقي شروط / أزمات التنمية السياسية مثلما يوضح الشكل التالي:

---

27 أرسطو. السياسة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ط٢. ١٩٧٩. ص٤٢٤.



وإذ يرتهن تحقيق التنمية الشاملة بتحقيق التنمية السياسية المرتهنة أصلا بتحقيق المشاركة السياسية، فإن ذلك يجعل تحقيق التنمية الشاملة مرهونا أولا وأساسا بنجاح المجتمع المدني والنظام السياسي في الوصول إلى الصيغة اللازمة والمناسبة لتحقيق المشاركة السياسية وحل أزمتها المستعصية في البلدان المختلفة. فما هي المشاركة السياسية؟ هذا الشرط الوجوبي لاختيار الأهداف المجتمعية وإنجازها بإرادة مجتمعية حرة وعقلانية ووضعية، تجسدها وتعبر عنها قرارات مجتمعية تضمن تحقيق التنمية السياسية وصولا إلى التنمية الشاملة.

المشاركة السياسية..

تعد المشاركة السياسية من أقدم محاور الاهتمام الإنساني وأكثرها استحواذا على النشاطات النظرية والعملية للأفراد والجماعات. وبقدر ما سعت الشعوب لتحقيق هذه المشاركة وعملت من أجلها لأنها سبيلها للمساهمة الفاعلة في تحديد قيمها وأهدافها وصنع سياساتها واختيار حكامها ومراقبتهم ومحاسبتهم وتغييرهم، بقدر ما تجنبها الحكام وعملوا على تعطيلها لأنها تقيد سلطاتهم وتمنعهم من الانفراد بتحديد قيم وأهداف مجتمعاتهم وصنع سياساتها دون الخشية من المراقبة والمحاسبة والتغيير. لذلك فقد أصبح لمصطلح (المشاركة السياسية) حضور واسع ومكثف في الدراسات الاجتماعية عامة والسياسية خاصة، وبشكل مباشر في أحيان قليلة وبشكل غير مباشر في أحيان كثيرة من خلال استخدام مصطلحات أخرى مرادفة تعكس مضمونه جزئيا أو كليا مثل (الديمقراطية، التعبئة الجماهيرية، المساهمة الشعبية). يعكس هذا ويجسد الإدراك العميق لضرورة المشاركة السياسية وخطورتها بالنسبة للعملية السياسية بفعل دورها في نجاح هذه العملية أو فشلها في تنفيذ سياساتها وتحقيق أهدافها انطلاقا من حقيقتين:

الأولى: إن ظاهرة الاستبداد والسلطة المطلقة تنتج أساسا عن غياب المشاركة المجتمعية في العملية السياسية أو تقييد هذه المشاركة أو شكليتها. وهذه من أخطر المشكلات التي تواجهها الدول والمجتمعات المتخلفة التي تعاني ليس من الآثار السلبية

لهذه الظاهرة فحسب بل ومن اتساعها وتفاقمها المستمرين أيضا. فكما يقول *لورد اكتون* (إن السلطة مَفسدة، وإن السلطة المطلقة مَفسدة مطلقة)[٢٨]. ويقول عنها رأي آخر (السلطة تفسد دائما أولئك الذين يمارسونها وتجعل المواطن ينتصب ضد السلطات)[٢٩].

الثانية: إن الأخذ بالمشاركة السياسية وفاعليتها التطبيقية باتت معايير أساسية للتمييز بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة التي تغيب هذه المشاركة فيها وعنها أو يكون حضورها فيها شكليا ودون فاعلية تطبيقية.

ويأتي مصطلح (المشاركة السياسية) عند العديد من الباحثين بصيغ ومضامين على قدر كبير من التقارب في عناصرها ومقوماتها وإن تباعدت صياغاتها وتعبيراتها. فيقول *هنتنجتون* بأنها تعني (أن تصدر القرارات العليا تعبيرا عن الإجماع الشعبي متمثلا في المناقشة والتدبير الشعبي)[٣٠]. وهي عند *باي والموند* (مساهمة أعداد كبيرة من الأفراد والجماعات في الحياة السياسية)[٣١]. ويرى *عمر الخطيب* في المشاركة السياسية بمعناها العام والبسيط مرادفا للديمقراطية لأنها هي أيضا تعني (حكم الشعب من الشعب والى الشعب...إنها ذلك الشكل من الممارسة السياسية الذي يتيح لأفراد الشعب، وبلا تمييز حق المشاركة في صنع السياسة العامة للبلاد، وحق المشاركة في اتخاذ القرارات وصناعتها)[٣٢]. ويذهب *علي الدين هلال* إلى إنها (المشاركة الجماهيرية والإسهام الشعبي في العملية السياسية، وهذه المشاركة يمكن أن تأخذ إما شكل المشاركة الديمقراطية..وإما شكل التعبئة الشمولية)[٣٣]. ويعتقد *سعد الدين ابراهيم* أن المشاركة السياسية هي (قدرة المواطنين على التعبير والتأثير العلني والحر في عملية اتخاذ القرارات بشكل مباشر أو غير مباشر)[٣٤].

إن مقاربة هذه الصيغ المتعددة والمتنوعة للمشاركة السياسية لمفهوم الديمقراطية ليست أمرا دون مسوغ أو بلا أساس. فالارتباط بين المفهومين يعود بالأساس إلى أن المشاركة السياسية هي التجسيد العملي الأوضح والأعمق لفكرة الديمقراطية وتطبيقاتها المتنوعة (المباشرة، غير المباشرة، شبه المباشرة، والشعبية)، والتي تدور كلها حول

---

[28] ماريا لويزا برنيري. المدينة الفاضلة عبر التاريخ. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. عدد٢٢٥. ١٩٩٧.

[29] روبير بيلو. المواطن والدولة. منشورات عويدات. بيروت. ط٣. ١٩٨٣. ص١٨٢.

[30] S. P. HUNTINGTON. OP. Cit.

[31] L.W. PYE. OP. Cit.

[32] عمر الخطيب. التنمية والمشاركة في أقطار الخليج العربية. مرجع سبق ذكره.

[33] علي الدين هلال. نحو إطاري نظري لتحليل عملية التنمية السياسية في الوطن العربي. مرجع سبق ذكره.

[34] سعد الدين إبراهيم. المجتمع والدولة في الوطن العربي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ط١. ١٩٨٨. ص١٨٦.

محور أساسي واحد هو إشراك جميع المواطنين بفرص وأدوار متساوية في كل جوانب العملية السياسية ومراحلها[٣٥]، لأن ذلك هو ما يؤمن حكم الشعب لنفسه بنفسه. كما يعود هذا الارتباط إلى أن الديمقراطية هي الإطار الفكري والمؤسسي والإجرائي الضامن لتحقيق المشاركة السياسية وتفعيلها وقدرتها على تأدية مهماتها وتحقيق أهدافها، مثلما أن المشاركة السياسية هي الشرط الأساسي لتطبيق الديمقراطية وتفعيلها وقدرتها على تأدية مهماتها وتحقيق أهدافها. وإذ تستهدف الديمقراطية كنظام سياسي واجتماعي (توسيع المساحة التي يستطيع أعضاء مجتمع ما حكم أنفسهم من خلاله وفي إطاره عن طريق المشاركة بصورة تامة وحرة في تنظيم حياتهم الاجتماعية)[٣٦]، فستكون المشاركة السياسية جوهر النظام الديمقراطي وروحه المتجسدة في (الدور الذي يقوم به الناس لاختيار نموذج الدولة التي تحدد الحقوق والواجبات لكل المواطنين طبقا للتشريعات والقوانين والدستور)[٣٧]. يؤكد ذلك ويثبته قيام المشاركة السياسية والديمقراطية على ذات الأسس المتمثلة في الاعتراف بالحريات والحقوق المدنية والسياسية المتساوية للشعب /المواطنين/أفراد المجتمع المدني ومؤسساته، وفي مقدمتها حقوقهم في:

- المشاركة في اختيار نظام الحكم في مجتمعهم وتحديد قيمه وأهدافه.
- المشاركة في اختيار هياكل النظام السياسي ومؤسساته وشخوصه وآليات عمله.
- المشاركة في صنع السياسات العامة وتنظيم قواعد وآليات تنفيذها ومراقبتها وتغييرها سلميا ودوريا.

وفي ضوء عناصر التطابق هذه بين المشاركة السياسية والديمقراطية والأسس المشتركة بينهما، يمكن القول بأنهما شيء واحد يكون وجوده الحقيقي والفاعل ضرورة حيوية لازمة لشرعية أنظمة الحكم وقدرتها على التعبير عن إرادة مجتمعاتها المدنية وخياراتها الحرة والمتجسدة في مشاركتها في كل مفردات العملية السياسية ومراحلها سواء أكانت هذه المشاركة منظمة أو عفوية، مؤقتة أو متواصلة، شرعية أو

---

[35] انظر للتفاصيل:
- عبد الهادي الجوهري. أصول علم الاجتماع السياسي. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية. ١٩٩٦. ص٢٥.
- طارق محمد عبد الوهاب. سيكولوجية المشاركة السياسية. دار غريب. القاهرة. ط١. ١٩٩٩. ص١٤٩.

[36] كريم أبو حلاوة. إشكالية مفهوم المجتمع المدني النشأة-التطور-التجليات. الأهالي للطباعة والنشر. دمشق. ط١. ١٩٩٨. ص٨٦.

[37] توم بوتومور. علم الاجتماع السياسي. دار الطليعة. بيروت. ط١. ١٩٨٦. ص٣٥.

غير شرعية، ناجحة أو فاشلة، فالمهم في النهاية هو وجود المشاركة وطوعيتها لأنها إن لم تكن طوعية، فقدت معناها وغايتها[٣٨].

وتكتسب المشاركة السياسية بالنسبة للدول المتخلفة ضرورة أخرى مضافة باعتبارها الإطار الفكري والمؤسسي والإجرائي الأنسب لتلبية متطلبات معالجة مشكلات التخلف فيها، حيث توفر لها (أرضية صحية لمناقشة هذه المشاكل وبلورة الحلول العقلانية، وتكوين الإجماع الوطني الذي يحتاجه تطبيق هذه الحلول ومواجهة المشكلات)[٣٩]. وفي الظروف الدولية المستجدة باتت للمشاركة السياسية ضرورة أخرى جديدة مصدرها الطابع الديمقراطي الغالب على وقائع العولمة والتغيرات الناتجة عنها والمصاحبة لها والمتمثلة في:

- ديمقراطية التكنولوجيا / الاتصالات.
- ديمقراطية التمويل / الاقتصاد.
- ديمقراطية المعلومات / المعرفة[٤٠].

فهذه الوقائع والتغيرات التي تغلب عليها وتجمع بينها خاصية الديمقراطية تفرض على المجتمعات والأنظمة السياسية المتعاطية معها والمتعرضة لتأثيراتها امتلاك خصائص ديمقراطية إن لم تكن مطابقة لها فليس أقل من أن تكون متقاربة معها. ناهيك عن التسارع المفرط في تلك الوقائع والتغيرات ودواعي الاستجابة السريعة لها من خلال الأخذ بالمزيد من قيم المشاركة السياسية وتطبيقاتها لأن (الحكومات، بما فيها تلك التي تضمر أطيب النوايا، تبدو عاجزة عن توجيه التغيير الوجهة الصحيحة)[٤١]، ويقتضي مثل هذا التفاعل مع التغيرات الراهنة مشاركة الإرادة الحرة للمجتمع في التخطيط لتحديد طبيعة ذلك التفاعل وأهدافه ووسائله وأساليبه. فتسارع التحول في المجتمعات الحديثة وزيادة تعقيدها على مستوى الأفكار والمصالح والعلاقات، يتطلبان المزيد من القدرات والخبرات للمشاركة في اتخاذ القرارات الصائبة والمناسبة التي قد تنجح الأنظمة الحاكمة الفردية أو الفئوية في اتخاذها أحيانا لكنها لن تنجح في ذلك دائما. لذلك لابد من مشاركة الإرادة المجتمعية في اتخاذ

---

[38] انظر للتفاصيل: طارق محمد عبد الوهاب. سيكولوجية المشاركة السياسية. مرجع سبق ذكره. ص١٥٠.

[39] برهان غليون. الديمقراطية العربية..جذور الأزمة وآفاق النمو. في: برهان غليون وآخرون. حول الخيار الديمقراطي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ط١. ١٩٩٤. ص١٤٢.

[40] توماس ل. فريدمان. السيارة ليكساس وشجرة الزيتون..محاولة لفهم العولمة. الدار الدولية للنشر والتوزيع. القاهرة. ط١. ٢٠٠٠. ص٧٩.

[41] ألفين توفلر. صدمة المستقبل..المتغيرات في عالم الغد. نهضة مصر للطباعة والنشر. القاهرة. ط٢. ١٩٩٠. ص٤٧١.

القرارات التي تكون تلك الإرادة أداتها وموضوعها وغايتها، مثلما أنه لابد من الآليات والوسائل المناسبة للتعاطي مع تلك القرارات وسياساتها ومؤسساتها، فحتى (نمسك بزمام التغيير المتسارع، سوف نحتاج إلى ترتيبات أكثر تقدما وأكثر ديمقراطية لتوفر تدفقا أيسر ودورا أكبر...في صنع القرارات)[42]. وهذا ما يعنيه قول أحد الباحثين الغربيين بأنك في عصر العولمة تحتاج إلى (دولة أفضل، دولة أذكى، ودولة أسرع)[43]، وليست هذه إلا الدولة الديمقراطية إذ (كلما كان مجتمعك أكثر انفتاحا وديمقراطية، زاد ما تحصل عليه دائما من مردود وكانت فرصتك أفضل لإجراء تصحيحات في منتصف الطريق قبل أن تتعثر في منحدر شاهق)[44]. فإذا كان الاستنتاج المستخلص هنا هو أن لا تنمية دون ديمقراطية[45]، والاستنتاج المستخلص آنفا أن الديمقراطية هي المشاركة السياسية أو أنها لا تتحقق بدونها، فسيكون الاستنتاج النهائي أن لا تنمية دون مشاركة سياسية شعبية.

إلا أن الدعوات المتزايدة للأخذ بالمشاركة السياسية أو لتفعيلها وتوسيع نطاق مساهمتها في صنع اتجاهات الحياة الإنسانية في الحاضر والمستقبل، قد تبدو في اعتقاد بعضنا ساذجة وغير عملية، وهي في اعتقاد غيرهم مشبوهة ومقلقة. وقد أكدت وقائع العقد الأخير من القرن العشرين والسنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، وبخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة والحملة الدولية ضد ما يسمى بالإرهاب ثم احتلال أفغانستان والعراق، أكدت كلها تهافت هذا الاعتقاد والبطلان الكامل للأساس الذي يقوم عليه والقائل بإمكانية استمرار حكم المجتمعات واتخاذ القرارات التي تصنع اتجاهات حياتها بمعزل عن مشاركة هذه المجتمعات أو بخلاف إرادتها. والأكثر من ذلك تهافتا وبطلانا ما تروج له وتدعيه الأنظمة الاستبدادية من أن تطبيق المشاركة السياسية أو حتى مجرد المطالبة بها أمر يخدم مصالح القوى الدولية وأهدافها، فهذا الادعاء يتناقض كليا مع سياق الأحداث ومساراتها التي أثبتت أن آخر ما تريده هذه القوى هو التحقيق الفعلي لأي شكل من المشاركة السياسية لما في ذلك من تهديد مباشر لمصالحها ووجودها في آن واحد، وفي كل زمان ومكان. أما تعدد عناصر التطابق بين المشاركة السياسية والديمقراطية وتنوع دواعي تفعيلها وتوسيع نطاقها، فهي أدلة مضافة على أن المجتمعات المتخلفة في تطبيقها للمشاركة السياسية ليست ملزمة بالأخذ بأشكالها المعتمدة في النموذج الديمقراطي الليبرالي الغربي. فلهذا النموذج سياقات ولادته وتطوره الخاصة التي لا تبدو متاحة في

---

42 المرجع السابق. ص٥٠٣.

43 توماس ل. فريدمان. السيارة ليكساس وشجرة الزيتون. مرجع سبق ذكره. ص٢٢٣.

44 المرجع السابق. ص٢٥٦.

45 المرجع السابق. ص٢٦٠.

ظروف المجتمعات المتخلفة، لأن (أشكال الديمقراطية السياسية التي ظهرت في الغرب، لم تظهر لأن قلة من العباقرة قد أرادوا لها أن توجد، أو لأن الإنسان قد اظهر غريزة لا تخمد إلى الحرية، بل أنها ظهرت لأن الضغط التاريخي في اتجاه التنوع الاجتماعي ونحو نظم أسرع قد تطلب تغذية مرتدة اجتماعية حساسة.. والديمقراطية السياسية بإشراكها أعدادا أكبر فأكبر في صنع القرارات الاجتماعية تيسر هذه التغذية المرتدة)[٤٦]. بذلك تكون المشاركة السياسية في شتى صورها وآلياتها الضامنة لحق المجتمع المدني ودوره في صنع حياته واتخاذ قراراتها غاية ووسيلة وضرورة في آن واحد. فهي الشرط اللازم والوحيد للإيفاء بمتطلبات تنظيم العلاقة بين السلطة السياسية والمجتمع المدني ومقتضيات شرعية هذه العلاقة وتوازنها واستقرارها من جهة، وهي من جهة ثانية الوسيلة الوحيدة لتحديد أهداف هذه العلاقة وحل مشكلاتها وفقا لإرادة المجتمع المدني وتعبيرا عن خصائصه واحتياجاته من خلال المشاركة الإرادية الحرة لأفراده ومؤسساته وأدوارهم الإيجابية الفاعلة في كل مفردات النشاط الحياتي العام وتفاصيله. ويفترض تحقيق هذه المشاركة وجود الإنسان الحر الواعي الفاعل الذي تحتاجه وتخلقه التنمية والمشاركة معا وفي آن واحد. فالتنمية تتعلق أولا وأخيرا بالإنسان لأنها تستهدفه وتستخدمه وتوجه نشاطاتها ونتائجها لتؤثر في حياته حاضرا ومستقبلا، وهذا ما يستدعي بل ويستوجب مشاركة الإنسان في اتخاذ قرار التنمية واختيار نموذجها وتوفير متطلباتها وتعيين وسائلها وأساليبها وأهدافها. لتكون المشاركة السياسية في النهاية شرط تحقيق التنمية وركنها التأسيسي والتجسيد العملي للعلاقة العضوية الثابتة بين المشروعين التنمويين الاجتماعيين، الاقتصادي والسياسي، إذ لا يمكن أن يتحقق أي منهما في غياب الآخر أو من دونه.

---

46 الفين توفلر. صدمة المستقبل. مرجع سبق ذكره. ص٥٠٢-٥٠٣.

Political Participation: A Developmental Perspective

The collapse of the Soviet Union and the disintegration of the Socialist camp have put a decisive end to the dichotomy of the world to bf divided into two camps: capitalist and socialist. Yet, it has not brought to an end another dichotomy by which the world had divided into two blocks-advanced and under developed.

No matter how those who are interested in underdevelopment matter may seem to be at odds with its definition and aspects, they still agree that it is a comprehensive and complex phenomenon, the negative effects of which may prevail in all systems and institutions of the society. This imposes on the societies that suffer from underdevelopment to try to confront it and deal with it in a comprehensive and complex way through a process of development.

This study is in line with the prevailing point of view held currently on this issue. It supports the thought that sees the first and most important reason for underdevelopment is political underdevelopment, and that the first and most significant reason for political underdevelopment is the absence or loss of political participation in the underdeveloped countries. Thus, the solution to the crisis of political participation in them would be the basis for solving this crisis.

In addition, the recent circumstances the world is witnessing and which have been arising under the influence of the policies of globalization and their applications, give additional importance to the political participation. Confrontation with these policies and applications imposes on these countries the development of their capabilities, which entails the achievement of political stability that is a prerequisite for achieving development, because the development also entails the existence of efficient regimes, which should be capable of implementing and administering it. However, efficiency is sorely available for dictatorial regimes in which the political participation is very absent. This should provide new additional reasons for emphasizing the importance of political participation and its necessity for achieving development in the underdeveloped countries.

تأثير القدرة الايرانية على الترتيبات الامنية الاقليمية

الدكتور
عزيز جبر شيال(*)

المقدمة

مما لاريب فيه بان الجمهورية الاسلامية الايرانية تدرك جيداً ماتريد من علاقاتها سواء القائم منها او المحتمل مع دول المنطقة وان لديها صورة واضحة لموقعها في المنطقة ، وان اية ترتيبات امنية في اية بقعة من العالم وعلى الاخص في منطقة الشرق الاوسط التي تحتفظ باكبر مخزون نفطي معروف في العالم وأمكانيات اقتصادية هائلة أخرىفضلا عن أنها أكبر بؤرة صراع في العصر الراهن، لايمكن أن تتم بمعزل عن أية ترتيبات أمنية عالمية ، وتتأثر سلبا وايجابا بصراع المصالح الذي يمثل السمة الرئيسة المميزة للنظام السياسي الدولي.

وأن اعلان أيران امتلاكها قدرات نووية تمكنها من اكمال دورة الوقود النووي (العصب الرئيس في التكنلوجيا النووية) تمثل احدى التحديات التي اختلفت بشأنها أستجابة دول العالم والمنطقة. ففي الوقت الذي رحبت بهذا الأنجاز دول تتوافق سياستها الخارجية مع أيران وهي للأسف قليلة، عارضتها دول أخرى وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية تتبعها الدول الأوروبية، معتبرة أن مثل هذا التطور سيؤدي الى نهوض برنامج تسلح نووي يخل بالتوازنات القائمة حاليا وفي المستقبل ، بينما ساد الغموض مواقف دول أخرى فلا هي تؤيد البرنامج النووي الأيراني خشية من أغضاب الولايات المتحدة الأمريكية وبما يؤثر على مكانة تلك الدول اقليميا وهي المكانة التي تتمتع بها بفضل الدعم الأمريكي والغربي لها ولاتعارض البرنامج النووي الأيراني صراحة خوفا من ان تصبح شرعية وجود حكوماتها موضع تساؤل وهذا حال دول مجلس التعاون الخليجي. ومن هنا فأن فرضية البحث تنطلق من أن قدرات ايران النووية ستؤدي بالضرورة الى البحث عن ترتيبات أمنية جديدة سواء بتعزيز القائم منها أو أيجاد نظام أو نظم امنية تتيح التفاعل مع هذا الأمر وبما ينسجم مع آليات النظام السياسي المعاصر.

(*)كلية العلوم السياسة ـ الجامعة المستنصرية.

وتحاول هذه الورقة أن تجيب عن اسئلة مركزية تمثل الأجابة عنها تفسيرا لما يجري من مواقف وبالتالي تقدم مشاهد أو سيناريوهات محتملة لترتيبات أمنية تأخذ بعين الأعتبار حقائق التطور العلمي والتقني الجديد في المنطقة، ويمكن أن تتدرج الأسئلة بما يأتي:

١. هل أن ايران النووية عامل ضعف أو قوة لدول المنطقة؟ ولماذا؟
٢. هل أن امتلاك أيران قدرات نووية يمثل خطرا حقيقيا على دول المنطقة؟ وكيف؟
٣. ماهو الخطر الذي تخاف منه المنطقة؟ هل هو في امتلاك ايران سلاحا نوويا أم في مجرد امتلاكها قدرات نووية حتى وأن كانت سلمية فقط؟
٤. هل أن مرد هذا الخوف هو استقراء لنوايا ايرانية أم ماتقوم به ايران فعليا؟
٥. ماهي السيناريوهات المحتملة للترتيبات الأقليمية المحتملة ؟

أن الأجابة عن هذه الأسئلة وغيرها ستتضمنها ورقة البحث وبأمكان القارئ متابعتها والوصول اليها استنتاجا ومن خلال فصلين يبحث الأول في الترتيبات الأمنية القائمة والثاني يبحث في الترتيبات الأمنية المحتملة ومدى استجابة كل منها للمتطلبات الأمنية لدول المنطقة

الفصل الأول

الترتيبات الأمنية القائمة

قبل البحث في موضوع الترتيبات الأمنية القائمة لابد من تحديد امرين الأول يتعلق بفهوم الأمن والثاني ينصرف الى تحديد العلاقة بين النظام السياسي الدولي وتأثيره في الترتيبات الأمنية للنظم الأقليمية.

وبقدر تعلق الأمر بالموضوع الأول أي الأمن، فأننا نقصد به مايطغى في الخطاب السياسي والأعلامي والعسكري وهو (الأمن القومي) حيث مرّ هذا المفهوم بتطورات عديدة الى أن استقر على مفهوم يكاد أن يكون أكثر قبولا، أذ يعرفه مجلس الأمن القومي الأمريكي بـــ"الحفاظ التام على المؤسسات والقيم الجوهرية للمجتمع"[1] وهذا يعني السعي الدؤوب لتحقيق الأمن النفسي والجسدي للمواطنين عبر استخدام عناصر ومصادر القوة المتنوعة للحيلولة دون تعرضهم لمخاطر داخلية أوخارجية تهدد وجودهم وحياتهم ونمط عيشهم ،أن كلمة السعي هنا مختارة بعناية بدلا من

---

[1] Peter Peterson ;" The Primacy of the Domestic Agenda" in : Graham Allison and Gregory Treierton, Rethinking American to New Order, New York Norton and Security Beyond Cold War Norton ,1992P .57

التوصل لأن النظرة الواقعية في الظروف الدولية الراهنة تؤكد على انه من الصعب الحديث عن أمن كامل ومطلق مهما كانت القوة التي تتمتع بها أية امة او دولة[٢]، وتوجد للأمن أبعاد مختلفة أهمها "أمن عسكري، أمن معنوي ثقافي، أمن اقتصادي، أمن غذائي، أمن بيئي، أمن صحي، أمن أجتماعي"[٣]. كما أن للأمن مستوياته وهي فردية، وطنية، أقليمية، وعالمية[٤].

وبناء على ماتقدم فأن موضوع الترتيبات الأمنية ينبغي أن يشمل السعي للحفاظ على المصالح والقيم الجوهرية، وأبعاد الأمن ومستوياته وبالتالي فأن أي توصيف للوضع الأمني الحالي في المنطقة يشير الى أختلالات كبيرة تتمثل في ربط الداخل بالخارج وأعطاء توكيل صريح أو ضمني للقوى المهيمنة في النظام الدولي المعاصر (الولايات المتحدة الأمريكية) لترتيب أوضاع المنطقة وفقا لما تعتقده دولها بأنه يمثل مصالحها الجوهرية في حين أن الأمريكان وهم ينظمون أوضاع المنطقة أنما يسعون الى تحقيق الأمن القومي الأمريكي، حيث أن صناعة القرار الأمريكي تتحكم فيها ثلاثة عناصر مترابطة ومتشابكة وهي[٥]:

١. المثلث الحديدي للمصالح (المجمع الصناعي-العسكري، المجمع النفطي والمجمع المالي) ولكل من أضلاعه شبكته وتفرعاته، لذا فأن دول المنطقة في سعيها الى الأمن من خلال الولايات المتحدة الأمريكية تقع في خطأ جسيم أذ أنها تربط عقيدتها العسكرية وتطورها التكنلوجي وثرواتها الطبيعية والمالية بالأمن القومي الأمريكي .
٢. المجمع الفكري الذي يصوغ هذه المصالح وينظّر لها لدى قدوم كل ادارة امريكية، وهذا المجمع يتمثل بالمعاهد ومراكز البحوث.
٣. الأدارة المتابعة والمنفذة والمروّجة لهذه المصالح والتي تتداخل بين الجهاز التنفيذي والأعلام والأستشارات.

أن هذه العناصر مترابطة مع بعضها، ولايمكن تصور أي فعل سياس أو سلوك حكومي بمعزل عن تأثيرات هذه العناصر، أذ أنها تنتج وتقترح خيارات السياسة الأمريكية وتقدم الصيغ الجدية للحوارات حول القضايا الجوهرية وتقدم للرأي العام المعلومات والتحليلات عن الشؤون العالمية، وتساند المساعي الرسمية في مجالات تعنى بالتفاوض وحل النزاعات الأقليمية.

---

[2] منذر سليمان :" دولة الأمن القومي وصناعة القرار الأمريكي . تفسيرات ومفاهيم" مجلة المستقبل العربي . العدد ٣٢٥ آذار ٢٠٠٦ ص٣٢ .
[3] المصدر نفسه.
[4] قارن مع المصدر نفسه
[5] المصدر نفسه. ص٣٥ .

ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية تدعي أنها تدافع عن المبادئ التي يستند اليها النظام الدولي المعاصر والتي من أبرزها الحرية والمساواة، ونشر الديمقراطية، ومراعاة حقوق الأنسان، والألتزام بالشرعية الدولية، وتفعيل دور الأمم المتحدة بشكل عام ومجلس الأمن بشكل خاص، الاّ أن واقع الحال يشير الى ان الهدف الأمريكي يختلف تماما عن تلك المبادئ، حيث يلاحظ أن الولايات المتحدة تتدخل في شؤون الدول الأخرى بأسم حقوق الأنسان تارة وبأسم التعددية والديمقراطية تارة أخرى، وتتغافل عن أنظمة تنتهك تلك المبادئ وتمارس دكتاتورية بغيضة، ولعل الدول الفاعلة في النظام الدولي المعاصر تسلك السبل نفسها ففرنسا وبريطانيا ودول اوروبية اخرى شكلت مايعرف بقوات التدخل السريع لأستخدامها في الشمال الأفريقي متى تعرض أمنها القومي للخطر[6]، كما أن روسيا تستخدم القوة المفرطة في الشيشان الذي يطالب بحريته وأستقلاله، وهذا يعني أن الأهداف التي تسعى اليها القوى الفاعلة في النظام الدولي المعاصر تتناقض والمبادئ المعلن عنها. ويمكن تلخيص خصائص هذا النظام بالآتي[7]:

١. نشر وتطبيق الليبرالية والرأسمالية مثل التعددية، نظام السوق، والمجتمع المدني.
٢. الألتزام بمبادئ وقواعد القانون الدولي وعلى الأخص العرفية منها والتي تعكس المصالح الغربية بشكل عام.
٣. اللجوء الى سياسات التعاون والتحالف التي تخدم المصالح الأمريكية والغربية.
٤. المحافظة على التفوق الغربي، خاصة مايتعلق بدعم مثل هذا التفوق في المجالات الأقتصادية والعسكرية والتكنلوجية.
٥. نزع السلاح والرقابة على التسلح وعلى الأخص عندما يتعلق الأمر بالدول النامية.
٦. دعم (اسرائيل) والمحافظة على أمنها والعمل على دمجها كدولة قائدة في النظام الأقليمي (الشرق الأوسط الكبير)[8].

وأذا كانت الولايات المتحدة قد سوقت فكرة أنها القطب الوحيد والآمر الناهي في العالم بعد أنهيار الأتحاد السوفيتي وأنتهاء الحرب الباردة، الاّ أن الواقع يشير الى

---

[6] د. مصطفى عبد الله أبو القاسم خشيم . الشراكة الأوروبية – المتوسطية . ترتيبات مابعد برشلونة، معهد الأنماء العربي ؛ بيروت٢٠٠٢ ص١٣٩-١٤٠

[7] ــــــــــــ : " توازن القوى في أطار النظام العالمي الجديد" مجلة دراسات السنة الرابعة العدد الثالث عشر٢٠٠٣ ص ١٢

[8]

فشلها في أحتلال هذا الموقع حيث وعلى الرغم من امتلاكها لأكبر قوة عسكرية، ويعد أقتصادها أكبر أقتصاد عالمي الا انها مازالت تفتقر الى بعض عناصر القوة الأخرى التي تمنحها قدرة التأثير في سلوك الآخرين نتيجة لتنامي المشاعر المعادية ضدها في أغلب دول العالم، فضلا عن فشلها الميداني في افغانستان والعراق والصومال وفشل وكيلها في المنطقة (اسرائيل) في احتلال جنوب لبنان على الرغم من استخدام اقصى ماالديها من اسلحة تقليدية متطورة وماتم تزويدها به من ترسانة الأسلحة الأمريكية.

أن تضخيم الدور الأمريكي في النظام العالمي المعاصر يراد منه أقناع دول العال بأن لامناص من التسليم للأمريكان وتنفيذ مايريدون خلافا لحقيقة القدرة الأمريكية المتأكلة، اذ أن القناعة بالقطبية الأحادية يعني بالضرورة تحقق مايأتي[9]:

١. الهيمنة على القواعد والترتيبات التي تحكم العلاقات الدولية ، بحيث أنه بأمكان القطب المهيمن في هذه الحالة أن يجعل الأطراف تفعل مايريده دون الحاجة الى استخدام القوة المسلحة.
٢. السيطرة على الأقتصاد العالمي بحيث أن اقتصاد القطب الواحد يكون في هذه الحالة محوريا أو مركزيا بالنسبة للأقتصادات الأخرى.
٣. الهيمنة العسكرية على العالم حيث يتطلب الأمر من القطب الواحد أن تكون له قوات منتشرة في العالم وامكانات استخدام هذه القوات في أية لحظة وبدون مساعدة الآخرين.
٤. السيطرة الثقافية على العالم بحيث ان اطراف النظام العالمي الأخرى تقبل ثقافة القطب المهيمن نظرا لتنوعها وجاذبيتها وعلى اساس انها الأفضل المتاح للبشرية جمعاء.

يتضح مما سبق أن الولايات المتحدة الأمريكية لاتمتلك مقومات القطب الأوحد ولكن ساعدها في تسويق فكرتها الزخم الأعلامي الهائل وقناعة بعض الدول وعلى الأخص في منطقتنا بأن أمريكا قادرة على فعل كل شيئ، وهذا سهل للولايات المتحدة أن تلعب دور الحامي للمصالح الجوهرية لدول المنطقة . أن تحقيق الأمن يتمثل بالسعي للحفاظ على المصالح الجوهرية ، وهذا يتطلب علاقات تعاون تم التعبير عنها بترتيبات امنية لم تجد نفعا بسبب اختلاف مدركات الدول لوسائل السعي للأمن ومن هنا فأن عناصر الشك قد أخذت في النمو في المنطقة بحيث أصبحت تسعى لأمنه من خلال الأرتباط بالنظام الدولي بدلا من السعي الى ايجاد ترتيبات امنية مستقلة، وبناء عليه اضحت قوة اية دولة بمثابة ناقوس خطر يدق في آذان الحكام ليهرولوا صوب الخارج لتطمين مخاوفهم ،لذا فأن قوة ايران النووية أدركها حكام المنطقة بأنها عامل

Barry Buzan: " New Patterns of Global Security in The Twenty – [9]
First Century" International Affairs 67, 3, July 1991.

ضعف لهم، ومن هنا فأن الولايات المتحدة وجدت فرصتها السانحة في أعادة ترتيب أوضاع المنطقة وفقا لمشروع الشرق الأوسط الكبير.

أن اية ترتيبات امنية لابد ان تنطلق من بناء الثقة بين اطراف العلاقة وان تأخذ بعين الأعتبار الأبعاد الآتية:

١. خصوصية المنطقة وأفرازات الهيمنة الأمريكية عليه والذي يتطلب ايجاد رؤية مشتركة للصراعات الداخلية، النزاعات الحدودية، مسائل تتعلق بالتكامل الأقليمي لبعض دول المنطقة، مشاكل اللاجئين وغيرها من المشاكل التي تسهم في استمرار تطاير المنطقة وفي نفس الوقت الوجود الفعلي للقوات الأجنبية الذي يشكل عامل ضعف، واذا لم توجد آليات تضمن حل هذه المشاكل فأن الأمور ستتفاقم نحو الأسوأ[١٠].

٢. ان عسكرة المنطقة بشكل هائل وادخالها ميدان سباق تسلح يؤثر على أية ترتيبات أمنية أذ أن كل دولة ستعمل بمعزل عن دول الأقليم مما يعزز عدم الثقة بين اطراف العلاقة ويدفع بها الى التعاون مع دول خارجية تجعل من دول المنطقة تابعة لأستراتيجيات اجنبية وعلى الأخص أمريكية، لذا فأن كثيرا من الدول قد استوردت اسلحة وتعاقدت على اخرى بمبالغ ضخمة جدا ، دون مراعاةمبدأ القدرة على استيعابها او استخدامها في الأزمات ولعل حرب الخليج الثانية ١٩٩١أكدت هذه الحقيقة.

٣. انه لاتقدم حقيقي يمكن ان يحصل في تلبية الأحتياجات الأمنية مالم يؤخذ بعين الأعتبار الحاجات الأقتصادية للمنطقة في تطوير آليات تؤدي الى تكامل في السياسات الأقتصادية وفي الطاقة بما يفتح الأبواب نحو تنمية المنطقة[١١].

أن الظروف الدولية الجديدة وحركة توحيد السوق العالمية مهدت الطريق لزوال عصر الدولة القومية وظهور الدولة الأقليمية بحيث تشكل كل دولة اقليمية قوة اقتصادية وسياسية واجتماعية جديدة تستطيع التفاعل مع حركة التطور العالمية وبالتالي لاتوجد أسس علمية أو تاريخية أو فكرية للأندماجات وأنما تقوم حاليا على اساس الجغرافية والأقليم الجغرافي[١٢]، بيد أن مثل هذا الرأي لايتوافق مع مصالح القوى

---

[10] Sohrab Shahabi and Farideh Farhi : " Security Considerations and Iranian Foreign Policy " The Iranian Journal of International Affairs, Vol VII No1, spring 1995, PP. 100-101.

[11] Ibid .P. 101 for more details See. PP. 97-100.

[12] د. علي كنعان " الأقليمية الجديدة والمفتوحة . الأوسطية والمتوسطية " بحث في كتاب الدولة الوطنية وتحديات العولمة في الوطن العربي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ص٧٢

الأجتماعية فلكل مجموعة مصالح قد تتعارض مع تكتل أو تتوافق معه وأن هذه القوى تتدرج في أربعة مجموعات[13].

١. مجموعة رأس المال العيني ويقصد به الصناعيون والحرفيون والصناعات الصغيرة ففي الوقت الذي تؤيد التكتلات الأقليمية لأنها توسع السوق أمام المنتجات الوطنية الاّ انها لاتؤيد العولمة نظرا لتعرضها الى منافسة شديدة من قبل الشركات الكبرى في دول اخرى[14].

٢. مجموعة رأس المال المالي . لقد ارتفع حجم الأرباح في الأسواق المالية وفي القطاع المصرفي والتأميني ، فقد أكتملت ماتسمى استقلالية المجموعات المالية، وبدأت تشق طريقها الى الدول النامية بحثا عن الأرباح المرتفعة حيث بلغت التدفقات عام ١٩٩٦ حوالي ٢٣٥ مليار دولار وفي عام ٢٠٠٠ أصبحت ٧٥٠ مليار دولار وهي آخذة في النمو[15]، ويسعى أصحاب هذه الرساميل لأزالة جميع القيود والعقبات التي تقف في وجه حركة الرساميل، وبذلك فأنهم يؤيدون التكتلات الأقليمية وتوحيد السوق العالمية بغض النظر عما سيطرأ على حالة الدول القومية والأقتصاد القومي.

٣. الدول والمجموعات السياسية. تعتبر الدولة السلطة السياسية العليا وهي تمثل مصالح محددة لبعض الفئات والشرائح السياسية والأقتصادية والأجتماعية، وتعتبر الأداة الفاعلة في انجاز تكتل ما أو عدم الأنضمام لهذا التكتل أو ذاك، لكن ضغط الجماعات الأقتصادية قد يسرع في أو يخفف من حدة هذه الأندماجات، كما أن المصالح الوطنية تتعارض فيما بينها عند الأنضمام لكتلة ما، وقد تتجاوب هذه القوى وسوف تسيطر في النهاية مصالح الأقوى ،أي مصالح رأس المال المالي والشركات الكبرى في توحيد الأسواق، أما قوى المعارضة فعليها أن تؤخر أو تعيق أنجاز التكتلات والأندماجات من خلال

---

13 المصدر نفسه.

14 بلغت أصول ٥٠٠ شركة الأولى في العالم حوالي ٣٢،٣ تريليون دولار أمريكي ، وارباحها حوالي ١١،٤ تريليون دولار وأغلب هذه الشركات لكل من المانيا، الولايات المتحدة الأمريكية ، اليابان، فرنساوبريطانيا وهي التي تسيطر على الصناعة العالمية للمزيد من التفاصيل أنظر:منير الحميش، أوراق الأقتصاد السياسي اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٩٩ ص٢١٠-٢١٣

15 ادارة أبحاث صندوق النقد الدولي ، استمرار تدفق رؤوس الأموال وهجمات المضاربة على العملة ، مجلة التمويل والتنمية ، عدد ٤ لسنة ١٩٩٧ ص٨

اجراءات وترتيبات تحد من هيمنة الوضع الدولي الناشئ عن (انفراد الولايات المتحدة الأمريكية) من خلال أعاقة ستراتيجيتها التطفلية أو الأقتحامية في أغلب مناطق العالم وعلى الأخص منطقة الشرق الأوسط والمتمثلة في فرض ما يسمى مشروع الشرق الأوسط الكبير[١٦].

أن الترتيبات المتاحة في المنطقة يمكن ايجازها بما يأتي:-

١. جامعة الدول العربية، وهي منظمة أقليمية يوضح ميثاقها والأتفاقيات اللاحقة له بأنها منظمة تهدف الى توحيد السياسات للدول العربية، بيد أنها فشلت في تأمين الأحتياجات الأمنية للدول المرتبطة بها لعدة اسباب من أهمها التباين الأقتصادي الشديد بين دولها، وسيادة نزعة الهيمنة بينها وأرتباط العناصر المؤثرة فيها ماليا وعسكريا وأقتصاديا مع النظام الدولي المعاصر وعلى الأخص الولايات المتحدة الأمريكية، لذا فأن هذه المنظمة لم تستطع أن تكون كتلة أقليمية أو قومية مؤثرة في السياسة الدولية على الرغم من أمتلاكها لمقومات القوة، لأنها دول منكشفة أمنيا واقتصادها مرهون لدى القوى المالية والأقتصادية الكبرى في العالم ، فضلا عن كونها أدوات منفذة للسياسة الأمريكية ومرددة لصداها، ولعل موقفها من أحتلال العراق والعدوان الأسرائيلي على لبنان يوم ٢٠٠٦/٧/١٢ يؤيد ماذهبنا اليه[١٧].

٢. مجلس التعاون الخليجي، أن هذه المنظمة هي منظمة شبه أقليمية تضم ست دول عربية تتميز بثرائها وذات أنظمة ملكية تحتكر السلطة والثروة، وتتطابق مواقفها من النظام الدولي المعاصر، لذا فأنها بالأضافة الى تبعيتها الأقتصادية والمالية للغرب ارتبطت بأتفاقيات أمنية وعسكرية أدت الى تسليم الملف الأمني في المنطقة بيد الغرب، خلافا للغاية التي أنشئ من اجلها المجلس بالأساس ليكون المظلة الأمنية لأعضائه[١٨]، فقد استقدمت الجيوش والأساطيل الغربية ،فضلا عن احدى دولها(قطر) تستضيف مركز القيادة والسيطرة لعمليات

---

[16] Copmparate with : Kaveh Afrasiabi " Iran and the Greater Middle East Initiative " The Iranian Journal of International Affairs , Vol XVII No.23 Summer fall 2004>PP255-287.

[17] للمزيد من التفصيلات بصدد بعض الجوانب المهمة في عمل جامعة الدول العربية . انظر: د. محمد لبيب شقير ، الحدة الأقتصادية العربية تجاربها وتوقعاتها مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى أيار ١٩٨٦ بجزئين .

[18] محمد عباس ناجي " الدور الأمني في الخليج – رؤية مستقبلية " جريدة عمان العمانية ١٨ تموز ٢٠٠٦

الجيوش الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط (قاعدة السيلية) التي لاتسيطر عليها الحكومة القطرية، كما أن الدولة القائدة في المجلس (المملكة العربية السعودية) ذات المصالح المتشابكة والمعقدة مع الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر عرّاب الهيمنة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، ولها منطلقات مذهبية متطرفة (الوهابية) تحاول نشرها بوسائل وأساليب عديدة في مقدمتها نقد المذاهب الأسلامية الأخرى وعدم التردد أحيانا في تكفيرها وتبرير التعاون مع أعداء الأسلام، ولعل موقفها من العدوان الأسرائيلي الأخير على لبنان وأتهام حزب الله اللبناني بأثارة العدوان والتسبب فيه[١٩]، وكذلك الموقف من الأحتلال الأمريكي للعراق ، ودورها في أشاعة الأرهاب، وأشاعة الخوف من قيام هلال شيعي يضم ايران والعراق وسوري وشيعة لبنان دون الألتفات الى التأكيدات المستمرة من تلك الأطراف بأن لاوجود لمثل هذا الهلال خارج القمر الأسلامي[٢٠]. وعلى الرغم من أن العلاقات البينية شهدت توترات عديدة أدت الى نمو مخاوف الدول الصغيرة من أحتمال أبتلاعها من الشقيق الأكبر (السعودية وقطر)[٢١] أو بسبب مشاكل حدودية (البحرين وقطر) أو مشاكل ناجمة عن التنافس للعب دور المركز التجاري والأقتصادي الرئيس (الأمارات والكويت) مما أدى الى تفضيل التعامل مع حليف من خارج المنطقة أثبت قدرته في المحافظة على الأنظمة السياسية القائمة بعد غزو نظام صدام للكويت في ٢آب١٩٩٠، والغاء دور العراق في التأثير على السلوك السياسي لدول المنطقة بعد أن أضحى من أضعف دول المنطقة ومهدد بالتقسيم والحرب الأهلية أثر الأحتلال الأمريكي، ولهذا أقدمت دول مجلس التعاون على تمتين علاقاتها بالأجنبي وأثبات توجهاتها نحوه من خلال اقامة علاقات علنية وأخرى سرية مع (اسرائيل) أكدتها الأتفاقيات التجارية المباشرة وغير المباشرة والعلاقات الدبلوماسية وتنسيق المواقف من خلال الأتصالات المباشرة التي أعلن عنها رئيس الوزراء [illegible]ائيلي بعد العدوان على لبنان يوم ٢٠٠٦/٧/١٢، كما أن انخراط دول المجلس في مبادرة الشرق الأوسط الكبير من خلال أعادة هيكلة اقتصاداتها وفقا لمتطلبات الوضع الدولي الجديد، وتلميع صورة أنظمتها

19 تصريحات الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي الى وسائل الأعلام يوم ١٣ تموز ٢٠٠٦ ومابعدها .

20 مقابلة مع السيد نبيه بري رئيس مجلس النواب اللبناني مع قناة العربية الفضائية يوم ٢٠٠٦/٧/٢٦

21 عادل سيد أحمد: " أنابيب الطاقة ..الجغرافية تقود السياسة "مجلة السياسة الدولية المصرية – العدد ١٦٤ أبريل ٢٠٠٦ ص٩٢

الأستبدادية بأجراء أصلاحات ديمقراطية شكلية لم تمس جوهر النظم السياسية القائمة.

٣. دول مستقلة، وتمثلها في المرحلة الراهنة أيران وسوريا، ففي الوقت الذي تتمتع فيه ايران بأغلب مقومات القوة المادية (اقتصادية، بشرية، تقنية، عسكرية ودينية) الا أنها تفتقر الى القدرة في التأثير على السلوك السياسي للآخرين، الا أنها بدأت تمتلك هذه القدرة مؤخرا من خلال الأصرار على التمسك بخياراتها الوطنية وأستقلالية قرارها وموقفها من قضايا المنطقة والعالم، وفي المقدمة منها موقفها الداعم للقضية الفلسطينية وأستقرار العراق ودعم المقاومة الأسلامية والوطنية في لبنان وفلسطين ودعمها ماديا ومعنويا، الا ان المشكلة التي تواجهها ايران تتمثل في تمسك الدول العربية بالمفهوم العرفي القومي في العلاقات الأقليمية، والعداء غير المبرر للمذهب الشيعي من الأطراف السنية وعلى الأخص مصر والسعودية، وأرتباط دول المنطقة بالأستراتيجية الأمريكية وسياستها في المنطقة والعالم، وقناعة أطراف عديدة في النظام الأقليمي العربي بأن ايران هي الخطر الأول عليها وليست أمريكا وأسرائيل[٢٢]. أما سوريا فأنها تحاول أن تستفيد من أمكانات أيران الأقتصادية والسياسية والأجتماعية لصالح نهجها الأستقلالي بيد أنها لاتذهب في هذا الشوط بعيدا خشية أن تهاجمها اسرائيل وأمريكا التي أصبحت جارة لها بعد أحتلال العراق، مما وضعها بين فكي كماشة اسرائيلية امريكية، حيث أخذت أمريكا بالمجاهرة بعدائها لسوريا بحجة أنها ترعى الأرهاب وتصدره للعراق فضلا عن كونها تمثل الضلع الثاني في محور الشر حسب الرؤية الأمريكية، كما أن ضعف القدرات الأقتصادية والعسكرية يضيف بعدا آخر الى تردد السوريين في المضي اشواطا اضافية في تعاونها الأمني مع ايران.

أن هاتين الدولتين تمثلان نواة حقيقية لما ينبغي أن تكون عليه العلاقات المتكافئة والتكاملية بما يؤمن المصالح الجوهرية لأطرافها، والتي من الممكن أن تؤدي الى ترتيبات أمنية تعاونية الا أن العامل الخارجي لايسمح بمثل هذا التعاون وربما يعتبره خطرا على الأستراتيجية المعتمدة في المنطقة والمتمثلة بمشروع الشرق الأوسط الكبير الذي يضم اسرائيل وتركيا والدول العربية بهدف أعادة ترتيب المنطقة أقتصاديا وسياسيا وجعل اسرائيل الجسم الغريب في المنطقة البلد القائد لمجموعة الدول تلك .

---

[22] قارن مع د. خليل حسين: " العلاقات الأيرانية الأمريكية ماضيا ومستقبلا " – ميدل ايست أون لاين ٧/تموز/٢٠٠٦

الفصل الثاني

الترتيبات الأمنية المحتملة على ضوء الملف النووي الأيراني

مما لاريب فيه أن التنبؤ بالسلوك السياسي للدول أمر في غاية الصعوبة الا انه ليس مستحيلا اذ ان استقراء تاريخ العلاقات الدولية ورصد التحديات التي تواجهها المنطقة قد تؤدي الى استنتاجات نطرحها بشكل خيارات متاحة أمام صناع القرار.

لقد أثار البرنامج النووي السلمي الأيراني ضجة مفتعلة لدى الدوائر الغربية وهذا أمر يرتبط بالأستراتيجية الأمريكية في المنطقة، فمنذ قيام الثورة الأسلامية عام ١٩٧٩ أثيرت أمامه عدة مشكلات تهدف الى تعطيل مسيرة الثورة، ومنعها من تحقيق اهدافها المعلنة والمتمثلة ببناء ايران ديمقراطية وفقا للشريعة الأسلامية السمحاء، وبناء دولة قوية اقتصاديا وعسكريا لغرض الدفاع عن مصالحها الأساسية. أن جدية وصدق قيادة الثورة الأسلامية تجسدت من خلال بناء الدولة على كافة الصعد على الرغم من حرب السنوات الثمان مع العراق، والتي دعمت الولايات المتحدة ودول الخليج العراق فيها بالمال والمعلومات الأستخبارية وتكنلوجيا السلاح، فضلا عن تأييد النظام العربي كله بأستثناءسوريا وليبيا اللتين أتخذتا موقفا مساندا لايران.

وكجزء من برنامج النهوض والتقدم ولجت ايران ميدان الأبحاث والتجارب العلمية الخاصة بالأستخدام السلمي للطاقة النووية، وصحيح أن لأيران برنامجا نوويا قبل أندلاع الثورة الأسلامية وكان مدعوما من قبل الأمريكان والغرب في عهد النظام الشاهنشاهي، بيد ان هذا البرنامج جرى تسريعه وتوسيع آفاقه منذ الثمانينات من خلال الأعتماد على الخبرة الأجنبية في توريد ونصب المعدات اللازمة، لكن استمرار العمل في تهيئة القاعدة العلمية والتقنية قد جرى تطويره بالأعتماد على الأمكانات الذاتية وهذا أمر طبيعي في ظل النظام الدولي المعاصر القائم على الأحتفاظ بالتفوق الأقتصادي وأستغلال التقنيات الحديثة لتعويض الأنفاق على التطوير والبحوث والذي بلغ في عام ٢٠٠٤ أكثر من ٢٩٠ مليار دولار بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية لوحدها[٢٣]، بالأضافة الى ضغوط المجمع الصناعي العسكري الذي لايتورع عن تحطيم المنافسين، لذا فأنها تسعى جاهدة لمنع ظهور أي منافس لها وعلى الأخص الدول النامية لأنها تريدها أسواقا لمنتجاتها، وأن ميدان الطاقة النووية وأستخداماتها المتعددة في قطاعات الكهرباء والطب والهندسة والردع الأستراتيجي (التسلح) من المحرمات التي لاينبغي تجاوزها وأنما بالأمكان الأستفادة من تطبيقاتها ومنتجاتها النهائية وفقا للأستراتيجية الأمريكية والأوربية.

---

23 آدام سيجال : " هل بدأت أمريكا تفقد تفوقها التكنلوجي ؟ " ترجمة محمد علي ثابت – مجلة الثقافة العالمية – العدد ١٣٠ مايو – يونيو ٢٠٠٥ – ص٥٠-٦١.

أن تنامي البرنامج النووي الأيراني قد أخذ خطا بيانيا متصاعدا، فبعد أن استكملت أيران بناء القاعدة المادية والبشرية اللازمة للتخلص من الضغوط الأمريكية والأوربية في ميدان الطاقة النووية أعلنت قدرتها الذاتية على تخصيب اليورانيوم وأكمالها حلقة مهمة من حلقات تشغيل دورة الوقود النووية، وفي الوقت الذي أثار ها الأعلان مخاوف الولايات المتحدة غير المبررة وتبعتها الدول الأوربية، فأن هذه الأطراف سعت الى تسوية الموضوع عبر تحرك دبلوماسي لم يخل من تهديدات مهينة لأيران، كذلك فأن أطرافا أقليمية مثل اسرائيل والدول الخليجية أعلنت مواقف تابعة للموقف الأمريكي، وأن تميزت بالنسبة لأسرائيل بالتشديد على عدم استبعاد استخدام القوة العسكرية لمنع ايران من الأستمرار في برنامجها النووي لأنها (اسرائيل) تريد الأحتفاظ بتفوقها الأقتصادي والعلمي والعسكري والتقني في المنطقة بعد أن قطعت أشواطا بعيدة في برنامجها النووي الذي تمكنت من خلاله من امتلاك أكثر من ٢٠٠ رأس نووى ووسائل قادرة على ايصالها بالطائرات الحديثة والصواريخ متوسطة وبعيدة المدى.

أن المعارضة التي جوبه بها البرنامج النووي الأيراني لم تفت في عضد القيادة الأيرانية التي أكدت دائما على أن برنامجها مخصص للأغراض السلمية وليست لديها النية في التحول الى الأستخدام العسكري وأنها مستعدة للتفاوض والتعاون بشأنه مع جميع الأطراف الدولية بأستقلالية ودون شروط أو املاءات مسبقة. أن هذا الموقف يستند الى الأعتبارات الآتية[٢٤]:-

١. الخبرة التأريخية في التعامل مع الأزمات وأدارتها وفقا لمصالحها الجوهرية.
٢. مساندة الرأي العام الأيراني لحكومته واستعداده للتصدي لأي عدوان ينجم عن ذلك والذي يمثل عامل الردع الأساسي.
٣. قدرة ايران على الدخول في سباق تسلح اذا ماجبرت على مثل هذا الخيار لاتستطيع الدول الأخرى في المنطقة تدبير موارده البشرية والمادية بما في ذلك اسرائيل والسعودية.
٤. قدرة ايران المؤكدة على توجيه ضربات قوية للأمريكان والأسرائيليين أن أقدمتا على مهاجمة ايران، وأدراكهما بأن ضرب منشآت ايران النووية ليست نزهة سهلة.
٥. بعثرة المحطات والمنشآت النووية في أماكن كثيرة أغلبها تحت الأرض مما يصعب ضربها الا بتعليمات معقدة وأمدادات لوجستية باهظة التكاليف.

---

24 قارن مع أحمد السيد تركي : " أبعاد أحالة الملف النووي الأيراني الى مجلس الأمن " مجلة السياسة الدولية المصرية العدد ١٦٤- ابريل ٢٠٠٦- ص١٥٥-١٥٦.

وبناء على ماتقدم فأن الترتيبات الأمنية المحتملة يمكن أن تلخص بما يأتي من خلال الخيارات الأستراتيجية التي يمكن أعتمادها:

١. خيار التصعيد: في حالة فشل المساعي الدبلوماسية، فأن أمام ايران فرصة لأن تصعد وتيرة برنامجها النووي وتمضي فيه قدما دون الألتفات الى التهديدات الأمريكية الأسرائيلية سواء من خلال مجلس الأمن أو بشكل منفرد كما فعلت مع العراق. ان مايتيح لأيران انتهاج مثل هذا السلوك يستند الى مايأتي[٢٥]:

أ. ان لدى أيران جيشا عقائديا يصل تعداده الى نصف مليون جندي فضلا عن امكانية حشد عشرة ملايين اضافية من الحرس الثوري والمتطوعين.

ب. التسليح المتطور للجيش الأيراني المدعم بسلسلة صواريخ شهاب المتوسطة والبعيدة المدى والقادرة على الوصول الى أهداف في داخل الولايات المتحدة ، والغواصات القادرة على العمل في مياه الخليج بالأضافة الى امكانياتها الصناعية في جميع ميادين التسلح وعلى الأخص القوات البحرية.

ج. سيطرة أيران على مضيق هرمز الذي يمر فيه ٤٠% من النفط العالمي.

د. علاقاتها الأقتصادية مع روسيا والصين والهند .

ه. لأيران اصدقاء في العديد من الدول مستعدين للدفاع عنها مثل لبنان الذي أثبت فيها حزب الله قدرته العالية على توجيه ضربات قوية لأسرائيل ميدانيا واستراتيجيا ،ودحر الجيش الأسرائيلي على الرغم من التفوق التقني الواضح والدعم العسكري والسياسي من قبل الغرب بقيادة أمريكا، الا أنه لم يتمكن من الثبات في مثلث صغير على الحدود في منطقة مروان الراس بنت جبيل عيترون[٢٦] ، كذلك فأن اصدقاء ايران الآخرين في العراق وأفغانستان وباكستان واذربيجان سوف لن يقفوا مكتوفي الأيدي اذا ماتعرضت ايران لأي عدوان أمريكي–اسرائيلي–غربي محتمل .

و. الموقف الدولي الراهن والناجم عن غرق الولايات المتحدة في المستنقع العراقي وتراجع الولايات المتحدة وبريطانيا عن موقفهما المتشدد من ايران والمتمثل في عدم القبول بأقل من أزالة النظام السياسي الأيراني[٢٧].

---

[25] المصدر نفسه – ص١٥٧ وبتفصيلات أكثر

[26] أنسحب الأسرائيليون من هذه المنطقة التي لايتعدى قطرها خمسة كيلو مترات بعد أن تكبدوا خسائر فادحة فيها بالأرواح والمعدات ولم يتمكنوا من البقاء فيها لثلاثة أيام فقط من ٢٤/٧-٢٧/٦/٢٠٠٦م.

[27] المؤتمر الصحفي المشترك للرئيس الأمريكي بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير مساء يوم ٢٩/٧/٢٠٠٦.

٢. خيار الدبلوماسية والتهدئة أكدت ايران على ان هدفها هو تحقيق مصالحها الجوهرية من خلال الأستغلال السلمي للطاقة النووية، لذا فأنها لم ترفض أية مبادرة أو حلاً غير مشروط، وحتى تلك التي تضمنت شروطا مجحفة مثل المبادرة الأوربية، اذ انها عبرت عن تعاملها المرن مع جميع المقترحات البناءة لحل المشاكل التي افتعلتها الأدارة الأمريكية، بيد أن مثل هذا الخيار يرتبط بأرادة أطراف أخرى لادخل لأيران في قراراتها، ولكن بأمكانها التأثير في مواقفها حيث من الممكن استغلال العلاقات القوية مع كل من روسيا والصين والهند والتي لايمكن الركون اليها تماما في مثل هذه الأمور" فمن المحتمل ان تقدم روسيا والصين تنازلات للجانب الأمريكي اذا مارأتا ان مصالحهما قد تتعرض للأضرار من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن الأخيرة قد نجحت في ابرام اتفاق نووي مع الهند خلال زيارة بوش لها مؤخرا"[٢٨]، كما يمكن الأستفادة من مواقف الدول الأوربية التي تعاني من مضاعفات الأزمات التي خلفها احتلال امريكا للعراق على مجمل الأستقرار والأمن العالمي والأقليمي، وبهذا الصدد يمكن تفعيل دور اوروبا مرة اخرى بأبداء نوع من المرونة تجاه المقترحات الأوروبية، فضلا عن التلويح بالأتفاقيات الأقتصاديةوبقدرة الأقتصاد الأيراني على التفاعل مع السوق العالمية ايجابيا، وأن تفعيل مشاريع تصدير النفط والغاز الأيرانيين بواسطة الأنابيب الى اوروبا يمثل أحد عوامل الجذب للموقف الأوروبي من أزمة البرنامج النووي الأيراني وبما يحد من الهيمنة الأمريكية على سوق الطاقة العالمي، وتعزيز فرص بناء الثقة عبر الدور الروسي في الأزمة.

أن خيار التهدئة والدبلوماسية بالأمكان تدعيمه من خلال دول مجلس التعاون الخليجي والدول العربية والأسلامية الأخرى، لكن مواقف هذه الدول وسلوكها السياسي مرتبط الى حد كبير بالأستراتيجية الأمريكية، وعلى الرغم من ذلك الاّ ان الأستمرار بفضح نوايا وأهداف المشروع الأمريكي الذي تسوق له وزيرة الخارجية الأمريكية غوندليزا رايس والذي عبرت عنه بصراحة في مؤتمر روما حول لبنان يوم ٢٠٠٦/٧/٢٥ يساعد الى حد ما في مساندة الجهود الدبلوماسية لحل الأزمة ويقلل من فرص الولايات المتحدة الأمريكية واسرائيل في الأعتداء على ايران، ويجعل من تهديداتهما ضربا من الحرب النفسية التي خبرتها ايران جيدا، اذ ان اعطاء اسرائيل دور القيادة في مشروع الشرق الأوسط الكبير لايحظى بتأييد شعوب المنطقة التي تؤمن بأن اسرائيل جسم غريب يرغب في التوسع عاموديا وأفقيا في المنطقة على الرغم من انخراط دول مهمة في هذا المشروع مثل مصر ودول شمال افريقيا ومجلس

---

[28] أحمد السيد تركي – مصدر سبق ذكره.

التعاون الخليجي حفاظا على كراسي الحكم التي تملأها من دون استحقاق[٢٩]، كذلك من الممكن استخدام العامل العراقي كورقة ضغط على الأمريكان خصوصا وأن اصدقاء ايران هم الذين يتولون زمام الحكم بعد الأنتخابات الأخيرة وهو الأمر الذي أثار مخاوف امريكا التي لاتريد حكومات مستقلة حتى وان جاءت بالطريقة الديمقراطية التي يروج لها الأمريكان ويتفاخرون بأنهم جلبوها للعراق، ان مخاوف امريكا من صعود الشيعة للحكم في العراق يتركز في ثلاثة أمور هي[٣٠]:

أ. أن الشيعة الذين صعدوا للحكم في العراق تمثلهم احزاب سياسية لها علاقات ممتازة مع ايران وعلى الأخص الحزبين الشيعيين الرئيسين حزب الدعوة الأسلامية والمجلس الأعلى للثورة الأسلامية فضلا عن التيار الصدري ،وبالأمكان أن يكونوا وسطاء لحل الأزمة مع الولايات المتحدة الأمريكية التي تريد الخروج من المأزق الذي حشرت نفسها فيه بأحتلالها العراق.

ب. ان الشيعة سيقعون في المدى البعيد تحت نفوذ وسيطرة الأيرانيين ويصبحون دائرين في فلكهم.

ج. أن حكومة شيعية لاتستطيع أن تجمع العراقيين معا وأنما ستسعى الى ثلاثة نظم حاكمة، اهمها اقليم الجنوب والفرات الأوسط الذي يضم أغلبية شيعية تسكن تسعة محافظات وتحتوي على اكثر من ثلثي نفط العراق وسكانه فضلا عن أهم مراقد الأئمة المقدسة لدى المسلمين.

أن هذه المخاوف تهدد استراتيجية أمريكا في المنطقة لذا فأنها تبحث عن توازن بين القوتين العراقية والأيرانية لاتوافق بينهما لأنها تخشى من بروز قوة ايرانية بلا رادع في الأمد الطويل، ومن هنايغدو الحل الدبلوماسي هو الأفضل اذ ان اي عمل عسكري ضد ايران سيورطها في مأزق خطيرة قد تبعدها تماما من الشرق الأوسط بسبب الأنحياز العراقي المأمول لصالح ايران، لكن العمل الدبلوماسي المستند الى احتمالات قيام تحالف ايراني-عراقي سيؤدي الى تنمية ادراك امريكي بأن لاطريق امامهم سوى الحل الدبلوماسي وليس في أي خيار آخر.

٣. خيار التجميد والقبول بمشروع الشرق الأوسط الكبير، ويتمثل في أن تقدم ايران طواعية على التخلي عن برنامجها النووي كما فعلت ليبيا، وهذا الخيار يعني

---

[29] للمزيد من التفصيلات بصدد مشروع الشرق الأوسط الكبير انظر : د. علي كنعان – مصدر سبق ذكره ص٦٩-٩٨ ومصطفى العبد الله – العمل العربي المشترك والمشاريع الشرق أوسطية- بيروت ١٩٩٧ ، محمد الأطرش :" المشروعان الأوسطي والمتوسطي والوطن العربي " مجلة المستقبل العربي ، العدد ٢١٠ لعام ١٩٩٦.

[30] جورج فريدمان : " مستقبل العراق ، البحث عن توازن تجاه أيران " مجلة المستقبل العربي العدد ٣١٤ أبريل٢٠٠٥.

الأنتحار بالنسبة للقيادة الأيرانية اذ انه سيصطدم بالرأي العام الأيراني الذي اعطى تأييده المطلق لقيادته وكان من بين أهم الأسباب لأنتخاب الرئيس أحمدي نجاد، وسيؤدي الى خيبة أمل كبيرة لدى أصدقاء ايران الذين يستهدفهم مشروع الشرق الأوسط الكبير في المقام الأول أذ أنه يعني الأذعان للشروط الأمريكية والغربية الماسة بكرامة المسلمين، كما أن القبول بالمشروع يعني التسليم بقيادة اسرائيل للمنطقة وتسخير الثروات والأمكانات الأقتصادية والمالية الهائلة لخدمة الأستراتيجية الأمريكية[31].

٤. خيار التعاون المرن، ويتمثل في أختيار بعض آليات التعاون وعقد الأتفاقيات بشأنه، وعلى سبيل المثال لاالحصر عقد اتفاقيات للتعاون الأقتصادي مع دول المنطقة وعلى الأخص الدول المؤثرة فيه والتي بأمس الحاجة الى الأستثمارات واليد العاملة مثل مصر ودول مجلس التعاون الخليجي ودول شمال افريقيا، لكن ايجاد ترتيبات تعاون أمني مع دول الخليج أمر تكتنفه العديد من الصعوبات أذ ان هذه الدول تعتمد على الوجود العسكري الأمريكي كمظلة لحماية امنها، وهذا مرتبط بالأستراتيجية الأمريكية القائمة على الأستجابة لتهديدات لاعلاقة لها بدول المجلس والتي تتلخص بتأمين وصول دائم وأنتشار عرضي يضمن قدرة دائمة على الدخول والوصول الى مكان الأزمة، كما وأن دول المجلس ذهبت أكثر من ذلك بعد مؤتمر الدوحة "تحولات الناتو والأمن في الخليج" في ابريل ٢٠٠٤ ومؤتمر اسطنبول يومي ٢٨ و٢٩ حزيران ٢٠٠٤ والذين ربطا امن دول المجلس مع مشروع الشرق الأوسط الكبير والذي يضم بالأضافة اليها بعض الدول العربية وتركيا واسرائيل[32] وهذا يعني ان هذه الدول لاترى ايران شريكا في الترتيبات الأمنية فراحت تفتش عن امنها في الترتيبات الخارجية التي تثير مخاوف ايران، وهذا ليس من مصلحة تلك الدول وانما التزاما بالأستراتيجية الأمريكية الرامية الى أحتواء ايران وأجهاض تجربتها الأسلامية المستقلة، ومن هنا يفترض أن تسعى القيادة الأيرانية الى تطمين مخاوف تلك الدول وبناء جسور الثقة المتبادلة، ولكن يبدو أن هذا الأمر بعيد المنال بيد أنه ليس مستحيلا لأعتبارات عديدة لامجال لذكرها يقع في مقدمتها الأختلاف المذهبي وأحتواء أي تطور في قدرة أتباع مدرسة أهل بيت النبوة عليهم السلام في بناء قدرة رادعة تستجيب للتهديدات الحقيقية التي تواجهها المنطقة وأهمها الخطر

---

31 حول مساوئ مشروع الشرق الأوسط الكبير أنظر د. علي كنعان- مصدر سبق ذكره ص٨٦-٨٧.

32 للمزيد بصدد سيناريوهات الترتيبات الأمنية لدول مجلس التعاون أنظر : محمد عباس ناجي مصدر سبق ذكره وبصدد المؤتمرين المذكورين أنظر : اسلام أون لاين نت ٢٠٠٥/٢/٤ - أشرف كشك- حوار الناتووالخليج — مصالح متبادلة .. و جريدة الشرق القطرية في ٢٠٠٥/٩/١ — مؤتمر الناتو وأمن الخليج.

الأسرائيلي الأمريكي ومشروع الشرق الأوسط الكبير. كما أن هناك خيارات أخرى ضمن هذا الخيار الأساسي يتمثل في ايجاد آليات تعاون واسعة مع دول وسط آسيا الأسلامية، والهند، والباكستان ودول جنوب شرق آسيا وهذا يزود ايران بعوامل ضغط مؤثرة في السياسة الأمريكية، ويساعد تلك الدول على التخفيف من الضغوط الأمريكية ، وبالأمكان أن يتحقق ذلك من خلال:

أ. أيجاد مراكز بحث علمية ومتخصصة لتنمية الحوار مع الدول العربية والأسلامية يجري التركيز فيها على المشتركات الأستراتيجية وذات النفع المتبادل مما يحقق ثوابت اسلامية في العلاقات الدولية.

ب. تشجيع عقد الندوات المشتركة وبثها عبر وسائل الأعلام المختلفة تعتمد على اشاعة المحبة والأخوة الأسلامية ونبذ العنف والأرهاب.

ج. ايجاد رؤية مشتركة لموضوع الأرهاب وعقد المؤتمرات الوطنية والأقليمية لمكافحته لتنقية صورة المقاومة الوطنية والأسلامية من الأساليب التي انتهجتها الجماعات المتطرفة بأسم الدين.

د. الأبتعاد في وسائل الأعلام عن طرح أمور الخلافات المذهبية الأسلامية والتأكيد على وحدة الأسلام والمسلمين ومنطلقاتهم الأساسية، وترك الأمور الفقهية الخلافية للمراكز الدينية وحلقات الدرس والجامعات ذات الأختصاص.

الخاتمة

أنصب الجهد في هذه الورقة على محاولة الأجابة عن الأسئلة المركزية التي طرحت في مقدمتها، وكان من المفترض أن نعطي تصورات مستقبلية لها نوع من الثبات النسبي، الاّ أن العدوان الأسرائيلي على لبنان وما كشفه من انحياز دول المنطقة الى جانب المعتدي وذلك لكونهم قد أنغمسوا في الترتيب الأمني الذي تريده الولايات المتحدة للمنطقة والمتمثل بمشروع الشرق الأوسط الكبير والذي يمثل العدوان الأسرائيلي أحدى أهم حلقاته، الاّ أن هذا الأمر لم يمنعنا من عرض بعض مانتصوره من ترتيبات أمنية فردية أو جماعية، وأن مايمكن أن نستنتجه هنا هو أن أمن المنطقة يمر بأحرج منعطفاته، أذ أن التهديد لم يعد ينصرف الى المصالح وأنما أصبح يهدد الوجود، ولكي تمر المنطقة عبر هذا المنعطف على دولها شعوبا وحكومات أن تعي الخطر بعيدا عن منطق الوصاية والتصرف نيابة عن الآخرين أو باتباع سياسات أنانية تضر بدول المنطقة، أن مانرصده من سلوك أقليمي لاينبئ بأن الدول راغبة في أيجاد ترتيبات أمنية مستقلة عن هيمنة ونفوذ العامل الخارجي، وبهذا فأن الخيار المتاح هو أمّا أن تنخرط دول المنطقة في مشروع الشرق الأوسط الكبير وفي هذا تخلّ عن المبادئ العظيمة التي يؤمن بها المسلمون وفي مقدمتهم الجمهورية الأسلامية في أيران، أو أن تلجأ الى ايجاد ترتيبات أمنية بين ايران والعراق وسوريا من خلال شراكة اقتصادية ومشاريع تنموية كبيرة وسريعة وتكامل أمني واسع النطاق وبنكران ذات لمحاصرة الأرهاب بكل صوره وأشكاله، والعمل على ضبط الحدود وتجفيف منابع الأرهاب والجريمة المنظمة وأشاعة السلام الأجتماعي عن طريق الحوار الهادئ والعقلاني بعيدا عن صيغة وأساليب الوصاية وفكرة الغالب والمهزوم، وأيجاد صيغة للتكامل يمكن من خلالها التغلب على أية قرارات أو أجراءات دولية للمقاطعة أو الحصار أو العدوان العسكري.

الحصار البحري ضد فنزويلا ١٩٠٢-١٩٠٣

"دراسة وثائقية في العلاقات البريطانية-الألمانية-الامريكية"

الاستاذ الدكتور
يقظان سعدون العامر(*)

الاستاذ المساعد الدكتور
عبد الامير محسن جبار(**)

المقدمة

شهد عقد التسعينات من القرن التاسع عشرسياسة التفاهم والعمل المشترك بين بريطانيا والمانيا. الا ان سوء التفاهم الذي حدث بينهما بسبب اتفاقية اليانغتسي في الصين التي وقعت في تشرين الاول ١٩٠٠[1] أثر في العلاقات بين الدولتين، وجعل المسؤولين البريطانين يبتعدون عن برلين. وأشار في نفس الوقت وبوضوح الى نهاية هذه السياسة. لكن المسؤولين في كلا البلدين أعادوا هذه السياسة في نهاية عام ١٩٠٢، عندما تعاملوا مع فنزويلا. فكيف كانت النتيجة؟ هل اتسمت سياسة الدولتين تجاه هذه القضية بالأنسجام أو بأختلاف الاهداف ؟ هل ان نتائج الاعمال المشتركة السابقة بينهما أثرت في تعاملهما مع هذه القضية؟ ما هو موقف الولايات المتحدة الامريكية من التعاون البريطاني-الالماني في فنزويلا؟ وهل أثر هذا الموقف في انسحاب بريطانيا من تعاونها مع المانيا؟ يحاول هذا البحث الاجابة عن هذه الاسئلة.

سببت الحرب الاهلية التي اندلعت في فنزويلا خلال الاعوام ١٨٩٨-١٩٠٠ خسائر فادحة في الاموال والممتلكات العائدة للمستوطنين الالمان والبريطانيين والامريكيين والايطاليين. وجرت في شتاء عام ١٩٠١- ١٩٠٢ مباحثات دبلوماسية بين الحكومتين الالمانية والبريطانية للحصول على تعويضات عن هذه الخسائر. وبعد ان نفد صبر الحكومة الالمانية من سلوك الحكومة الفنزويلية الجاف، اذ كانت تتجاهل جميع الاساليب الدبلوماسية، اضطرت الحكومة الالمانية في خريف عام١٩٠١ الى ارسال اسطول حربي الى الموانيء الفنزويلية. وعندما ايقنت ان الولايات المتحدة الامريكية لن تعارض عملية فرض حصارعلى الموانيء الفنزويلية وبان الحكومة البريطانية التي كانت قد اقترحت عليها في تشرين الثاني ١٩٠٢ القيام بعمل مشترك

(*)كلية التربية -ابن رشد-جامعة بغداد.
(**) معاون عميد كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

[1] Langer, W., The Diplomacy of Imperialism (New york, reprinted 1960), pp. 699 – 705

لوقف فنزويلا من مضايقة سفنها ورفضها تعويض تجارها[2]، اعتبرت الحكومة الالمانية بان الوقت قد حان للتنفيذ الفعلي لعملية حصار الموانيء الفنزويلية.

درست وزارة الخارجية الالمانية امكانية فرض حصار على الموانيء الفنزويلية في وقت السلم، وبعد ان درست عدة حالات قامت بها دول اوربية، خلصت الوزارة الى رأي بان المباديء التي تستند عليها عملية فرض الحصار في زمن السلم هي نفسها في زمن الحرب بأستثناء فرق جوهري يتمثل بان السفن التي تفر من الحصار لا تصادر بل تحجز لحين رفع الحصار. وأكدت الوزارة بان الشروط التي تفرض في عملية الحصار في زمن السلم تنطبق ايضا على السفن العائدة للدول المحايدة. رفعت هذه المعلومات الى الكونت فون بيلوف Von Bulow المستشار الالماني (١٩٠٠-١٩٠٩) الذي اقتنع بضرورة الضغط على الحكومة الفنزويلية. ففي رسالته الى الامبراطور الالماني وليم الثاني (١٨٨٨-١٩١٨) في العشرين من كانون الثاني ١٩٠٢ ذكر بيلوف "بان الاحداث التي وقعت في فنزويلا اعادت موضوع دراسة الجانب القانوني والتطبيق الفعلي لفرض حصار على الموانيء الفنزويلية زمن السلم". واوضح المستشار الالماني بان هناك أجراءً اخر يمكن فرضه على الحكومة الفنزويلية يتمثل بفرض رسوم جمركية على الصادرات والواردات الفنزويلية وهي المصدر الوحيد للدخل، وسينجم عن هذا الاجراء مجاعة بين صفوف الشعب الفنزويلي، وهذا يرقى الى اعلان الحرب ضد فنزويلا وهو امر لا يمكن اعتباره ضروريا." وهكذا فان من اهم اجراءات القسر المزمع استخدامها ضد فنزويلا غلق المضايق[الفنزويلية] المسموح به تحت القانون الدولي وذلك عن طريق الحصار السلمي". ومن اجل الحصول على تأييد الامبراطور الالماني فقد اوضح بيلوف بان حكومة الولايات المتحدة لم تتخذ اي موقف ضد فرض حصار على الموانيء الفنزويلية.، وعلى الرغم ان القائم بالاعمال الالماني في واشنطن فون غوادت Von Quadt أخبرها بالأجراء المزمع أتخاذه وأخبرته رداً على ذلك بأنها لا تمانع الان في فرض الحصار على الموانيء الفنزويلية. وأستطرد المستشار الالماني بان الوضع السياسي قد طرأ عليه تغيير يتمثل بان الحكومة البريطانية، التي تطالب هي الاخرى الحكومة الفنزويلية بالأيفاء بمطاليبها، قد المحت بأنها " ربما تدرس، تحت ظروف معينة، القيام بعمل مشترك مع [المانيا] ضد فنزويلا. فضلا عن ذلك أمرت الحكومة الايطالية دي ريفا de Riva ممثلها في كراكاس بان يشارك في الاجراءات التي يقوم بها القائم بالاعمال" الالماني في كراكاس Von Pilgrim Baltazzi الذي كان قد قدم مذكرة الى الحكومة الفنزويلية يطالبها بدفع التعويضات عن الخسائر الالمانية جراء الحرب الأهلية، الا انها

---

[2] **Balfuor, M., The Kaiser and his times, (london ,1964) pp.243 -244.**

ردت عليه " بان الموضوع سيطرح على الكونغرس القادم". أعتبر القائم بالأعمال الالماني هذا الرد غير مرضي ويجب اعتباره محاولة جديدة من الحكومة الفنزويلية للتملص لأنه لا يعرف متى سيعقد الكونغرس بسبب الفوضى السائدة في البلاد". لذلك ألتمس بيلوف الامبراطور الالمانياالموافقة على "فكرة منح الحكومة الفنزويلية مهلة للايفاء بمطاليبنا" وعلى تخويلة "الاتصال بالحكومة البريطانية لغرض القيام بعمل مشترك ضد فنزويلا".ابدى الامبراطور الالماني شكوكه من البريطانيين، حيث علق على رسالة بيلوف:-

"لو ان بأستطاعتنا التأكد ان البريطانيين لن يستخدموا هذه الفرصة لجعل الامريكيين يشكون بنا وبالتالي اضعاف نتيجة زيارة أخي (الى واشنطن). وعلى اي حال يجب عدم القيام بمثل هذه الخطوة لحين أنتهاء الزيارة. ويمكن تزويده بتعليمات ، ربما تحريرية،[للتباحث مع الرئيس] روزفلت عندما يحين الوقت"[3].

وبالفعل كتب بيلوف مذكرة الى الاميرهنري، شقيق الامبراطور وليم الثاني اوضح فيها "بان لا يناقش سموكم الملكي وبمبادرتكم الاحداث في امريكا الجنوبية أو الوسطى. ويجب، من الطبيعي، ان لا يعترف بنوايا المانيا في تلك الاقاليم، واذا أفصح الامريكيون عن قلقهم من افكار المانية خاصة بالاحتلال او تحقيق نفوذ في امريكيا الجنوبية أوالوسطى فيجب نفيها بانها تصورات منافية للعقل، مع الاشارة الى السياسة السلمية التي ينتهجها جلالته [الامبراطور الالماني] والى مهامنا العديدة التي نقوم بها في كافة أنحاء العالم. ولا ضرورة ان ترقى مثل هذه الافكارالساخرة الى طبيعة اعلان هام. فالمانيا ترغب بأن يحل السلام في النصف الغربي من الكرة الارضية وبأن تكون لها علاقات ودية مع الولايات المتحدة"[4].

كان الهدف من زيارة الامير هنري، على حد تعبيرالمستشار الالماني بيلوف " بأنه غير المتوقع منه [الامير هنري] ان يجلب معه معاهدة سياسية أو أتفاقية تجارية او أي شكل من أشكال الامتيازات سواءً اقتصادية او تجارية او اقليمية. فالغاية

---

[3] Bulow to the Emperor william, 20 January, 1902, German Diplomatic Documents 1871- 1914,selected and translated by E.T.S. Dug dle, vol.3 The Growing Antagonism, 1898- 1910, (New york, reprinted, 1969) pp. 160–161 G.D.Dب له وسنرمز., Gooch,G.P,Before the war, studies in Diplomacy, Vol.1, The Grouping of powers (London,1938) p.235.

[4] G.D.D., Vol. III , pp. 161-162; Bulow, Prince Von , Memoris of Prince Bulow, Vol. 1, From Secretary of state to Imperial chancellor 1897-1903, translated from the German by F.A. Voigt (New york,reprinted,1972) pp.(660 - 661).

من رحلته كانت على العموم إرضاء الامريكين وكسب تعاطفهم وإقناعهم بمشاعر القيصر[الالماني] والامة الالمانية تجاه الشعب الامريكي القوي والعظيم كذلك الفائدة المرجوة من الروابط الجيدة بين الامتين الالمانية والامريكية. ولا تفصل الخلافات السياسية بين امريكا والمانيا، بل على العكس، تربطهما مصالح مهمة وعميقة لا تحصى، وتقاليد قديمة تمتد الى ايام فردريك الكبير وواشنطن العظيم ويربطهما ايضا رابطة الدم"[5].

وأوجز بيلوف الامير هنري عن طبيعة الامريكيين ان اي انتقاد للاوضاع الامريكية من غريب يغضب الامريكيين ... [في حين] ان الامريكيين سيصغون بسرور الى كل ما يقوله الامير عن المانيا والقيصر وعن جيشنا وعلومنا وفنوننا"[6]. وأختتم المستشار الالماني مذكرته الى الامير هنري "ان زيارته هذه الى جمهورية عظيمة، إنطلق أليها كولومبس عبر المحيط. تكتسب اهمية اكبر بالنسبة للوطن [المانيا] مقارنة بالزيارات الملكية التي تمت في الاعوام الاخيرة"[7].

وزود بيلوف الامير هنري بمذكرة تفصيلية عن موضوع الحرب الامريكية – الأسبانية في حالة أثارته في الولايات المتحدة "وللرد على الاشارات الغادرة والشكوك التي كانت قد أثارتها الصحافة الانكليزية التي اتهمت المانيا بأظهار العداوة تجاه امريكيا خلال الاعوام الماضية"[8].

وهكذا تأجل أتخاذ اي خطوة لحين انتهاء زيارة الامير هنري الى الولايات المتحدة ولتنقضي حدة حرارة فصل الصيف[9].

غادر الامير هنري برلين في الخامس عشر من شباط في زيارته الى الولايات المتحدة الامريكية حيث زار عدة مدن امريكية كبرى. ومع ان الغاية من هذه الزيارة كانت وبدون شك ازالة الشعور المعادي لالمانيا الذي ساد الولايات المتحدة بسبب الاحتكاك الذي حدث بين الاسطولين الالماني والامريكي في ميناء مانيلا في

---

[5] Bulow, op.cit., Vol.1, pp.(660-661)
[6] Ibid., p.661.
[7] Ibid., p.662.
[8] Ibid.
للتفاصيل عن موقف بريطانيا وصحافتها من النزاع الامريكي–الاسباني على كوبا والذي قاد الى الحرب بينهما عام ١٨٩٨ ينظر الى، العامر، يقظان سعدون، موقف اوربا من النزاع الامريكي–الاسباني على كوبا ١٨٧٨، مجلة كلية الاداب العدد ٧٢، ٢٠٠٦، ص ٥٠٦ــ ٥٤٩
[9] Gooch, op.cit., Vol.1, p. 235.

الفلبين في تموز عام ١٨٩٨[10] خلال الحرب الامريكية-الاسبانية[11]، فقد انكر ان يكون لها هدف سياسي غير تأكيد من الامبراطور الالماني على حسن نيته تجاه الولايات المتحدة[12].

وعلى اي حال استغلت الحكومة الالمانية فرصة تشكيل حكومة فنزويلية جديدة وطلبت من سفيرها في لندن الكونت فون مترنيخ Von Metternich مقابلة المركيز لانسداون Marquess Lansdowne وزير الخارجية البريطانية. وفي الثالث والعشرين من تموز جرت المقابلة حيث أخبر مترنيخ لانسداون بأن حكومته ترى " بان الوقت قد حان واصبح من الضروري ان تمارس الدول المهتمة بفنزويلا ضغطا على الحكومة الفنزويلية". واوضح مترنيخ "بان حكومه جديدة على وشك التشكيل وان... الفرصة ربما تكون جيدة للتوضيح لها بان نوعاً من القوة ستمارس ضدها اذا أستدعت الضرورة". وأستفسر السفير الالماني عن "ماذا تعتقد [الحكومة البريطانية] في فرض حصار سلمي على الموانيء الفنزويلية خلال موسم التصدير؟ " رد لانسداون " باننا مستعدون جدا للتشاور مع الحكومة الالمانية بشأن العمل المشترك، الا أني اود دراسة الاقتراح بتمعن قبل اعطاء رأي حول فرصها المواتية في الظروف الحالية"[13].

بعد ان درس لانسداون ألأقتراح الالماني التقى السفير الالماني وسلمه مذكرة مؤرخة في الثاني والعشرين من تشرين الاول حيث ذكر له [بسرية تامة] انه اذا اضطرت الحكومة البريطانية على استخدام الاجراءات القسرية فأنها تميل الى الاعتقاد بان من أكثر اشكال القسر الملائمة الاستيلاء على قوارب مسلحة تعود الى الحكومة الفنزويلية. وحذر لانسداون مترنيخ أنه "من الاهمية القصوى عدم السماح بتسرب نوايانا خشية ان تقوم الحكومة الفنزويلية بتحريك قواربها المسلحة الى منطقة لا يمكن الوصول اليها كأعالي نهر اورينوكوOrinoco او نهر آخر". اثار رد لانسداون أستغراب مترنيخ الذي رد بدوره "بانه لا يعرف لماذا لا نلجأ الى فرض الحصار زيادة

---

[10] للتفاصيل عن حادثة مانيلا ينظرالى:
British Documents on the Origins of the war 1898-1914, edited by G.P.Gooch and Harlod Temperley, Vol.1 The End of Isolation (London, 1927) ,pp. 7-105 B.D وسنرمز له ب

[11] للتفاصيل عن النزاع الامريكي- الاسباني الذي قاد الى الحرب ينظر الى:
Trasks,D.F.,The War with Spain 1898 (New York,1981);
العامر ،المصدر السابق ،ص٥٠٦-٥٤٩

[12] **G.D.D., Vo;.III p 161.**

[13] **Lansdowne to Buchanan, Foreign Office, 23 July , 1902 B.D. Vol.II The Anglo-Japanese Alliance and the Franco-British Entente (London,1927),No. 171, pp.(153-154).**

على الاستيلاء على القوارب المسلحة". لكن لانسداون أوضح له بانه ما يعرف بالحصار السلمي "يبدو لنا عديم الفائدة للهدف الذي نبغي تحقيقه ، بينما قد يورطنا الحصار المسلح في مشاكل عويصة مع دول أخرى"[١٤]. وهي اشارة الى الولايات المتحدة.

وتوضح المذكرة البريطانية اسباب تفضيل الحكومة البريطانية فكرة الاستيلاء على القوارب المسلحة الفنزويلية بدلا من فرض الحصار السلمي على الموانيء الفنزويلية. فتذكر المذكرة إن الحكومة الفنزويلية قد تدخلت خلال الاعوام ١٩٠٠-١٩٠٢ ثلاث مرات ضد المصالح البريطانية المتمثلة بالسفن التجارية البريطانية القادمة من مستعمرة ترينيداد حيث تطاردها قوارب حرس السواحل الفنزويلية بتهمة المتاجرة بالمهربات او بالسلاح، وبان هذه التهمة أتخذت ذريعة لانتهاك المياه الاقليمية البريطانية ولمصادرة ممتلكات الرعايا البريطانيين ولتدمير متعمد لاحدى السفن في احدى المرات. وتستطرد المذكرة بانه في حالتين أخرتين أستخدمت نفس التهمة ذريعة للاستيلاء او مصادرة او تدمير سفن بريطانية في المياه الفنزويلية، وبان ذروة هذه الحالات قد وصلت في الثلاثين من حزيران عندما تعرضت السفينة البريطانية "كووين" Queen التي كانت متوجهة من غرناطة في نيكاراغو الى ترينيداد الى هجوم قام به قارب مسلح فنزويلي في أعالي البحار وأستولى عليها وصادرها، وقررت الحكومة البريطانية عدم السماح بتكرار مثل هذا "التدخل السافر" وامرت الوزير البريطاني في كراكاس في التاسع والعشرين من تموز تقديم احتجاج شديد اللهجة، حذرت بموجبه رئيس جمهورية فنزويلا ووزير خارجيته بانه مالم تحصل الحكومة البريطانية على تأكيدات واضحة بعدم تكرار مثل هذه الاحداث وعلى تعويضات كاملة الى الاطراف المتضررة، فأنها ستضطر الى اتخاذ الخطوات اللازمة للحصول على هذه التعويضات وعلى تعويضات اخرى تطالب بها شركات السكك الحديد البريطانية العاملة في فنزويلا وللحصول على تعويضات جراء الخسائر الناجمة عن سلوك القنصل الفنزويلي في ترينيداد. وتكشف المذكرة البريطانية رد الحكومة الفنزويلية التي تجاهلت احتجاجات الحكومة البريطانية منذ قيام الحكومة البريطانية باحتجاز السفينة Ban Righ في ميناء لندن في كانون الثاني ١٩٠٢ لكنها اطلقت سراحها بعد ان ثبت ان جنسيتها كولومبية وليست فنزويلية. وازاء هذا الموقف المتصلب للحكومة الفنزويلية رأت الحكومة البريطانية أنها مضطرة على دراسة الخطوات اللازمة لتحقيق مطاليبها، بيد أنها أقترحت، قبل الاقدام على هذه الخطوة، ان تعبر عن اسفها للاسلوب الذي أستجابت به الحكومة الفنزويلية للاحتجاجات البريطانية

---

[14] Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 24 October, 1902, Confidential, Ibid., No.172, p. 154.

وانها ترفض تجاهل تلك الحكومة للشكاوي البريطانية، وحذرت انه اذا استمرت على هذا التجاهل والرفض للشكاوي والمطاليب البريطانية، فان الحكومة البريطانية ترى ان من واجبها دراسة الخطوات الضرورية لمواجهة هذا الرفض من اجل حماية المصالح البريطانية. ومع ذلك لم تقدم الحكومة البريطانية على دراسة او اتخاذ اية خطوات، بل اعلنت عن استعدادها دراسة اي مقترح تتقدم به الحكومة الفنزويلية، وبذلك تستأنف المفاوضات بين الحكومتين. ولما كانت الحكومة الالمانية قد اعلنت عن استعدادها الانضمام مع الحكومة البريطانية في ممارسة الضغط على الحكومة الفنزويلية ، فقد طلبت الحكومة البريطانية من الحكومة الالمانية ان تنظم معها في هذه "الخطوة التمهيدية" وفي حالة موافقة الحكومة الالمانية على هذا الاقتراح ، فانه من الافضل ان تطلب من ممثلها في كراكاس اخبار الحكومة الفنزويلية بان حكومته على علم بالاتصالات التي دارت بين الحكومتين البريطانية والفنزويلية وبان الحكومتين الالمانية والبريطانية مصممتان على العمل معاً في الضغط على الحكومة الفنزويلية لتعويض مطاليب رعاياهما[١٥].

ومن دون الانتظار الى موافقة الحكومة الالمانية لاعتقاده بضرورة عدم التأخير في تقديم الانذار النهائي الى الحكومة الفنزويلية، طلب لانسداون من هاغارد Haggard الوزير البريطاني في كراكاس تقديم ذلك الانذار. وعندما ابلغه مترنيخ موافقة حكومته على العمل المشترك مع الحكومة البريطانية في تقديم الانذار النهائي، أخبره لانسداون بذلك وطلب من الوزير البريطاني الانضمام مع زميله الالماني في تقديم الانذار النهائي الى الحكومة الفنزويلية. واطلع مترنيخ لانسداون رأي حكومته بان هناك اربع نقاط، فيما يخص العمل المشترك الذي تهدف الحكومتان الالمانية والبريطانية القيام به، تحتاج الى الدراسة. فالنقطة الاولى تتعلق بضرورة توضيح المطاليب البريطانية والالمانية، ففيما يخص المطاليب الالمانية فانها تشمل الاضرار الناجمة عن الحرب الاهلية في فنزويلا خلال الاعوام ١٨٩٨-١٩٠٠ والبالغة مليون وسبعمائة الف بوليفار، واذا اضطرت الحكومة الالمانية على استخدام اجراءات قسرية ضد الحكومة الفنزويلة فستطالب ايضا بالحصول على ثلاثة ملايين بوليفار عن الاضرار الناجمة عن الحرب الاهلية، وعلى الحكومة الفنزويلية ان تدفع واحداً واربعين مليون بوليفار كضمان للفائدة على المبلغ الذي استثمره الدائنون الالمان في فنزويلا ولاسيما في السكك الحديد. اما النقطة الثانية فقد تناولت الاجراءات الدبلوماسية وأكدت ان الحكومة الالمانية مستعدة لتقديم الانذار النهائي في اي وقت كان وانها ترى ان من الافضل للدولتين عند تقديمهما .الانذار النهائي، ان تسترعي انتباه الحكومة

[15] . Memorandum for Communication to the German Ambassador, Foreign Office, 22 October, 1902, 1bid ., No.173, pp. 154 – 156.

الفنزويلية لمطاليب الدولة الاخرى. واهتمت النقطة الثالثة بالاجراءات القسرية المزمع اتخاذها. فقد اعربت الحكومة الالمانية بان تكون الخطوة الاولى الاستيلاء على القوارب المسلحة الفنزويلية، واقترحت بان تأمرالحكومة البريطانية سلطاتها البحرية في البحر الكاريبي بوضع خطة لهذه الغاية. وفي حالة فشل هذه الخطة في إخضاع الحكومة الفنزويلية ، فقد اقترحت الحكومة الالمانية اللجوء الى فكرة الحصار البحري السلمي، ولأن القسم الأكبر من تجارة فنزويلا تنقلها السفن الاجنبية فيجب ان يشمل الحصار السفن المحايدة واذا حاولت هذه السفن الافلات من الحصار فيجب ارجاعها او ان "تعزل". ومن اجل ان يحصل على قبول الحكومة البريطانية لهذا الاقتراح، فقد اوضح مترنيخ للانسداون حدوث حالات مشابهة له في التأريخ كالحصار الذي فرضته بريطانيا عام ١٨٣٧ على غرناطة الجديدة (انضمت الى كولومبيا) وفي عامي ١٨٤٢ و١٨٤٤ ضد سان جوان وموانيء نيكاراغو والحصار الذي فرضته بريطانيا وفرنسا عامي ١٨٤٥ و١٨٤٧ ضد الموانيء الارجنتينية والحصار الذي فرضته بريطانيا ضد ريوRio والحصار الذي فرضته فرنسا عام ١٨٨٤ ضد فرموزا. وكشف مترنيخ لوزير الخارجية البريطانية بان الحكومة الالمانية عندما درست فكرة تطبيق الحصار ضد فنزويلا، فانها اخبرت حكومة الولايات المتحدة بنيتها، واعلنت الاخيرة بانها لا تتوقع اثارة المشاكل. ولأن هناك خلافاً في طبيعة المطاليب الالمانية والبريطانية، فقد اقترحت الحكومة الالمانية من خلال النقطة الرابعة بان لا تتوصل اي حكومة منهما الى تسوية مع الحكومة الفنزويلية الا بعد ان تتوصل الحكومة الاخرى الى تسوية مرضية مع الحكومة الفنزويلية، ويتوجب على الحكومتين التوصل الى تفاهم بشأن ذلك قبل الاقدام على اي عمل مشترك. لم يعلق لانسداون على النقاط التي عرضتها الحكومة الالمانية الا على الثالثة لأن "موضوع الحصار السلمي مليء بالصعوبات واني أدرك بان بعضا من سلطاتنا العليا لديها شكوك كبيرة بشأن امكانية تطبيق مثل هذا الاجراء" لكنه استدرك وقال: "على اي حال، فطالما اعلنت الحكومة الالمانية بوضوح عن رغبتها بانه ما ان نشرع حتى يتوجب علينا السفر معهم الى نهاية الرحلة، وبأنه من المعقول جدًا ان لا ندخر وسعاً في دراسة فيما اذا كانت هناك صعوبات محتملة في طريقنا"[١٦].

وأقترح مترنيخ على لانسداون ان يتعاون المجلس البريطاني لحملة الاسهم الاجنبية Disconto Gesellschaft فيما يتعلق بالقروض التي قدمها الى الحكومة

[16] **Lansdowne to Buchanan, Foreign office, 11 November, 1902, 1bid ,No. 174, pp. 156 – 157.**

الفنزويلية في الاعوام ١٨٨١ و١٨٩٦، فوافق لانسداون على إخبار المجلس تحريرياً[17].

لم تكن الحكومة البريطانية راغبة في فرض الحصار البحري السلمي على الموانيء الفنزويلية. ويرجع السبب الجوهري وراء ذلك الى ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية كانت متمسكة بمبدأ مونرو[18]. فقد نقل غوادت عن السفير البريطاني في واشنطن ميخائيل هربرت M. Herbert قوله بانه عندما اخبر وزير الخارجية الامريكية جون هاي J. Hay شفوياً عن نوايا الحكومة البريطانية تجاه فنزويلا رد الاخير "بان حكومته تأسف بشدة على تدخل اية دولة اوربية في شؤون اي جمهورية في امريكا الجنوبية، لكنها تدرك بان الدول اوربية ملزمة بالمطالبة بحق الدفاع عن مصالحها في امريكا الجنوبية"[19]. الا انه لم يمانع لان الرئيس الامريكي تيودور روزفلت (١٩٠١-١٩٠٩) كان قد اخبر سبيك فون ستيرنوبرغ Speck von Sternburg الوزير الالماني في واشنطن في الثاني عشر من تموز ١٩٠١ إنه " اذا أساءت اية دولة جنوب امريكية التصرف مع اية دولة اوربية، دع هذه الدولة تعاقبها"[20].

لذا فعندما سلم مترنيخ في السادس والعشرين من تشرين الثاني مسودة الانذار النهائي الالمانية الى لانسداون وأخبره عن استعداد حكومته على العمل معاً للأستيلاء على قوارب مسلحة فنزويلية وان السفينة الحربية Vientaوالسفن الحربية الصغيرة Falke وGazelle والقارب المسلح بانثرpanther رهن الاشارة، رد لانسداون بان الحكومة البريطانية تعارض الاقتراح الالماني الرامي الى فرض الحصار على الموانيء الفنزويلية "وبأننا كنا قد الزمنا انفسنا بشكل تام بعدم تبني هذا الاجراء من وجهة النظر الدولية". لكنه عاد واعترف انه في حالة عدم تحقيق عملية الاستيلاء على قوارب فنزويلية الهدف المرجو فانه يجب تبني إجراءات أشد. وتساءل الوزير البريطاني فيما اذا كانت الحكومة الالمانية مستعدة في مثل هذه الحالة الى اللجوء الى الحصار الحربي. فذكر مترنيخ وزير الخارجية البريطانية بان الحكومة الالمانية تعتقد بان معارضة الحكومة البريطانية التي تمثلت بالاحتجاج ضد فرنسا

---

[17] 1bid ., p. 157.
[18] Dulles, Foster Reha, Americas Rise to world Power , 1898 – 1954 (New york, 1963) p. 74.
[19] Von Quadt to the German Foreign Office, Washington, 25 November, 1902, Telegram, G.D.D. Vol. III, p. 162.
[20] Roosevelt to Speck von Sternburg, 12 July, 1901, quoted in Dulles, Op. cit. , p. 74.

لسوء معاملتها للسفن التجارية البريطانية خلال حصارها لجزيرة فرموزا عام ١٨٨٤ قد تبددت بعد ان اعلنت الحكومة البريطانية بان ذلك الحصار حربي وليس سلمي لأن فرنسا قد وعدت الحكومة البريطانية بأنها ستوقف عمليات الأستيلاء او تفتيش السفن البريطانية في اعالي البحار لذلك غيرت الحكومة البريطانية موقفها واعترفت تماما بإجراءات الحصار الفرنسي. وأضاف مترنيخ بان البحرية الالمانية لا تهدف الى التفتيش او الاستيلاء على السفن التي تعود الى دول محايدة في اعالي البحار في حالة فرض الحصار السلمي على الموانيء الفنزويلية. واوضح السفير الالماني ان مسودات الاقتراحات التي قدمتها الحكومة الالمانية كانت من اجل تعريف وتحديد الحصار من اجل التوصل الى أتفاق بين الحكومتين. وتضمنت مسودة الاقتراحات تقسيم الموانيء الفنزويلية بين البحريتين البريطانية والالمانية لغرض فرض الحصار عليها. فوقع مينائي ماراكايبو Maracaybo وبيورتو-كابيلو Puerto- Cabello من نصيب البحرية الالمانية. اما ميناء لاغويرا La Guayra والموانيء الاخرى على الساحل الشرقي الفنزويلي فقد اصبحت من مهام البحرية البريطانية. واقترح مترنيخ على لانسداون عدم اعلان الحرب على فنزويلا وعدم قطع العلاقات الدبلوماسية وعدم أستدعاء ممثليهما في كراكاس بل ارسالهما اذا استدعت الضرورة الى مكان أمن في لاغويرا. واستفسر مترنيخ عن امكانية اعلام حكومة الولايات المتحدة الامريكية بنوايا الحكومتين الالمانية والبريطانية، فرد عليه لانسداون بأن الحكومة البريطانية قد اجرت اتصالا معها قبل عدة ايام ولا تستدعي الضرورة لاجراء المزيد. وقلل مترنيخ من اهمية الاقتراح البريطاني الرامي الى الإستيلاء على مكاتب الجمارك الفنزويلية لأن القوة التي ستقلها السفن الحربية الالمانية قادرة على مسك ميناء بيورتو-كابيلو لمدة محددة. واضاف مترنيخ ان الاستيلاء على مكاتب الجمارك لا يحقق الهدف لأن الحكومة الفنزويلية قادرة على اقامة مكاتب جمركية اخرى وان احتلال اجزاء من الاراضي الفنزويلية لمدة معينة قد يؤدي بالولايات المتحدة الامريكية الى إثارة الصعوبات، لكل هذه الاسباب فضلت الحكومة الالمانية فكرة الحصار السلمي لأنها حسب رأيها من اكثر الوسائل القسرية فاعلية[٢١].

في غضون ذلك حاولت الحكومة الفنزويلية زرع الخلاف بين الحكومتين الالمانية والبريطانية وذلك بتقربها من الالمان لكسبهم بوعدهم بالإيفاء بمطاليبهم و اذا توقفوا عن دعم المطاليب البريطانية. لكن الالمان رفضوا العرض الفنزويلي. لذلك

[21] **Lansdowne to Buchanan, Foreign Office, 26 November, 1902, B.D. Vol.11 ,No. 175, pp. 157 – 158.**

عبر لانسداون عن شكره للحكومة الالمانية، ووعد بأن تتخذ الحكومة البريطانية نفس الموقف اذا حدث نفس الشيء[٢٢].

لقد سبق تقديم الحكومتين البريطانية والالمانية الانذار النهائي المشترك الى فنزويلا في السابع من كانون الاول ١٩٠٢ إتصالات جرت بينهما . ففي التاسع والعشرين من تشرين الثاني، اخبر مترنيخ لانسداون بان حكومته قبلت الاراء التي كان قد طرحها الوزير البريطاني مع السفير الالماني في السادس والعشرين من نفس الشهر وبأنها تقترح ان يرسل الانذار النهائي الى رئيس جمهورية فنزويلا بدلا من ان يسلمه ممثلا الحكومتين مع اثنين من كبار ضباط البحريتين البريطانية والالمانية، وبان ينتظر ممثلا الدولتين لمدة اربع وعشرين ساعة أخرى في لاغويرا لترقب الاوضاع. وطلب مترنيخ من لانسداون، استنادا الى التعليمات التي كان قد استلمها من حكومته، ايضاحا عن موقف الحكومة البريطانية بشأن الاجراءات القسرية المزمع اتخاذها في حالة إخفاق عملية الاستيلاء على قوارب مسلحة فنزويلية في تحقيق الغاية المنشودة. واوضح في هذا السياق بان حكومته لا ترى "ان الشك في طبيعة هذه الاجراءات القسرية الاضافية تلزمنا الامتناع عن المضي في الخطوات التي كنا قد اتفقنا عليها"[٢٣]. واوضح لانسداون في مذكرة وجهها الى مترنيخ في الثاني من كانون الاول الموقف النهائي لحكومته فيما يتعلق بالاجراءات القسرية الاضافية التي ربما تستخدم ضد فنزويلا في حالة اخفاق عملية الاستيلاء على القوارب المسلحة باجبارها على الاذعان .وتضمنت هذه الاجراءات (أ) الاستيلاء على مكاتب الجمارك او اية مواقع مهمة في فنزويلا و (ب) الحصار. وبما ان الخيار الاول يتطلب استخدام قوات كبيرة والقيام بعمليات عسكرية وربما الى احتلال طويل الامد قد يؤدي الى تعقيدات دولية بين بريطانيا والمانيا من جهة وبين الولايات المتحدة من جهة اخرى، لكل هذه الاسباب اعتقدت الحكومة البريطانية بضرورة استبعاده وانها تفضل الخيار الثاني، لكنها اكدت "ان شكل الحصار السلمي الذي اوصت به الحكومة الالمانية اجراء لا يمكن تبريره من وجهة نظر القانون الدولي فضلا عن انها [الحكومة البريطانية] لا تستطيع اللجوء اليه بسبب البيانات الصحيحة التي اعلنتها الحكومات البريطانية السابقة من وقت لاخر. فالتعليمات التي تقدمت بها الحكومة الالمانية لا يمكن عدها الا اجراءات حرب"[٢٤].

---

[22] Metternich to the German, Foreign Office, London, 26 November, 1902, G.D.D. Vol.,III,p. 162.

[23] Lansdowne to Buchanan, Bowood, 29 November, 1902, B.D. Vol.1 ,No. 176, p. 159.

[24] Lansdowne to Metternich, Foreign Office, 2 December, 1902, Ibid ,No. 177, p.160; Memorandum, Foreign Office, 2 December, 1902, Ibid , Enclosure in No.177, p. 159.

لذا اقترحت الحكومة البريطانية بعدم تبني اقتراح فرض الحصار السلمي، بل اقترحت فرض حصار على الموانيء الفنزويلية على ان تقوم "الدول" بعد اعلان الحصار بتعزيزه وذلك باصدار تعليمات من اجل التخفيف من وطأة الحصار وان تحذر الدول المحايدة في الوقت المناسب بان هذه التعليمات قد وضعت موضع التنفيذ. "وبهذه الطريقة". يختتم لانسداون مذكرته بالقول فان الحكومة البريطانية "لا ترى سببا في حالة فرض بريطانيا والمانيا حصارًا على الموانيء الفنزويلية، في عدم تبني الاجزاءات التي اقترحتها الحكومة الالمانية"[٢٥].

ومن الاجل الحصول على تأييد الامبراطور الالماني وليم الثاني، كتب بيلوف رسالة يخبره فيها "ان انكلترا تقترح فرض حصار حربي بدلا من حصار سلمي على الموانيء الفنزويلية. وبما انه من الافضل جدا اقناع البريطانيين باننا مستعدون للقيام معهم بالقيام بأي عمل آخر من دون تحفظات فأني... التمس موافقة جلالتكم لقبول البرنامج البريطاني. واستنادا الى المادة (١١) من دستور الامبراطورية، فان موافقة البندسرات مطلوبة"[٢٦].

واوضح المستشار الالماني لامبراطوره "ان الموقف قد طرأ عليه تغيير حيث طلبت ايطاليا منا رسميا وكذلك في لندن المشاركة في الحصار الانكليزي-الالماني بسفينتين حربيتين من اجل ضمان مطاليبها ضد فنزويلا. وكما هو معروف فانه طالما لانكلترة ثمان سفن في منطقة جزائر الهند الغربية فان الدول الثلاث [بريطانيا، المانيا وايطاليا] ستوفر (١٤) سفينة حربية لمهمة الحصار. ان تعزيز قوة الاسطول المحاصر تبدو امرا غير مرغوب به من وجهة النظر السياسية، لأن الشعور السائد في الولايات المتحدة ، الذي لم يثره عملنا لحد الان، ربما يتغير، اذا نقلت الدول الثلاث قواتها البحرية من مياهها الاقليمية للانضمام مع تلك الموجودة فعليا في منطقة الحدث"[٢٧].

وإستنادا الى ولاية رويتر فان الاسطول الاحتياطي الراسي في ميناء ديفون قد امر ان يكون على اهبة الاستعداد للانطلاق الى البحر خلال اربع وعشرين ساعة. ووعد بيلوف ان يستفسر من الحكومة البريطانية عبر سفيره في لندن عن صحة هذه المعلومات واذا تبين صحتها فانه "يبدو من الافضل لانكلترة ان تستمر في تعزيز اسطولها حتى لا تكون هناك تغذية الى التقارير المنحازة التي تنشر في كل مكان في

---

[25] Ibid.

[26] Bulow to the Emperor William , 12 December, 1902, G.D.D, Vol.III, pp. 162-163.

[27] Ibid.

الصحافة البريطانية والامريكية الى حد اتهام المانيا بانها المحرض الرئيس لكامل العملية ولكافة إجراءات القسر بالذات"[28].

وفي الواقع ان هذه التقارير وما كتبته الصحافة البريطانية والامريكية قد جاءت بعد ان قام أسطول حربي بريطاني-الماني مشترك بالاستيلاء على اربع سفن حربية صغيرة واغراق واحدة كانت راسية في ميناء لاغويرا وتدمير حصن في ميناء بيورتو-كابيلو وفرض حصارا على ميناء لاغويرا بالأشتراك مع سفن ايطالية بعد ان استمرت الحكومة الفنزويلية في تجاهل التحذيرات البريطانية-الالمانية المشتركة وتجاهل الانذار المشترك الاخير الذي قدمتاه في السابع من كانون الاول ورفضت دفع التعويضات الى البريطانيين والالمان مما دفع بالحكومتين الى إستدعاء ممثليهما من فنزويلا[29].

فالصحافة الامريكية عبرت عن مخاوفها وكتبت مقالات ركزت بشكل كبير على مبدأ مونرو[30]. اما فيما يخص الصحافة البريطانية فقد اتهم المستشار الالماني بيلوف صحيفة التايمس "بأنها القائدة مرة اخرى في نشر هذه التلميحات "والاتهامات بان المانيا هي المحرض الرئيس لعملية الاستيلاء على السفن الفنزويلية وقصف الموانيء وفرض الحصار البحري عليها. ويقتبس بيلوف من ما كتبه مراسل الصحيفة في واشنطن عند مناقشة "الاغراق المزعوم للاسطول الالماني لسفينة حربية فنزويلية" ما نصه: "انها محاولة بائسة في انكار الانطباع السيء الذي نشأ هنا جراء حوادث اليومين الماضيين. ان الانتقاد الرئيس لاغراق السفن الحربية الفنزويلية بأن الفعل الذي تم ضد فنزويلا قد أكتسب صفة الحملة التأديبية. ومن الاهمية ان الميل العام هنا هو تحميل مسؤولية هذه المعاملة ليس على البريطانيين بل على الالمان"[31].

وعبرت نفس الصحيفة البريطانية في مقالة افتتاحية "عن رغبتها وتوقعها بان السفن البريطانية لم تشترك في عملية الاغراق هذه"[32].

ويورد بيلوف معلومات تفصيلية في مذكراته عن الشعور المعادي لالمانيا الذي تفجر في بريطانيا. فيذكر "ان بعض الصحف الانكليزية شنت صيحات أستنكار همجية لاذعة ضد أي تعاون مع المانيا". فكتبت صحيفة التايمس "ان تعاونا مثل هذا النوع امر متعذر لان الشعب الالماني، ان لم تكن الحكومة الالمانية ،كان ضد الانكليز

---

[28] Ibid., p. 163.
[29] Bulow, Op.cit., Vol.1, p. 641.
[30] Hale, O.J.,The Great Illusion 1900-1914 (New York 1971) p.237.
[31] Bulow to the Emperor william, 12 December, 1902, G.D.D, Vol.III, p 163.
[32] Ibid.

خلال حرب البوير". ووجه الشاعر البريطاني. روديارد كيبلنغ Rudyard Kipling، الذي وصفه بيلوف في الرايخشتاغ بــ"الشاعر المنفعل صاحب الموهبة الكبيرة" انتقادات موجهة ضد الحكومة البريطانية ووصف هذا التعاون البريطاني مع المانيا بالغادر والخؤون في اشعار نشره[٣٣]. وينقل لنا بيلوف ما كتبه له الكونت مترنيخ السفير الالماني في لندن عن اشعار كيبلنغ فيذكر "ان قضية فنزويلا توضح ان الشعور المعادي لالمانيا خلال حرب البوير لا زالت قوية". وان الصحافة البريطانية لم تكن معادية لالمانيا مثل ما هي عليها الان، وان الحكومة البريطانية قد اصبحت غير مقبولة لدى الرأي العام البريطاني بسبب تعاونها مع المانيا، وانها عاجزة عن التأثير على الصحافة، وان وزير الخارجية البريطانية لانسداون قد عارض بشدة اشعار كيبلنغ ضد التعاون البريطاني-الالماني في فنزويلا[٣٤].

لقد تعرضت الحكومة البريطانية الى انتقادات لاذعة من الصحافة البريطانية، موجهة اللوم والتعنيف الى الوزراء الذين وافقوا على اشتراك بريطانيا مع المانيا في "هذه المغامرة غير المدروسة" على حد تعبيرها، التي تقودهم الى التصادم مع الولايات المتحدة الامريكية. ووصف جميع الصحف البريطانية من دون تمييز للحزب الذي تمثله الموضوع بــ"مأزق فنزويلا" موضحة في نفس الوقت "تفاهة الحلف" مع المانيا.واعابت هذه الصحافة وذمت "غباء" الدبلوماسيين البريطانيين الذين كرروا "حماقة" اتفاقية اليانغستي. فضلا عن ذلك حذرت الصحف الحكومة بان المانيا "شريك مميت" و "منافس مهلك" تحاول "توريطنا في نزاع مع الولايات المتحدة". فالمانيا تسعى فقط الى انتزاع الاراضي على حد تعبيرها[٣٥].

اما في الولايات المتحدة الامريكية فقد عبرت الصحافة عن مخاوفها ونشرت مقالات ركزت بشكل كبير على مبدأ مونرو[٣٦]. ويوضح ميخائيل هربرت السفير البريطاني في واشنطن ردود الافعال الامريكية تجاه العمل- البريطاني-الالماني المشترك ضد فنزويلا حيث يذكر في برقيته المؤرخة في التاسع والعشرين من كانون الاول ١٩٠٢ الى لانسداون[٣٧] "تنامي شعور السخط في الكونغرس ولا سيما في مجلس النواب ضد عمل الدولتين وبالدرجة الاساسية ضد قصف واغراق السفن الفنزويلية. ولا يساور الادارة [الامريكية] الشك ضدنا ولكنها من دون شك متوجسة خيفة من

---

[33] Ibid.

لمعرفة التفاصيل عن اشعار كيبلنغ ينظر الى : Hale , op.cit., p. 238.

[34] Bulow,op.cit., Vol.IV, p. 642; Hale , op.cit., p. 238.

[35] Quoted in Hale , op.cit., p. 238.

[36] Ibid.

[37]Herbert to Lansdowne, Washington 16 December 1902, Confidential, B.D., Vol.11, No. 108, p. 162.

الخطط الالمانية. وان الانطباع السائد في واشنطن ان المانيا تستخدمنا، وان أصدقائنا هنا يأسفون، من وجهة نظر المشاعر الطيبة الامريكية تجاهنا، بأننا نعمل معها".

وفي رسالة سرية الى لانسداون ذكر هربرت بأن الدوائر السياسية الامريكية لا تخشى من خطط بريطانيا ولا سيما في تعاونها مع المانيا، وان الامريكيين يثقون بصورة مطلقة بان بريطانيا "ليس في نيتها التشكيك في مبدأ مونرو". ويكشف السفير البريطاني ان عمل بريطانيا مع المانيا واغراق السفن الفنزويلية قد خلق أستياءاً واسعاً في مجلس النواب، لكن تصريح كرابنورن Cranborne مساعد وزير الخارجية البريطانية لشؤون البرلمان في مجلس العموم حيث أدعى "بعدم مشاركة اية سفينة حربية بريطانية في العمل المدمر الاخير الذي يبدو انه غير مبرر" على حد تعبيره "والاشارات التي صدرت من اللورد سالزبوري رئيس الوزراء البريطاني في دعم مبدأ مورنو والصيحات التي صدرت في الصحافة الانكليزية ضد العمل المشترك مع المانيا، كل ذلك خلق تحولاً في الشعور في مصلحة بريطانيا العظمى وقد بلغ مسامعي خلال الايام الماضية إرتياح ظهر في تواجد الاسطول البريطاني الى جانب اسطول المانيا في المياه الفنزويلية اذ نظر اليه كضمانة لكبح المانيا من القيام بأي عمل ربما يقودها الى التصادم مع الولايات المتحدة"[٣٨].

واقتبس السفير البريطاني في واشنطن من ما كتبته صحف نيويورك اذ ذكرت "ان الشعب الامريكي عموما قد وضع مكانة ذي قيمة اكبر من السابق في حسن النية المتبادلة والتعاون في القضايا المشتركة للفرعين الكبيرين من العنصر الناطق بالانكليزية. الامبراطورية [البريطانية] العظيمة والجمهورية [الامريكية] العظيمة". ويفصل هربرت الشعور المعادي لالمانيا في الولايات المتحدة "وهو في الحقيقة جدير بالملاحظة، وان الشكوك في خطط الامبراطور الالماني في البحر الكاريبي تشترك فيه الادارة والصحافة والراي العام على السواء". ويعتقد هربرت بأستمرار هذا الشعور لأن "السلطات البحرية" الامريكية عبرت عن مخاوفها من تعاظم الاسطول الحربي الالماني، لذلك تبنت برنامجا بحربا طموحا لمواجهة البحرية الالمانية". ويختتم السفير البريطاني رسالته الى لانسداون بالقول: "عندما افكر بالتملق الذي اطراه الامبراطور الالماني على هذا البلد خلال العام المنصرم والمحاولات المستمرة التي قامت بها الدبلوماسية الالمانية لتشوية سمعة سلفي وبذر الخلاف بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة،فأني اعترف بان الهجمات الحالية على المانيا تعبرعن شعوربالرضا عن النفس"[٣٩].

---

[38]Herbert to Lansdowne, Washington 29 December 1902, Confidential, Ibid., No.184, pp. 163-164.

[39] Ibid., p. 164.

ويذكر هربرت ان صحيفة The New york Staats Zeitung، لسان حال السفارة الالمانية في واشنطن "تعزو الشعور المعادي للالمان في هذا البلد الى القصص الخبيثة التي اختلقت في انكلترة"[٤٠].

كان لمشاعر السخط والاستياء التي عمت الولايات المتحدة الامريكية تاثير كبير في التعاون البريطاني– الالماني المشترك. فقد تكلم لانسداون مع رئيس مجلس اللوردات الذي كان عازماً في رفضه "التوصل الى اتفاق مع الحكومة الالمانية حول التوضيحات التي يمكن ان يقدمها كلا عن الاجراءات التي تريد الدولتان اتخاذهما بشأن الحصار، واننا اكدنا بوضوح باننا نعتبر هذه الاجراءات بانها تعني الحرب واننا اوضحنا ذلك للالمان، واذا حاولوا اللجوء الى هذه الاجراءات فهذا شأن يعود لهم ولكن يجب ان يفهموا بان بريطانيا لم تخدعهم".

شارك لانسداون هذا الرأي وهكذا تراجعت الحكومة البريطانية عن موقفها واوقفت التعاون مع المانيا[٤١]. واستنادا الى ذلك ارسلت قيادة القوة البحرية البريطانية في السادس عشر من كانون الاول تعليمات الى القائد العام للاسطول البريطاني في شمال امريكا وجزائر الهند الغربية بأن يأمر جميع السفن المشتركة في عمليات ساحل فنزويلا "بعدم انزال رجال وعدم قصف حصون او إغراق سفن من دون تفويض من قيادة القوة البحرية"[٤٢].

اما في المانيا فقد اقترح بيلوف على الامبراطور الالماني على ضوء الشعور المعادي لالمانيا في واشنطن ولندن ان "تمتنع المانيا في الوقت الحاضر عن توسيع العمليات العسكرية". وافق الامبراطور واكد بان "علينا ان نترك انكلترة تقوم بالخطوة الاولى"[٤٣] وبسبب وصول تقارير من القائم بالاعمال الالماني في واشنطن تحذر حكومته ان الولايات المتحدة الامريكية "ترى انه من المرغوب فيه التوصل الى تسوية في الحال". لقضية فنزويلا، فقد حذر هاي وزير الخارجية الامريكية "ان الرأي العام والكونغرس في حالة من الهياج العصبي والاثارة. وذكر هاي انه قد يمرر وبسهولة قرار في الكونغرس يطالب الرئيس التحري فيما اذا كان مبدأ مونرو... قد أنتهك او ان لا ينتهك"[٤٤].

---

[40] Ibid.

[41] Lansdowne to Metternich, Foreign office, 8 December, 1902, Ibid ,No.178, p.161

[42] Ibid. , p. 166.

[43] Bulow to the Emperor William , 12 December, 1902, G.D.D, Vol.3, pp. (163-164).

[44] Von Quodet to the German Foreign Office, Washington, 18 December, 1902, Ibid, ,p.164.

أدعى المستشار الالماني بيلوف انه اقترح على رئيس جمهورية فنزويلا حلاً لقضية التعويضات بالطرق القانونية بدلاً من العسكرية وذلك بقبول تحكيم المحكمة الدولية[45]. لكن مصادر اخرى لا تورد ما ادعاه بيلوف بل تذكر ان الرئيس الامريكي روزفلت هو صاحب الاقتراح الذي عرضه على ملك بريطانيا ادورد السابع (١٩٠١-١٩١٠) وعلى الامبراطور الالماني. فادورد السابع قد اعلن بعد استشارة حكومته عن تأييده للاقتراح مما جلب له انتقاداً من ابن أخته الامبراطور الالماني الذي علق "أن جلالته المعظم يفقد. لم تكن الجدة [الملكة فكتوريا] تتكلم مثل ذلك"[46]. رفض الامبراطور الالماني علنا قبول قرار التحكيم، لذا حذر الرئيس الامريكي روزفلت السفير الالماني في واشنطن انه مالم تتصرف المانيا مثل بريطانيا وتقبل هذا الاقتراح فانه سيرسل الاسطول الامريكي ليمنع اي استيلاء للاراضي الفنزويلية.

رد السفير بان الامبراطور قد رفض الاقتراح علناً، لذا يجب ان لا يتوقع منه تغيير قراره. فرد عليه روزفلت بانه لا يريد الدخول في جدل حول الاقتراح بل انه سينفذ قراره. وبعد اسبوع طلب السفير مقابلة روزفلت للتباحث في امور تتعلق ببلديهما فلم يثر موضوع قبول المانيا لاقتراح التحكيم وقرر انه اذا ما سأله روزفلت فأنه سيجيب بأنه لم يستلم بعد تعليمات من برلين . فسأله الرئيس الامريكي عن رأي بلده من الاقتراح فرد السفير بذلك الجواب، الامر الذي جعل روزفلت يقول بانة سيأمر الاسطول الامريكي بالتوجه الى فنزويلا مبكرا قبل موعده المقرر. فأحتج السفير الالماني على ذلك، فرد عليه روزفلت بان هذا الامر لم يدون على الورق لحد الان واذا قبلت المانيا التحكيم فأنة سيثنى على هذا القرار وسيعامله قرارا المانيا. اما اذا استمرت المانيا في رفض اقتراح التحكيم فان الاسطول الامريكي سيبحر الى المياه الفنزويلية. واخيرا اذعنت المانيا لهذا التهديد الامريكي قبل اثني عشر ساعة من إنقضاء مدته وقبلت اقتراح التحكيم"[47].

وعلى اي حال، قبل كاسترو اقتراح التحكيم وبدوره اقترحه على بريطانيا والمانيا اللتين قبلتاه واوضحت المانيا عبر سفيرها في لندن "انها تعترف ان اللجوء الى التحكيم سينجم عنه وبسهوله نتيجة نافعة وترى بانه يجب وضع الاقتراح الفنزويلي موضع التطبيق في الحال من دون الانتظارالى واشنطن..."[48].

---

[45] Bulow, op.cit., Vol.IV, p. 641.
[46] Quaoted in Balfour, op.cit p. 244.
[47] Ibid.
[48] Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 18 December, 1902, B.D. Vol.11 ,No.181, p.162.

جرت مباحثات في لندن بين لانسداون ومترنيخ لمقارنة المسودتين اللتين تزمع الحكومتان الالمانية والبريطانية تقديمهما الى حكومة الولايات المتحدة رداً على اقتراح التحكيم "فأتفقتا على (١) ان يكون هناك تحكيم (٢) استبعاد جزء من المطاليب (٣) يجب دعوة رئيس الولايات المتحدة ليقوم بمهمة التحكيم". وجرت مناقشات مفصلة حول صياغة المسودتين واتفقا انه في حالة رفض رئيس الولايات المتحدة قبول مهمة التحكيم على احالة الموضوع الى محكمة العدل الدولية[49].

قبلت المانيا الصيغة التي توصل اليها لانسداون ومترنيخ في لندن واخبرت بذلك السفير الامريكي في برلين. وأصدرت السفارة الالمانية في لندن مذكرة بهذا المعنى عبرت عن املها ان يقبل رئيس الولايات المتحدة التحكيم. واكدت المذكرة "ان الحكومة الالمانية بالتوافق مع الحكومة البريطانية تعتقد انها وجدت في الاشارة الى التحكيم الضمانة التامة لتسوية مرضية للقضية، لهذا فان هذا النهج يستحق التفضيل على الخيار الذي اقترحته اخيرا الحكومة الفنزويلية الذي يتضمن تفاوض الدولتين من خلال وساطة الوزير الامريكي في كراكاس"[50].

على الرغم من الانفراج الذي حدث والمتمثل بدخول القضية في مرحلة مفاوضات التحكيم الا ان الامور سارت على غير ما يرام. ففي السابع عشر من كانون الثاني ١٩٠٣ فتحت النيران من حصن سان كارلوس في ميناء ماراكيبو على القارب المسلح الالماني "بانثر" الذي رد على النار بقصفه وبتدميره للحصن. ودافع المستشار الالماني بيلوف عن عمل بانثر بأنه "رد مبرر بهجوم معادي. فالنار فتحت من الحصن الفنزويلي عندما كان بانثر الذي كان يقوم بممارسة لمهامه في الحصار، يعبر الحاجز الى البحيرة الضحلة المتصلة بالبحر Lagoon. ولو كان الادميرال امريكيا او بريطانيا لما فعل خلاف ذلك"[51].

فضلا عن ذلك لم تحقق المباحثات التي جرت بين ممثلي بريطانيا والمانيا وبين المسؤولين الفنزويلين بوساطة بووين Powen ممثل الولايات المتحدة الامريكية في العاصمة الفنزويلية او ما عرفت بمفاوضات التحكيم عن نتيجة تذكر. فاستنادا الى ما ذكره السكرتير الاول في السفارة الالمانية في لندن بيرنستورف Bernstorff الذي قابل لانسداون نيابة عن السفير البريطاني ان ممثل المانيا في كراكاس كان قد اخبر حكومته ان بووين لم يقدم "اي ضمان مرضي من اجل دفع المطاليب المالية". ورفض

---

[49] Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 22 December, 1902, Ibid. ,No.182, pp. 162.-163

[50] Memorandum Communicated by German Embassy, London, 25 December, 1902 (Translation) B.D., Vol.II, No.183, p.163.

[51] G.D.D., Vol.III, p. 164.

المطاليب الالمانية والبريطانية بان تدفع فنزويلا حالا ٥٥٠٠ جنيه استرليني الى كل من بريطانيا والمانيا دفعة اولية من التعويضات المالية، لذلك هددت الدولة الاخيرة بعدم الدخول في مفاوضات مع بووين حتى تتم الاستجابة الى جملة من المطاليب الاولية...". وطالبت المانيا ايضا ان تدفع فنزويلا تعويضات مالية اخرى عن الهجوم الذي تعرضت اليه المفوضية الالمانية في كراكاس وعن تعرض الرعايا الالمان الى السجن "لكنها لا ترغب في مطاليب اخرى اذا تحققت تسوية سريعة ولكنها ترى انه اذا تحولت القضية الى المحكمة الدولية في لاهاي فانها ستطالب تعويضات عن كل موضوع". واخذ الخلاف يطفو الى السطح بين بريطانيا والمانيا بشأن مفاوضات التحكيم: فبريطانيا لا تحبذ المطالبة بتعويضات اضافية وتحبذ ان يتم فصل المطاليب البريطانية عن المطاليب الالمانية وان تشكل محكمة خاصة للنظر في مطاليب كل دولة. بل ان لانسداون، الذي يبدو انه رغب في رؤية نهاية سريعة للقضية الفنزويلية، اعتقد "ان افضل ترتيب ان يجتمع مفوض بريطاني مع مثيله من فنزويلا اولا وان النقاط التي يصعب التوصل الى قرار لها تحال الى محكم يمكن ان يختاراه"[٥٢].

لم تشترك السفن الحربية البريطانية مع السفن الالمانية في قصف وتدمير حصن سان كارلوس. فقد عبر القائد العام للاسطول البريطاني في شمال امريكا وجزائر الهند الغربية "اني اخالفه [قائد الاسطول الالماني] تماما في هذا العمل واقترح عدم اتخاذ اية خطوة لدعمه لحين ورود تعليمات اخرى"[٥٣]. واستفسر مساعد وكيل وزير الخارجية البريطانية فيليرز F.H. Villiers من لانسداون عن امكانية الطلب من قيادة القوة البحرية "ان توافق سرا على قرار الاسطول البريطاني بعدم المشاركة مع تلك الاجراءات الالمانية". رد عليه لانسداون "اننا نعتقد انه من المستحسن التعبير عن موافقتنا واملنا بان يكون حذرا في تجنب اشراك نفسه في مثل هذه الاجراءات [الالمانية] القاسية"[٥٤]. وكتبت قيادة القوة البحرية الى القائد العام للاسطول البريطاني في شمال امريكا وجزائر الهند الغربية طلبت منه الالتزام بتعليماتها التي كانت قد ارسلتها في السادس عشر من كانون الاول ١٩٠٢ "وانه من الاهمية القصوى ان لا تتورط سفن جلالته الحربية في مثل هذه الاجراءات الخطيرة"[٥٥].

---

[52] Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 22 Junuary, 1903, B.D.,Vol.I No.185, pp. 164-165.

[53] commander – in - chief , North America and West Indies to Admiralty ,23 January , 1903, Ibid., No. 186,p.165.

[54] Minute by F.H.Villiers and Lansdowne, Ibid., Enclosure in Ibid., p. 166.

[55] Admiilalty to Commander – in – chief, North America and West Indies, Admiralty, 24 January, 1903. Ibid ., No. 187, p. 166.

ادت حادثة تدمير حصن سان كارلوس الى إثارة السخط والعداء ضد المانيا في بريطانيا والولايات المتحدة. ففي بريطانيا عارضت العائلة المالكة المتمثلة بالملك ادور السابع والملكة وأمير ويلز اي عمل مشترك تقوم به بريطانيا مع المانيا في فنزويلا واستنادا الى مترنيخ "اننا اعتبرنا مسببي الاذى بالدرجة الاولى بسبب قصف سان كارلوس. ان الرأي العام في انكلترة تمسك على نحو اعمى بوجهة نظر الرئيس كاسترو، وان قصف هذا الحصن تدنيس لتربة فنزويلا المقدسة... ان البريطانين قد تناسوا بالكامل انهم انفسهم الذين قصفوا بيورتو-كابيلو قبل وقت ليس بطويل"[٥٦].

ومن جانبه اخبر لانسداون السفير الالماني في لندن "ان عليه.. ان يدرك ان سخطا كبيرا قد عم في هذا البلد وفي الولايات المتحدة جراء القصف الالماني لسان كارلوس"[٥٧]. واخبرالسفير البريطاني في واشنطن هربرت وزير الخارجية البريطانية لانسداون بانه "عم شعور بالسخط الشديد في الولايات المتحدة وانه في حالة الاخفاق في التوصل الى تسوية مبكرة ، فربما سيكون هناك انفجار للمشاعر قد يقود الى وضع متوتر يضع الرئيس [روزفلت] في وضع حرج خطير"[٥٨].

وفي واشنطن ايضا استدعى روزفلت ، الذي استاء من استمرار فرض الحصار البحري على فنزويلا على الرغم من موافقتها على عرض النزاع على التحكيم وازدادت شكوكه ولا سيما من المانيا[٥٩]، القائم بالاعمال الالماني في الحادي والثلاثين من كانون الثاني ، وعبر عن امله "عن امكانية التوصل الى تسوية سريعة للنزاع الفنزويلي لأن السخط اخذ يتنامى بين صفوف الرأي العام لهذا البلد"[٦٠].

لم تؤثر هذه الحالة في سير مفاوضات التحكيم التي كانت تجري في واشنطن بوساطة بووين حول مطاليب الدول ضد فنزويلا. ومن الجدير بالذكر ان المفاوضات لم تقتصر على المانيا وبريطانيا بل شملت ايطاليا التي شاركت سفنها الحربية في فرض الحصار على الموانيء الفنزويلية لكي تحصل على تعويضات مالية للاضرار التي لحقت بمصالح رعاياها، بالاضافة الى دول اخرى. الا ان أهم ما تميزت به هذه المفاوضات وقوف بريطانيا والمانيا وايطاليا في جبهة واحدة. فقد اخبر

---

[56] Metternich to Bulow , London . 4 February, 1903, private , G.D.D .,Vol III, pp. 164- 166.
[57] Lansdowne to Lascelles , Foreign office,27 January, 1903, B.D. ., Vo1. II No. 190, p. 167.
[58] Herbert to Lansdowne, washington, 26 January, 1903, Telegram, secret, ibid , No. 189, p. 165.
[59] Dulles , op.cit., p. 74.
[60] Herbert to Lansdowne, Washington, 31 January, 1903, Telegram, Ibid,No.192, p. 168.

هربرت لانسداون"باننا الثلاثة نعمل في انسجام تام"[61]. لذلك حاول بووين المفوض الامريكي في كراكاس والوسيط في المفاوضات" ان يفصل المانيا عنا وذلك عن طريق تقديم اغراءات منفصلة الى ممثلها في واشنطن"[62].

وقد اعترف بووين الى السفيرين الايطالي والبريطاني في واشنطن" ان المبدأ الرئيسي لدبلوماسيته كان يهدف الى خلق خلاف بين السفيرين البريطاني والالماني، وان هذا الاعتراف كان له تأثير كبير في الحفاظ على التعاون بين الدول المطالبة بالتعويضات"[63]. واخبرت المانيا بريطانيا بمحاولات الوسيط الامريكي "انه ليس في نية الحكومة الالمانية ان تسمح لنفسها ان تتأثر بهذه الآليات، وانها ستتعاون معنا بأخلاص وانها تشعر بدون شك باننا سنفعل الشيء نفسه". عبر لانسداون "عن الرضا الذي منحني التعرف بان ممثلينا على اتصال وثيق فيما بينهم... وان سلوك بووين يبدو قد جعل التوصل الى تسوية شاملة في واشنطن امرا متعذرا"[64]. ووصف لانسداون بووين بـــ"الوغد" بسبب سلوكه "المخزي" على حد تعبيره[65].

كانت غاية لانسداون، الذي وصفه السفير الالماني في لندن، مترنيخ بـــ"رجل الشرف الذي يفي بالوعود التي يقطعها على نفسه"[66] وضع حد لهذه "المفاوضات المتعبة وهي في مراحلها الاخيرة " لانه كان يدرك "ان القصف الالماني لسان كارلوس قد نجم عنه شعور بالسخط في هذا البلد وفي الولايات المتحدة الامريكية"[67].

عبرت الحكومة الالمانية عبر سفيرها في لندن عن امتنانها لموقف لانسداون الرافض لدبلوماسية بووين الهادفة الى زرع الخلاف بين ممثلي بريطانيا والمانيا في المفاوضات الخاصة بفنزويلا. واوضحت الحكومة الالمانية ان الاقتراح الذي قدمه الوزير الامريكي بووين الذي تضمن ان على المانيا وبريطانيا وايطاليا ان

[61] **Herbert to Lansdowne, Washington, 4 February, 1902, Telegram, Ibid, No. 194, p.169.**
[62] **Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 4 February, 1903, Ibid, No. 195, p.169.**
[63] **G.D.D.,vol III p. 162.**
[64] **Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 4 February, 1903 B.D., Vol.II No.195, p.169.**
[65] **Metternich to Bulow , London . 4 February, 1903, private , G.D.D .,Vol III,P. 165.**
[66] **Ibid.**
[67] **Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 27 January, 1903 B.D., Vol.II, No.190, p.167.**

تقبل بنسبة (٣٠) بالمائة من عوائد الجمارك الفنزويلية لمدة ثلاثة اشهر لارضاء مطاليبهم الرئيسية غير مقبول وارسلت تعليمات الى سفيرها في واشنطن ستيرنبورغ تطلب منه الانضمام مع هربرت السفير البريطاني في واشنطن في رفض هذا الاقتراح[٦٨].

وفي برقية سرية وشخصية اوضح لانسداون الى هربرت موقف الحكومة البريطانية من"التطورات المحتملة للوضع الفنزويلي". فأكد "ان غاية بووين لا تبدو من اجل التسهيل للتوصل الى تسوية عادلة بل الى خلق خلافات بين الدول، لذا فاننا نأسف الى وقف المفاوضات معه". واوضح لهربرت "انه اذا اظهر بووين ميلا الى خلق العقبات امام التوصل الى البروتوكول [الخاص باوليات التفاهم لحل القضية الفنزويلية] التي من المرجح انها ستسبب تأخيرا، فاننا نعتقد انه من الافضل التخلي عن المحاولات الرامية الى التوصل الى تسوية مباشرة معه، وان عليك ان تقترح الرجوع الى البديل الذي ينص على احالة المسائل المتعلقة بالنزاع الى محكمة العدل في لاهاي"[٦٩].

ولا سيما انه سبق للحكومات البريطانية والالمانية والايطالية والفنزويلية ان قبلت في السابع والعشرين من كانون الاول ١٩٠٢ من حيث المبدأ خطة الاحالة وانه اذا تم ترتيب الاوليات الخاصة بالاحالة الى محكمة العدل الدولية التي ستدرس مطاليب الدول الثلاثة التي تفرض الحصار على الموانيء الفنزويلية وكذلك مطاليب الدولة الاخرى وستقرر مبالغ التعويضات التي يتوجب ان تدفعها لهم فنزويلا وتحديد الضمانات لدفعها " فاننا ومن دون شك سنكون مستعدين لرفع الحصار"[٧٠].

سارت المفاوضات فيما يخص الجانب البريطاني على ما يرام حيث وافق بووين على المطاليب البريطانية، وكان البروتوكول الخاص ببريطانيا على وشك التوقيع لولا المطاليب الالمانية والايطالية الخاصة بالبروتوكول الخاصة لكل منها. وبما ان بريطانيا حصلت على ما طلبته فان هربرت اوصى لانسداون "وعلى ضوء الرأي العام هنا [في الولايات المتحدة] فانه من الحماقة من جانبنا اذا اخذنا القيادة في ايقاف المفاوضات مع بووين، واذا كنا ملزمين في دعم المطاليب الالمانية والايطالية، وهو

---

[68] **Lansdowne to Lascelles , Foreign Office 6 February, 1903 ,Confidential, Ibid. ,No. 197, p. 171.**
[69] **Lansdowne to Herbret, Foreign Office 7 February, 1903 Telegram, secret,and private, Ibid ., No. 198, p. 171.**
[70] **Ibid. , pp. 171 – 172.**

امر حسب وجهة نظري، غير منصف... فدع المانيا تقترح قطع المفاوضات وان لا نسمح ان يأتي الاقتراح من بريطانيا العظمى"[٧١].

وأوصى هربرت ايضا بضرورة ان تمارس الحكومة البريطانية الضغط على الحكومتين الالمانية والبريطانية الى تعديل مطاليبهما "وأجد نفسي ملزما لتحذير سيادتكم بان تغييرا كبيرا قد طرأ في مشاعر هذا البلد [الولايات المتحدة] نحونا [منذ نهاية كانون الاول ١٩٠٢]، وان علاقتنا الطيبة مع هذا البلد ستتضرر بشكل خطير اذا استمر هذا الحلف لفترة طويلة مع المانيا. فقد حان الوقت لنا، من وجهة النظر الامريكية، ان نختار بين صداقة الولايات المتحدة والمانيا"[٧٢].

أستدعى لانسداون السفير الالماني في لندن مترنيخ، واوضح له "بصراحة تامة خطورة الوضع واهمية التوصل الى تسوية سريعة، وطبعت في ذهنه بان موقفنا لا يحتمل، اذا قمنا، لا سيما بعد حصولنا على موافقة بووين على مطاليبنا، بقطع المفاوضات لأن فنزويلا ترفض قبول المطاليب الالمانية المتطرفة الخاصة بالاستحقاقات التي تختلف مادياً عن استحقاقاتنا، ولا اعتقد ان موقف المانيا يحسد عليه اذا مثلت المفاوضات تحت هذه الظروف"[٧٣].

ويستطرد وزير الخارجية البريطانية "اني اعتقد بان المانيا تحتاج الى الايفاء بالشرطين فبما يخص بموازنة مطاليبها الرئيسة: (١) يجب ان تحصل على كفالة مضمونة للدفع الاجل... و(٢) ان هذه المطاليب يجب ان لا تكون عرضة للتنقيح. ومن اجل تسهيل اي تسوية يمكن التوصل اليها، اننا مستعدون على الموافقة على ان تأخذ موازنة المطاليب الالمانية الرئيسة الافضلية على المطاليب الالمانية من غير تلك التي غطيت بدفع مبلغ ٥٥٠٠ جنيه استرليني"[٧٤]، التي تدفع نقدا للايفاء بمطاليبها الاولية. اما فيما يتعلق بالشرط الثاني، فقد عبروزير الخارجية البريطانية عن اعتقاده ان حكومة فنزويلا لا تعارضه وانه جدير بالطلب، وحذر السفير الالماني " بأنكم تحت الانطباع بوجود سوء فهم بين القائم بالاعمال الالماني وبووين. فأفعلوا ما استطعتم للتوصل الى تسوية وفقا لما هو اعلاه"[٧٥].

وبعد مفاوضات بين ممثل المانيا وبووين الخاصة بتحديد مدة تدفع خلالها مستحقات المطاليب الالمانية الرئيسة وتحديد موارد محددة من الدخل لبعض

---

71 **Herbret to Lansdowne,Washington 7 February, 1903 Telegram, secret, , Ibid ., No. 199, p. 173.**
72 **Ibid.**
73 **Lansdowne to Herbret, Foreign Office ,9 February, 1903 Telegram Confidential, Ibid. ,No. 200, pp. 172 – 173.**
74 **Ibid. p. 173.**
75 **Ibid**

المؤسسات الفنزويلية كضمان لدفع هذه المستحقات، ومراسلات ولقاءات بين وزير الخارجية البريطانية والسفير الالماني في لندن، تم التوصل الى تسوية حيث وقعت البروتوكولات في الثالث عشر من شباط عام ١٩٠٣"[٧٦].

لقد اوجزتيلي J.A.C.Tilley احد موظفي وزارة الخارجية البريطانية التعاون البريطاني-الالماني في فنزويلا في مذكرتة المؤرخة في الخامس من كانون الثاني ١٩٠٥ بما يلي: "على الرغم من عدم شعبية مشاركتنا مع المانيا في هذا البلد (بريطانيا) الا انها جلبت اعتراف الحكومة الالمانية كيف ان حكومة صاحب الجلالة قد عملت بأخلاص تجاههم رغم ما جابهته من صعوبات كبيرة "[٧٧].

---

[76] **Lansdowne to Lascelles , Foreign Office 12 February, 1903 ,Confidential, Ibid. ,No. 201,pp. 173 - 174.**

[77] **memorandum by J.A.C.Tilly respecting the Relations between Germany and Great Britain,1892-1904 ,Foreign Office,5 January 1905,B.D.,Vol.I, Appendix ,P.335**

الفكر الفلسفي عند الصوفيين (الكلمة) انموذجاً

الدكتور
ياسين حسين الويسي(*)

المقدمة

ان الفكر الصوفي اثبت منذ نعومة إظفاره انه فكر عميق يبرز ذلك من خلال تناول الصوفية للألفاظ والمصطلحات البالغة الدقة والتنوع في المعاني والمدلولات بحسب تجربة كل صوفي، وكما يرى ابن خلدون ان الطرق إلى الله بعدد انفاس الخلائق فأن التعدد في المعاني بحسب التجربة الصوفية ونحن إذ نأخذ مصطلح الكلمة عند الصوفية فأننا نتناول اهم من تكلم في هذا المصطلح بحيث اصبحت له نظرية مستقلة فيه فلقد اشتهر الجنيد والحلاج بأقوال الفناء واشتهر ابن الفارض بالتركيز على الحقيقة المحمدية واشتهر الغزالي بنظرية المطاع، واشتهر ابن عربي وعبد الكريم الجيلي بنظرية الإنسان الكامل، وقد تناولت في المطلب الأول من هذا البحث: الكلمة بمعنى التوحيد والفناء. وفي المطلب الثاني: الكلمة بمعنى الحقيقة المحمدية. وفي المطلب الثالث الكلمة بمعنى الانسان الكامل. وفي المطلب الرابع: الكلمة بمعنى المطاع وقد ختمت البحث بخاتمة تناولت فيها النتائج المتوخاة من هذا البحث واشرت إلى توصية مهمة للباحثين في هذا المجال. وقد اعتمدت على المصادر والمراجع الصوفية المهمة والتي تعتبر الاساس عند الصوفية انفسهم، واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى اله وصحبه اجمعين.
الباحث

المطلب الأول–الكلمة بمعنى التوحيد والفناء

ان ارتباط الكلمة وصلتها بالذات الالهية تتباين لدى أئمة التصوف في الاسلام فهذا الجنيد البغدادي (ت ٢٩٧) يرى ان معنى الكلمة هو التوحيد الذي اخذه من بني ادم في اية الميثاق فيرى الجنيد: (ان ارواح البشر آمنت منذ الازل بالله واقرت بتوحيده وهي لم تزل بعد في عالم الذرو قبل ان يخلق الله العالم والاجسام المادية التي هبطت تلك الأرواح اليها، وان هذا هو التوحيد الكامل الخالص لأنه صدر عن ارواح مطهرة

(*)كلية الآداب –الجامعة المستنصرية.

مجردة من اعراض البدن وآفاته، موجودة لا بوجودها المتعين الخاص، بل وجود الحق ذاته)[١].

وفي هذا المعنى يقول الجنيد: (فقد اخبرك عز وجل أي في آية الميثاق وهي "واذ اخذ ربك من بني آدم... الخ" انه خاطبهم وهم غير موجودين إلا بوجوده لهم إذ كان واجد للخليقة بغير معنى وجودها بأنفسها، بالمعنى الذي لا يعلمه غيره ولا يجده سواه، فقد كان واحداً محيطاً شاهداً عليهم، ابدياً في حال فنائهم)[٢].

وقد انزل الله هذه الارواح من عليائها إلى عالمنا هذا والبسها ابدانها قصداً للبلاء والاختبار، فشغل بعضها بأعراض الدنيا ونسي اصله وموطنه، وحن بعضها إلى العودة إلى ذلك الاصل وجعل غايته الوفاء لذلك الميثاق الذي اخذه الله عليه، والرجوع إلى تلك الحال التي كان عليها قبل ان يوجد في هذا العالم، فإذا تم لهذه الأرواح ما ارادت، وجدت الله بالتوحيد الكامل الخالص–أو ما يقاربه–وفنيت عن وجودها الزمني وبقيت بالله وحده. وفي هذا الفناء في الحق يتحقق معنى الحب له: اذ الفناء عن الذات المتعينة هو عين المحبة لمن تبقى الذات حية فيه ولا تشهد سواه أما الفناء في الحق فقد تحقق أزلاً–في نظر الجنيد–إذ لم يكن في الأزل سوى الله: والفناء هو مطلوب الصوفية الآن)[٣] وهذا التوحيد المتأصل قبل الوجود والذي سبيله الفناء عن الذات بعد الوجود وهو نفس المعنى الذي قال به ابو اليزيد البسطاني (ت ٢٦١) من قبله والحسين بن منصور الحلاج (ت٣٠٩) من بعده فهذا البسطاحي يقول: (اشرفت على ميدان الليسية، فما زالت اطير فيه عشر سنين حتى صرت من ليس في ليس بليس، ثم اشرفت على التضييع حتى ضعت في الضياع ضياعاً، وضعت فضيعت عن التضييع بليس في ليس في ضياعة التضييع، ثم اشرفت على التوحيد في غيبوبة الخلق عن العارف، وغيبوبة العارف عن الخلق)[٤].

أما الحلاج الذي له في الكلمة مدلولات متعددة بأنها الحقيقة المحمدية او هي الفناء عن الذات البشرية والبقاء بالذات الالهية التي هي سبب وجود الموجودات ، بل هي الموجود الوحيد الذي من وجوده انبثقت الموجودات او هي الروح الناطقة والانسان الكامل، وهذه المعاني التي قال بها الحلاج نابعة من فلسفة الحلاج للعبارة التي تقول "خلق الله آدم على صورته" بأنه ارجع الضمير في قوله (على صوته) إلى

---

(١) ابو العلا عفيفي،التصوف الثورة الروحية في الاسلام،دار الشعب للطباعة والنشر،بيروت،ص٢٠٥.

(٢) الجنيد ، كتاب الفناء، مخطوطة اسطنبول، ورقة ١٥٥.

(٣) ابو العلا عفيفي ، التصوف الثورة الروحية في الاسلام ، ص٢٠٥- ٢٠٦ .

(٤) احمد توفيق عباد ، التصوف الاسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ، مكتبة الانجلو ، القاهرة، ١٩٧٠ ، ص٦٧ .

الذات الالهية لا إلى الانسان (فسرها في ضوء نظرية حلولية هي اشبه ما تكون بنظرية النصارى في طبيعة الانسان بوجه عام)[٥].

ان جرئة الحلاج في ابراز هذه النظرية في الكلمة إلى حيز الوجود بعد ان استولت على قلبه كانت السبب الاساسي في صلبه. ومن شواهد هذه الاقوال:

سبحان من اظهر ناموته ... سرسنا لا هوته الثاقب
دثم بدا الخلق ظاهراً ... في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب)[٦]

ومن هذه الأقوال ايضاً:

مزجت روحك في روحي كما ... تمزج الخمرة في الماء الزلال
فاذا مسك شيء مسني ... فاذا انت انا في كل حال)[٧]

وكذلك قوله:

انا من اهوى ومن اهوى انا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا ابصرتني ابصرته ... وإذا ابصرته ابصرتنا)[٨]

ومنها أيضاً:

انت بين الشغاف والقلب تجري ... مثل جري الدموع في الاجفان
وتحل الضمير جوف فؤادي ... كحلول الارواح في الابدان
ليس من ساكن تحرك إلا ... انت حركته خفي المكان)[٩]

هذه الاقوال وغيرها جعلت الحلاج غير مقبولاً في الوسط الاسلامي حتى عند بعض مشايخ الصوفية كما يذكر السلمي فيقول: (رده اكثر المشايخ ونفوه وابوا ان يكون له قدم في التصوف)[١٠] أن هذا الظهور الإلهي في الصورة البشرية على حد تعبيرات الحلاج جعلت من هذا الإنسان الذي هو محط الظهور جعلت منه معنى الكلمة التي انتهى الحلاج إلى معناها بانها (الحقيقة المحمدية) التي قال فيها: (طمس سراج من نور الغيب، بداو عاد، وجاوز السراج وساد قمر تجلى من بين الاقمار، برجه في فلك الاسرار سماه الحق "اميا" لجمع همته، وحرمياً لعظم نعمته، ومكياً لتمكينه عند قربه..... أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الانوار نوراً أنور وأظهر، وأقدم من القدم، سوى نور صاحب الكرم، همته سبقت الهمم،

---

[٥] ابو العلاء عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، ص٢٢٠ – ٢٢١ .
[٦] الحلاج، الطواسين نشره ماسينون، باريس، ١٩١٣، ص١٣٠ .
[٧] المصدر نفسه، ص١٣٤ .
[٨] الحلاج، الطواسين نشره ماسينون، ص١٦٥ – ١٦٦ .
[٩] السلمي (ابو عبد الرحمن) طبقات الصوفية، تحقيق : نور الدين شريبة، ص٣٠٩. كذلك ديوان الحلاج، نشره د. كامل مصطفى الشيبي، ط٢،بغداد ١٤٠٤–١٥٤٨ ،ص٨٠–٨١ .
[١٠] السلمي، طبقات الصوفية، ص٣٠٧.

ووجوده سبق العدم، وأسمه سبق الكلم، لأنه كان قبل الامم.... العلوم كلها قطرة من بحره، الحكم كلها غرفة من نهره، الازمان كلها ساعة من دهره..... الحق وبه الحقيقة، وهو الاول في الوصلة، هو الآخر في النبوة، والباطن في الحقيقة والظاهر بالمعرفة)[١١].

وبالرغم من أن الاستاذ نيكولسون يرى أن الحلاج من القائلين (بقدم النور المحمدي الذي أنبعثت منه جميع أنوار النبوة، ولكنه يجد في عيسى–لا في محمد– المثال الكامل للرجل الذي وصل إلى مقام القربى فحل فيه روح الله. ففي عيسى على هذا الرأي روحان: روح إلهية قديمة ولا تجري عليها أحكام الفناء والتغير، وروح بشرية حادثة تجري عليها احكام الكون والفساد)[١٢] وأرى أن الاستاذ نيكولسون يريد أن يعرض الفلسفة المسيحية بلسان شخص مسلم ليثبت أن المسيحية هي المصدر الاول لفلاسفة الاسلام في حين ان فتى بيضاء راى (أن الانسان هو (صورة الله) ومظهر تجليه فقال: "أن لم تعرفوه ، فاعرفوا آثاره، وانا ذلك الأثر، وأنا الحق، لأني لازلت أبداً بالحق حقاً)[١٣] ويرى الحلاج ايضاً: (ان الله في كل شيء، فكل ما يقع عليه البصر، فهو نقطة بين نقطتين، "والخط" كله نقط مجتمعة، ومن هذا قال: ما رايت شيئاً إلا ورايت الله فيه)[١٤] وبهذا المنطق قال الحلاج: أنا الله... وما في الجبة غير الله وهذا التعدد في معاني الكلمة نلحضه عند الحلاج لكنها تشير إلى شيء واحد هو الواسطة بين الخالق والمخلوق فهو يستخدم الفناء في الحق، والحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل والروح الناطقة، والمعنى الاخير نلمسه في مناجات الحلاج يوم مقتله حيث يقول: (نحن بشواهدك نلوذ وبسنا عزتك نستضيء لتبدي لنا ما شئت من شأنك وانت الذي في السماء عرشك وأنت الذي في السماء إله وفي الارض إله تجلى كما تشاء... مثل تجليك في مشيئتك كأحسن صورة والصورة... هي الروح الناطقة الذي أفردته بالعلم والبيان والقدرة)[١٥] وهو في هذا لا يختلف عن البسطامي الذي يقول: (كمال العارف إحتراقه بربه.... وكنت لي مرآة ، فصرت أنا المرآة)[١٦] وهذا الاحتراق في الله تعالى الذي اشار إليه البسطامي تجلى في مصرع الحلاج حيث (احترق بربه وحرق، احرق بعد قتله في قضية لاتزال تشغل الصوفية والدارسين إلى

---

[١١] الحلاج ، الطواسين ، ص١٦٥-١٧٥ .

[١٢] أ. نيكولسون ، في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ترجمة ابو العلا عفيفي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٨هـ – ١٩٦٩ القاهرة ، ص١٣٤ .

[١٣] الحلاج : الطواسين ، ص٥١ .

[١٤] الحلاج : أخبار الحلاج نشرة ماسينيون وكراوس ، باريس ١٩٣٦ ، ص١٦ .

[١٥] الحلاج : أخبار الحلاج ،ص١١ .

[١٦] السهلجي ، النور من كلمات ابي طيفور ، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي ضمن كتاب (شطحات الصوفية) ، ص١٠٥ .

اليوم)[١٧] ان هذا المنهج الذي بدئه الحلاج في تصوره لمعاني الكلمة من اعتبارات الفناء والحقيقة المحمدية، الروح الناطقة والانسان الكامل، تمحور على شكل مذهب متكامل في ادب ابن الفارض في تائيته الكبرى وفي نظرية الانسان الكامل لعبد الكريم الجيلي.

المطلب الثاني–الكلمة بمعنى الحقيقة المحمدية

لقد عبر الصوفية عن الكلمة بمعنى الحقيقة المحمدية، والروح الاعظم والانسان الكامل المتجسد بشخص النبي محمد (ﷺ) وانه الكلمة الاولى والعقل والمبدأ الأولي ولوغوس سابق، معتمدين على حديث: "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين "وفي رواية" وان آدم لمنجدل في طينته "ان هذا الحديث وغيره من الاحاديث الضعيفة الأخرى التي ورد فيها انه: (أول الخلق، والقبضة النورانية، والعقل)[١٨] ومن تلك الأحاديث الخاصة بالعقل ومنها: (أول ما خلق الله العقل فقال له اقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً اكرم علي منك...الخ)[١٩]وحديث (ما خلق الله عز وجل خلقاً اكرم عليه من العقل)[٢٠] وايضاً حديث (يا ايها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل)[٢١]. ونلاحظ من خلال هذه الاحاديث التي بثتها الأفكار المتحررة في الوسط الإسلامي كأخوان الصفا والاسماعيلية والمتصوفة امتزاج المعاني الصوفية للكلمة بالفلسفة اليونانية التي عبرت عن الكلمة بالعقل فلقد (سوى الصوفية بين الحقيقة المحمدية وبين العقل، سووا بينها وبين الروح الأعظم)[٢٢]. فهذه الحقيقة المحمدية (هي الروح الاعظم المبعوث إلى النفس الكلية ثم إلى النفوس الجزئية. ولئن تجلت الحقيقة في الانبياء ببعض اسمائها وصفاتها، فلقد تجلت في المظهر المحمدي بذاتها وجميع صفاتها)[٢٣] وهذا الترابط والامتزاج بين الحقيقة المحمدية المتمثلة بالانسان الكامل والمتجلية في المظهر المحمدي نلمسها في

---

[١٧] يوسف زيدان ، الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٨ – ١٩٨٨ ، ص١٤١ .

[١٨] د. عاطف جودة نصر ، شعر عمرو الفارض ، دراسة في فن الشعر الصوفي ، دار الاندلس ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٠٢ – ١٩٨٢ ، ص٢٠٣ .

[١٩] ذكره الطبراني في الاوسط من حديث ابي امامة ، وابو نعيم من حديث عائشة باسنادين ضعيفين ، وذكره الغزالي في الاحياء بسند ضعيف ايضاً .

[٢٠] رواه الحكيم الترمذي في النوادر من رواية الحسن عن عدة من الصحابة ، وبسند ضعيف.

[٢١] رواه داود بن المجد من حديث ابي هريرة في مسند الحرث بن ابي اسامة عن داود ، قال الحافظ العراقي وداود هذا احد الضعفاء .

[٢٢] د. عاطف جودة نصر ، شعر عمر بن الفارض ، ص٢٠٤ .

[٢٣] عبد الرزاق الكاشاني، كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدر وهو على هامش الديوان بشرحي البوريني والنابلسي، ج١، ص٢٣-٢٤.

نصوص الصوفية فهذا ابن عربي يقول: (لما كان الإنسان أول موجود بالفعل في العلم واسمه العقل، وثاني موجود بالتفاعل واسمه المعقول، وثالث موجود بالمعرفة في الفاعلية والشهود واسمه العاقل، فهو العقل والعاقل والمعقول، وجبت خلافته عن الله تعالى ونيابته عنه في الابانة لسائر المخلوقات ودلالته عليه في جميع التجليات واشارته اليه في جميع الظهورات)[٢٤] وعلى ذلك فأن الحقيقة المحمدية عند الصوفية: (أول مخلوق لأن حقيقته كانت موجودة في الهباء وهو أول الخلق فلما تجلى بنوره إلى ذلك الهباء والعالم فيه بالقوة ، قبل منه كل شيء على حسب قربه من النور، ولم يكن احد اقرب اليه من حقيقته (ﷺ). فكان مبدأ ظهور العالم وأول موجود)[٢٥]ويرى جولد تسيهر: (ان فكرة انطباع صور المصطفين في العرش قد أتت من تصورات يهودية، حيث تقول الهجادا في إحدى الروايات وان صورة الانسان الموجود بالجزء الأعلى من العرش السماوي، هي صورة يعقوب التي رفعت إلى عرش الله، والملائكة الذين يصعدون وينزلون على سلم السماء يعرفون في وجه الرحالة النائم الصورة السماوية الأولى (حزقيل١-٢٦)[٢٦] والحق ان رؤى الصوفية للحقيقة المحمدية تختلف تماماً عن ما يقرره جولستيهر فلقد فهم الصوفية سبق محمد (ﷺ) لآدم في الوجود والخلق وتأخره عنه في الظهور من خلال بعض النصوص مثل قوله تعالى {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم}[٢٧].

وحديث " اول ما خلق الله نور نبيك يا جابر "كل ذلك يجعل للصوفية سند اسلامي في هذا الفهم وليس يهودياً. (ولعل الصوفية قد ادركوا وجه المفارقة في كون نبوته عليه السلام كانت قبل آدم مع انه لا حق عليه في الظهور وهي تبدو في شكل- مفارقة السابقة واللاحقة أو الأول والآخر، وهي مفارقة يبررها مذهبهم في الوجود، لأن الوجود عندهم له حقيقة ومعنى في عالم الغيب، وله ظهور وشهادة وصورة هي في تمام التطابق مع المعنى، وبعبارة أخرى يقولون ان للوجود مبدأين، مبدأ الوجود بالقوة ، ومبدأ الوجود بالفعل أو الوجود على هيئة الامكان والوجود على هيئة الواقع، ومعنى ذلك إن الوجود الخارجي للنبوة وهو الوجود الفعلي الواقعي في العالم، مجرد مظهر لصورة هذا الوجود في العلم الالهي القديم)[٢٨] والذي نتفق فيه مع جولدستيهر هو ان نبوة الروح الأعظم بحسب ما يراه الصوفية انها (ذات حركة دورية في مسار

---

[٢٤] ابن عربي ، مرآة المعالي في ادراك العالم الانسالي ، مخطوط بدار الكتب برقم (٣١) مجاميع ، ص٣٩٣ .

[٢٥] د. عاطف جودة نصر ، شعر عمر بن الفارض ، ص٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

[٢٦] جولتسيهر ، العناصر الافلاطونية والغنوصية في الحديث ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ، ط٣ ، ١٩٦٥ ، ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، دراسات لكبار المستشرقين ، ص٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

[٢٧] سورة الاحزاب ، الآية ٧ .

[٢٨] د. عاطف جودة نصر ، شعر عمر بن الفارض ، ص٢٠٥ .

التاريخ ينطبق فيها الطرفان، وتلتحم البداية بالنهاية التي هي ختم النبوة، فنبوته (ﷺ) ممدة للكل وظاهرة فيه على شكل أدوار تترى ، لأنها نبوة الروح الأعظم)[٢٩] كذلك يرى الصوفية بحسب جولدتسيهر (ان الخلاف بين الانبياء لم يكن إلا في المظهر الخارجي ، اما في الحقيقة فأنه رسول واحد بعث إلى العالمين في أزمنة مختلفة وفي مظاهر جسمانية متباينة كي يعلن للناس ارادة الله وينبئهم بمشيته)[٣٠] ويرى ابن الفارض ان هذه الكلمة المتمثلة في الحقيقة المحمدية يمكنها الاتحاد بروح الصوفي ويعبر عن هذا الاتحاد بالأبيات الآتية:

وقد جاءني مني رسول عليه ما ... عنت عزيز بي حريص لرأفتي
ومن عهد عهدي قبل عصر عناصري ... إلى دار بعث قبل انذار بعثة
إليّ رسولاً كنت مني مرسلاً ... وذاتي بآياتي علي استدلت)[٣١]

ومن هذه الابيات نستدل على ان نهاية طريق الصوفي هو الوصول إلى ذلك النور والتكلم بلسانه، (فالنور المحمدي عندهم هو الروح الالهي الذي نفخ الله منه في ادم ، او شيء اشبه بالعقل (Nous) الذي قال به افلاطون وعده أول الفيوضات التي صدرت عن "الواحد الحق" واشبه بالكلمة الالهية التي ذكر بعض الغنوصين المسيحيين انها تظهر بصورة الانبياء، وانها مصدر الوحي، ولكن النظرية الاسلامية في "الكلمة الالهية" نظرية متعددة الصورة، منصبغة إلى حد كبير بالصبغة الصوفية)[٣٢] ان صعوبة فهم النظرية الصوفية في الكلمة تظهر في تمييزهم بين الصورة الجسدية المحمدية وبين الحقيقة المحمدية (ولذا يتعذر فهم تفاصيلها في أغلب الأحيان على الرغم من وضوح معالمها الرئيسة فمحمد أو بالاحرى الحقيقة المحمدية–لا الصورة المحمدية الجسدية–هو مبدأ الحياة ومركزها في العالم. فهو بهذا المعنى روح كل شيء وحياته. وهو من جهة اخرى الواسطة بين الله وعباده، والمنبع الذي يفيض منه على العارفين معرفتهم بالله على نحو ما يعرف الله نفسه، وتصل اليهم منه العطايا والمنح الالهية)[٣٣].

ان الرسول الذي اشار اليه ابن الفارض هو (الروح الكلية التي ارسلتها الذات الاحدية إلى النفس الكلية بآيات صفاتها وأسماءها وحقيقة النفس والروح وغيرها هي الذات النازلة إلى المراتب محجبة بحجب التعينات، ووصف الرسول بالشفقة والحرص

---

(٢٩) المصدر نفسه ، ص٢٠٦ .
(٣٠) جولدتسيهر ، العناصر الافلاطونية والغنوصية في الحديث ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، ص٢٣٥ .
(٣١) د. عاطف جودة نصر ، شعر عمر بن الفارض ، ص٢٠٦ .
(٣٢) نيكولسون، في التصوف الاسلامي وتاريخه، ص١٥٩ .
(٣٣) نيكولسون، في التصوف الاسلامي وتاريخه، ١٥٩ .

لأن الروح شفيقة على النفس حريص بتربيتها لما بينهما من التلازم والتعاشق الأزلي، وحكى بلسان الجمع عن هذا المقام فأخبر انه رسول مرسل منه اليه، فالذات باعتبار التجرد والابتداء تكون مرسلاً، وباعتبار تلبسها بلباس النفس تكون مرسلاً اليها فهي رسالة ازلية قبل الميثاق وقبل العناصر وتعلق الروح بالجسم)[٣٤] وفي ذلك اشارة إلى (ان هذه النبوة هي صورة الروح الأعظم ومظهره)[٣٥].

وقد يعبرون الصوفية: (عن الحقيقة المحمدية بصاد (ﷺ) لأنه صورة الحق)[٣٦]، أما الأحاديث التي اعتمدها الصوفية في وصف الحقيقة المحمدية بالعقل والروح الأعظم والنور، والقبضة النورانية، مثل حديث "ان الله قبض قبضة من نوره وقال لها كوني محمداً فكانت"، وحديث "اول ما خلق الله نوري" جاءت متطابقة مع فهم الصوفية للحقيقة المحمدية على انها (الكلمة الالهية).

اما الاحاديث السالفة فلقد تأولها الصوفية بشيء من الذوق وضرب من الحس (والقبضة عندهم هي التعّين الذاتي لا يوصف بقبلية ولا بعدية، والمراد بهذا التعيين ظهور الحقيقة المحمدية في نفسها ومراتبها، والتعيّن لا يوصف باتصال ولا بانفصال او اقتطاع، بل ذلك كله عبارة عن تعين الغيب من غيبة في عينه والكينونة المشار اليها في الحديث ليست على معناها الوضعي، بل المراد بها خطاب التعين نفسه في نفسه فالأمر بالنسبة للتعين الصادر عن ان لا تعين)[٣٧].

وخطاب التعين الصادر والأمر عن ان لا تعين هو الكلمة والمعنى المتجسد في الحقيقة المحمدية التي عبر ابن الفارض بلسان هذه الحقيقة بقوله:

واهل تلقي الروح باسمي دعوا إلى	سبيلي وحجوا الملحدين بحجتي
وكلهم عن سبق معاني دائر	بدائرتي او وارد من شريعتي
واني وان كنت ابن ادم صورة	فلي فيه معنى شاهد بأبوتي
ونفس على مجر التجلي برشدها	تجلت وفي مجر التجلي ... تربت
ولا تحسبن الامر عني خارجاً	فما ساد إلا داخل في عبودتي
ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن	شهود ولم تعهد عهود ... بذمتي
فلاحي إلا عن حياتي حياته	وطوع مرادي كل نفس ... مريدة
ولا قائل إلا بلفظي محدث	ولا ناظر إلا بناظر ... مقلتي

---

[٣٤] د. عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض، ص٢٠٦ــ ٢٠٧.

[٣٥] الكاشاني، كشف الوجوه الغر، ج٢، ص٧٩ــ٨٠.

[٣٦] كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني، اصطلاحات الصوفية ، مخطوط بمكتبة الأزهر برقم (٦٤٠٩) في اربعين ورقة ضمن مجاميع.

[٣٧] ابو بكر بناني، مدارج السلوك إلى مالك الملوك ، ط١، ١٣٣٠هـ ، في تعليق على الصلوات المشيشية، ص١٥٦.

ولا منصت ولا بسمعي سامع　　　ولا باطش إلا بأزلي وشدةِ
ولا ناطق غيري ولا ناظر ولا　　　سميع سوائي من جميع الخليقة
وفي عالم التركيب في كل صورةٍ　　　ظهرت بمعنى عنه بالحسن زينتي)[٣٨]

المطلب الثالث – الكلمة بمعنى الانسان الكامل

لقد اتخذت الكلمة عند الصوفية معاني كثيرة ومتعددة ولكنها تدل على شيء واحد هو المخلوق الأول واصل الوجود والواسطة بين الله تعالى ومخلوقاته، وهذا المخلوق يقابل الحق من جهة ويقابل الخلق من جهة اخرى فهو انسان في مقابلته الحق وكامل في مقابلته للخلق فقد اصطلح عليه الصوفية (الانسان الكامل) وعليه فالانسان الكامل عند الجيلي هو: (صورة كمال الذات الازلي التخليد.. وخليفة الله الذي اشارت اليه الايات)[٣٩] ويريد بذلك قوله تعالى {واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة}[٤٠]، وقد وصف عبد الكريم الجيلي هذه المرتبة قال:

فإني إياها بغير تأول　　　كما انها اياي والحق واسع)[٤١]

ان مقابلة الانسان الكامل للحق تتضح عندما تظهر الصفات الالهية فيه وهذه الصفات السبع هي (الحياة–العلم–الارادة–القدرة–الكلام–السمع–البصر) والتي يتأولها الجيلي بأنها السبع المثاني في قوله {ولقد اتيناك سبعاً من المثاني }[٤٢]. وهذه الصفات الذاتية يسميها الجيلي بـ (امهات الظهور)[٤٣]. وسوف نعرض رأي الجيلي في تجلي بعض هذه الصفات الالهية في الانسان الكامل وهي مترابطة.

فالحياة هي صفة الله تعالى وهو الحي وحياته هي الحياة التامة التي لا يلحقها الموت والفناء (والانسان الكامل تظهر فيه "الحياة" بصورتها التامة فهو موجود وجوداً حقيقياً لا اضافياً، فهو الحي التام الحياة)[٤٤] وفي العينية يقول:

(وجسمي للأجسام روح مدبر　　　وفي ذرٍّ منه الانام جوامع)[٤٥]

---

[٣٨] د. عاطف جودة نصر ، شعر عمر بن الفارض ، ص٢٠٧ .
[٣٩] عبد الكريم الجيلي ، الكهف من الرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم مخطوط بمكتبة البلدية ، الاسكندرية ، برقم ١٧٨٦ د/تصوف نسخة ضمن مجموعة ، ورقة ٢ .
[٤٠] سورة البقرة ، الاية ٣٠ .
[٤١] عبد الكريم الجيلي،النادرات العينية،نشرة د. يوسف زيدان مع شرح النابلسي،البيت ٤٨٥.
[٤٢] سورة الحجر من الاية ٨٧ .
[٤٣] عبد الكريم الجيلي ، شرح مشكلات الفتوحات المكية وفتح الابواب المغلقات من العلوم اللدنية ، مخطوط برقم ٨١٣٧٩ د/تصوف بمكتبة البلدية ، الاسكندرية ، ورقة ١٨ أ .
[٤٤] عبد الكريم الجيلي ، الانسان الكامل في معرفة الأمواخر والاوائل ، مطبعة صبيح بالازهر، ١٩٦٠ ، ج١ ، ص٤٢ .
[٤٥] عبد الكريم الجيلي ، النادرات ، البيت ٤٩٣ .

أما العلم (الله هو العليم، والعلم صفة نفسية ازلية لازمة للحياة)[٤٦] ويتفق الجيلي مع ابن عربي في ان (لا يجوز القول بأن المعلومات اعطته-تعالى-العلم من ذاتها فأن ذلك يلزم ان يكون قد استفاد من غيره تعالى عن ذلك... وكما ان الانسان الكامل مظهر للحياة التامة التي تقوم عليها كل حياة، فهو كذلك مظهر العلم التام، الذي يعلم منه كل عليم، فالانسان الكامل لا يحجب عنه شيء)[٤٧] واشار الجيلي إلى نفس المعنى في العينية حيث يقول:

واعلم ما قد كان في زمن مضى وحالاً وأدري ما أراه مضارع)[٤٨]

والارادة: وهي (تجلي أمر الله على حسب ما يقتضيه علمه وحكمته... والاراد كما هي صفة ذاتية للحق، فهي كذلك صفة ذاتية للإنسان الكامل فهو يفعل ما يشاء)[٤٩] ويصور هذا المعنى في بيت شعري رائع في العينية فيقول:

وأجري على لوح المقادير ما اشا وبالقلم الاعلى فكفي بارع)[٥٠]

والقدرة التي هي (ابراز المعلومات واختراع الأشياء من العدم إلى الشهود على حسب ما يقتضيه علمه المحيط بالعدم والشهود... او ايجاد المعدوم على ما يقتضيه العلم الالهي. وتظهر القدرة في الانسان الكامل بتمامها وتتجذب الموجودات إلى امتثال امره، كما تنجذب الابرة إلى جبل المغناطيس، فهو متصرف تماماً في الاشياء)[٥١] وإلى نفس المعنى يشير في قصيدته فيقول:

اصور مهما شئت من عدم كما اقدر مهما شئت وهو مطاوع)[٥٢]

واما مقابلة الانسان الكامل للخليفة واثبات التوازي والمشابهة بين الانسان والكون فأن الصوفية يستندون إلى بيت شعر ينسب إلى علي بن ابي طالب عليه السلام وفيه:

"وتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر"

فهذا الانسان هو خليفة الله (والخليفة لا بد ان يكون موصوفاً بجميع الصفات الالهية إلا الوجوب الذاتي، ومتحققاً بكل اسمائه ليعطي مظاهر الاسماء كلها ما

---

(٤٦) يوسف زيدان ، الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨ ، ص٨٧ .
(٤٧) عبد الكريم الجيلي ، الانسان الكامل ، ج١ ، ص٤٤ بتصرف .
(٤٨) عبد الكريم الجيلي ، النادرات ١ : ٥ .
(٤٩) عبد الكريم الجيلي ، الانسان الكامل ، ج٢ ، ص٤٨ .
(٥٠) عبد الكريم الجيلي ، النادرات ٥٣٠ .
(٥١) عبد الكريم الجيلي ، الانسان الكامل ، ج٢ ، ص٤٨ .
(٥٢) عبد الكريم الجيلي ، النادرات ٥١٦ .

يطلبونه، ويوصل كلاً منهم إلى كماله، وإلا لا يقدر على الخلافة وانما "قيدنا إلا الوجوب الذاتي" اذ به يمتاز "الواجب" عنه، بامكانه يمتاز "الخليفة" عن "الواجب")[٥٣].

وهذا الانسان الكامل (يقابل الحقائق العلوية بلطافته ويقابل الحقائق السفلية بكثافة، ويقابل العرش بقلبه والكرسي بانيته وسورة المنتهي بمقامه والقلم الاعلى بعقله واللوح المحفوظ بنفسه، ويقابل العناصر بطبعه والهيولي بقابليته، والبهاء بحيز هيكله، ويقابل الفلك الاطلس برأيه والفلك المكوكب بمدركته، ويقابل السماء السابعة بهمته والسادسة بوهمه والخامسة بهمه، والرابعة بفهمه والثالثة بخياله والثانية بفكره والأولى بحافظته)[٥٤]، ويقابل ايضاً الأفلاك العلوية وعناصر الطبيعة فهو (يقابل زحل بالقوى اللامسة والمشتري بالقوى الدافعة والمريخ بالقوى المحركة، والشمس بالقوى الناظرة والزهرة بالقوى المتلذذة وعطارد بالقوى الشامة والقمر بالقوى السامعة، ويقابل النار بحرارته والماء ببرودته والهواء برطوبته والتراب بيبوسته)[٥٥] فهذا الانسان بالنسبة إلى مراتب الوجود (فهو اخر مراتب التنزلات-ثم شرع الانسان يترقى منه ، وفيما تنزل فيه من المراتب الوجودية، متدرجاً، سالكاً على مراتب الوجودية، إلى ان يرتقي ويصل إلى المبدأ الأول وعلة العلل الذي بدأ منه أولاً)[٥٦].

أما عن العوالم الخارجية (فأول العوالم في الوجود الخارجي، هو عالم العقول والنفوس المجردة، المسمى بعالم الجبروت-ثم عالم المثال المطلق، الذي لكل (موجود) من الموجودات المجردة وغير المجردة، فيه صورة مثالية، مدركة بالحواس الباطنية، ويسمى بعالم الملكوت-ثم عالم الملك الذي هو العرش والكرسي والسماوات والعناصر وما يتركب منها)[٥٧]، وهذه العوالم الثلاثة الجبروت، والملكوت والملك هي (صور ما في العلم الالهي من الاعيان الثابتة، المسماة بالماهيات الممكنة والحقائق)[٥٨] وهذه الماهيات والحقائق تتجلى كلها في الانسان الكامل او العقل الأول (وهذا العقل الأول المشار اليه، هو الروح المحمدي صلوات الله وسلامه عليه-كما اشار اليه بقوله (أول ما خلق الله نوري) وفي رواية (روحي)، وذلك باعتبار اتصاف روحه بالكلية)[٥٩] ويرى الجيلي (ان الله خلق روح محمد من ذاته، فجعله مظهراً لكماله وجماله وجلاله،

---

[٥٣] داود القيصري ، المقدمات على شرح التائية الكبرى ، تحقيق : عثمان يحيى ، كتاب الحكمة المتعالية في الاسلام ضمن كتاب نصوص فلسفية لم تنشر ، د. عثمان امين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ، ص٢٧٤- ٢٧٥ .

[٥٤] عبد الكريم الجيلي ، الانسان الكامل ، ط ، ١٩٦٣ ، ج٢ ، ص٤٧ .

[٥٥] عبد الكريم الجيلي ، الانسان الكامل ، ص٤٧ .

[٥٦] داود القيصري ، المقدمات على شرح التائية الكبرى ، ص٢٣٧ .

[٥٧] المصدر نفسه ، ص٢٣٨ .

[٥٨] المصدر نفسه ، ص٢٣٨ .

[٥٩] داود القيصري ، المصدر السابق ، المقدمات على شرح التائية الكبرى، ص١٢٨— ٢٣٩ .

ثم خلق العالم بأسره من روح محمد)[٦٠] فالانسان الكامل هو (اصل الوجود، أو هو القطب الذي تدور عليه رحى الوجود من أوله إلى آخره)[٦١] وبعد هذا الفهم للكلمة على انها الانسان الكامل وان هذا الانسان هو (الحق، وهو الذات وهو الصفات، وهو العرش، وهو الكرسي، وهو اللوح، وهو القلم، وهو الملك، وهو الجن، وهو السماوات وكواكبها والارضون وما فيها)[٦٢].

وبعبارة الجيلي فأن الانسان الكامل هو (الحق وهو الخلق، وهو القديم، وهو الحادث فلله در من عرف نفسه معرفتي اياها، لأنه عرف ربه لمعرفته لنفسه)[٦٣]. وخلاصة كل هذه الاقوال ان الانسان الكامل (هو محمد (ﷺ) والباقون من الانبياء والاولياء، ملحقون به لحوق الكامل بالاكمل)[٦٤]. وهذا اللفظ كما يرى الجيلي (لا يجوز إلا لمحمد (ﷺ) إذ هو الانسان الكامل بالاتفاق... واسمه الاصلي محمد، وكنيته ابو القاسم، ووصفه عبد الله ولقبه شمس الدين)[٦٥].

المطلب الرابع: الكلمة بمعنى المطاع في نظرية الغزالي

ان الغزالي من الشخصيات التي تميزت في الفكر الاسلامي وذلك أنه كان متكلماً "اشعريا" وفيلسوفاً ناقداً للفلسفة وصوفياً عز نظيره، وفي الحقيقة انه بالرغم من ان الجمع بين هذه الامور يبدو جيداً إلا انه لا يخلو من تشوه ايضاً. وبالرغم من ان العلوم الثلاثة هدفها الوصول إلى الحقيقة. إلا ان الطرق والمناهج مختلفة، فما يقول به الفلاسفة قد لا يكون مقبولاً عند المتكلمين والصوفية لتضاربه مع النص مثلاً مما يؤدي إلى الاخلال بقواعد العقيدة والايمان. وما يقول به الصوفية في مجال المعرفة الذوقية قد لا يكون مقبولاً عند الفلاسفة والمتكلمين لأنه لا يخضع للعلم البرهاني فهو لا يلازم إلا صاحبه، وما يقول به المتكلمين قد لا يكون مقبولاً عند الفلاسفة والصوفية. لأن اسباب العلم عندهم موقوفة على الوحي والخبر الصادق والعقل، والحواس، بل ان الغزالي يرى (ان مذهب المتكلمين جملة وتفصيلاً اوهام لا توصل إلى اليقين)[٦٦]، في حين ان الكشف والمشاهد، اسباب لا يمكن للصوفي لا يتجاوزها وان كانت لا تلزم غيره إلا انها عنده علوم يقينية، وكذلك الاشراق عند الفلاسفة الاشراقيين الذين يعتبرونه سبباً للمعرفة يتأتى عن طريق الرياضة والمجاهدة. والغزالي في تناوله

---

[٦٠] عبد الكريم الجيلي ، الكهف والرقيم ، ورقة ٥ أ .
[٦١] عبد الكريم الجيلي ، الانسان الكامل ، ج٢ ، ص٤٦ .
[٦٢] يوسف زيدان ، الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي ، ص٩٣ .
[٦٣] عبد الكريم الجيلي،مراتب الوجود وحقيقة كل موجود،مكتبة الجندي،القاهرة ،(د ت)، ص٤٢ .
[٦٤] د. يوسف زيدان ، الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي ، ص٩٣ .
[٦٥] عبد الكريم الجيلي ، الانسان الكامل ، ج٢ ، ص٤٧ .
[٦٦] د. حسام الالوسي ، دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٠ — ١٩٨٠ ، ص٢٤٩ .

لمعنى الكلمة يبقى متحيراً بين شخصياته الثلاثة، فهو في نظرية المطاع لا يستطيع ان يتجاوز موقفه. كمتكلم اشعري فقد اخذ نظرية الاشاعرة في الكلمة ولكنه توسع في تفسير الآية التي اعتمدها الاشاعرة في نظريتهم التي لابد من ذكرها بايجاز باعتبارها مقدمة لنظرية الغزالي في المطاع لقد قال الاشاعرة: (ان من كلام الله كلمة التكوين والامر الالهي وانهم استشهدوا بالآية {ألا له الخلق والأمر}[٦٧] على ان الامر قديم "وهو من كلام الله" لأن الله تعالى يستعمله في مقابلة الخلق : فكان لله عالمين عالم الخلق-وهو العالم المحسوس-وعالم الامر وهو العالم المعقول او العالم الروحي)[٦٨] ويذكر الدكتور عفيفي ان الغزالي (قد تناول نظرية الاشاعرة من بعدهم.. فتوسع فيها بعض التوسع وصبغها صبغة فلسفية تصوفية وانتهى بها إلى نظرية في "الكلمة")[٦٩] أما الاستاذ نيكولسون فهو يميل إلى الاعتقاد بأن نظرية الغزالي في (المطاع " تتفق مع نظريات المتأخرين من الصوفية: وان المطاع يمثل الصورة المثالية التي يسمونها الحقيقة المحمدية او الروح المحمدي: الانسان السماوي الذي خلقه الله على صورته، ويعتبرونه قوة كونية يتوقف عليها نظام العالم وحفظه)[٧٠].

والمطاع اللفظ الذي يعتبره الدكتور عفيفي غريباً اذ لم يستعمله إلا في مشكاة الانوار حيث يقول: ("والمطاع" كلمة غريبة لا ادري اذا كان الغزالي يستعملها في أي مؤلف من مؤلفاته عدا "مشكاة الانوار)[٧١] في حين يرى الاستاذ نيكولسون ان (الغزالي استعار اسم المطاع من القرآن حيث ورد قوله تعالى {قل اطيعوا الله والرسول}[٧٢] الخ من الايات التي لها اهميتها في نظرية المسلمين في "الكلمة" والذين يعرفون اللغة العربية منكم يعلمون ان كلمة "المطاع" اسم مفعول من أطاع: والأمر منها "اطيعوا" الواردة في الآية، فالأمر الإلهي الوارد باطاعة الرسول يقتضي في نظر كل مسلم ان الرسول هو المطاع)[٧٣] بينما يرى الدكتور حسام الالوسي (ان الغزالي يريد بالواصلين اتباع المدرسة الفيضية، وان "المطاع" هو العقل الأول الذي هو اول ما يفيض عن الله)[٧٤]، ويستدل على ذلك من قول الغزالي في المشكاة (ان هذا "المطاع" موصوف بصفة تنافي الوحدانية المحضة والكمال البالغ، لسر لا يحتمل هذا الكتاب كشفه... وان نسبة هذا المطاع إلى الوجود الحق (وهو الله) نسبة الشمس إلى النور المحض او نسبة

---

[٦٧] سورة الاعراف ، الاية ٥٤ .
[٦٨] ابو العلا عفيفي ، نظريات الاسلاميين في الكلمة ، ص٤٣ .
[٦٩] المصدر نفسه ، ص٤٣ .
[٧٠] نيكولوسن ، في التصوف الاسلامي ، ص١٤٧ .
[٧١] ابو العلا عفيفي ، نظريات الاسلاميين في الكلمة ، ص٤٣ .
[٧٢] سورة ال عمران ، الاية ٣٢ .
[٧٣] نيكولسون ، في التصوف الاسلامي ، ص١٤٧ – ١٤٨ .
[٧٤] د. حسام الالوسي ، دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي ، ص٢٤٧ – ٢٤٨ .

النار إلى جوهر النار الصرف ، فتوجهوا من الذي يحرك السماوات ومن الذي امر بتحريكها فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم، إذ وجدوه منزه ومقدس عن كل ما وصفناه من قبل)(٧٥) ويفسر الالوسي هذا النص بأن المراد من المطاع هو العقل الأول فيقول: (هذا المطاع عندي هو العقل الأول عند الفيضيين وهو ليس واحداً لأنه ممكن بذاته، واجب الوجود بغيره)(٧٦).

وفي الوقت الذي يقدم الالوسي تفسيره لكلام الغزالي في المطاع نجده ينتقد الدكتور عفيفي في فهمه لنص الغزالي السالف بأن (المطاع لا محالة كلمة شديدة الارتباط بالأمر كما شخصه الاشاعرة حتى صار موجوداً له صفات غير صفات الوحدانية المحضة والكمال البالغ الذي لله)(٧٧) فيقول الالوسي (ومن هنا يبدو غلط عفيفي في مقدمته للمشكاة حيث اختلط عليه الأمر وشوش على قارئه كثيراً ، وخلص إلى ان المطاع هنا ليس العقل الأول وان الغزالي لا يشير إلى نظرية الفيض بحجة انه نقضها في كتابه (التهافت)(٧٨)وانه انما يصدر عن فكرته الاشعرية أي رأي الاشاعرة في كلام الله)(٧٩). والدكتور عفيفي يتسائل: (فهل يعني الغزالي "بالمطاع" العقل الالهي الظاهر اثره في الوجود، الساري في جميع المخلوقات: أي تلك القوة العاقلة التي تدرك عن طريق افعالها وآثارها والتي بها يتصل الانسان بطريق الوحي والالهام؟ واذا كان كذلك "فالمطاع" هو الكلمة (Logos) ونظرية الغزالي نظرية اسلامية في "الكلمة" لا شك فيها فيكون "المطاع" على هذا اشبه شيء "بالخليقة" او "البرزخ")(٨٠).

ومن خلال النظر في الآراء السالفة الذكر يتبين ان هناك ثلاثة آراء في أصل نظرية الغزالي في "المطاع" وهي:

١. يرى الاستاذ نيكولسون ان أصل نظرية الغزالي في المطاع مرتبط بآراء الصوفية "فالمطاع" عند الغزالي بحسب رأي نيكولسون هو الروح المحمدي او الحقيقة المحمدية، أو العقل، أو الإنسان الكامل المتمثل بشخصية النبي محمد (ﷺ) حيث يقول: (فالأمر الإلهي الوارد باطاعة الرسول يقتضي في كل مسلم ان الرسول هو " المطاع")(٨١).

---

(٧٥) الغزالي ، مشكاة الأنوار ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٢ ، ص٥٤ – ٥٦ .

(٧٦) د. حسام الالوسي ، دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي ، ص٢٤٧ ، الهامش (٢١) .

(٧٧) ابو العلا عفيفي ، لنظريات الاسلاميين في الكلمة ، ص٤٥ .

(٧٨) ابو اعلا عفيفي ، مقدمته في تحقيق كتاب مشكاة الأنوار للغزالي، القاهرة، ١٩٦٤، ص١٧ و٢٩.

(٧٩) د.حسام الالوسي، دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي، ص٢٤٨

(٨٠) ابو العلا عفيفي، نظريات الاسلاميين في الكلمة، ص٤٥– ٤٦ .

(٨١) نيكولسون، في التصوف الاسلامي ، ص١٤٨.

٢. رأي الدكتور عفيفي الذي يخلص إلى ان اصل نظرية الغزالي في "المطاع" هو اصل كلامي، بل هو امتداد لنظرية الاشاعرة في (ان من كلام الله كلمة التكوين والأمر الإلهي... ولكنه بالفعل يقصد بالمطاع شيئاً اشبه بالأمر الإلهي الذي مثلته الاشاعرة وجعلت منه شخصية لها القوة على الخلق والتدبير)[٨٢].

٣. رأي الدكتور الالوسي والذي يقضي بان أصل نظرية الغزالي في "المطاع" اصل فلسفي فيضي فهو يرى: (ان الغزالي يريد بالواصلين اتباع المدرسة الفيضية، وان "المطاع" هو العقل الأول الذي هو أول ما يفيض عن الله)[٨٣]، ويستدل على ذلك بأن هذا المطاع (موصوف بصفة تنافي الوحدانية المحضة)[٨٤] والعقل الأول عند الفيضيين (ممكن بذاته وواجب بغيره)[٨٥].

ونص إلى ما يخلص اليه من القول (هذا المطاع عندي هو العقل الأول عند الفيضيين)[٨٦] وأرى ان المسألة ممكن ان تسوى بين الآراء الثلاثة باعتبار النتيجة فبما ان الصوفية يرون ان العقل او الروح المحمدي او الحقيقة المحمدية وهو المراد بالمطاع وهو بالنتيجة شيء بين الله او الكون وهو الكلمة وان نظرية المتكلمين في ان الامر الإلهي أو القوة العاقلة او البرزخ او الخليفة هو المراد "بالمطاع" وبالتالي فهو شيء بين الله والكون وهو الكلمة. وان رأي الفلاسفة في ان العقل الأول هو المراد بالمطاع وهو الواسطة بين الله ومخلوقاته، فهو بالمحصلة شيء بين الله والكون وهو الكلمة، واني وان كنت ارجح رأي الأستاذ نيكولسون لما له من شواهد كثيرة في كتب الغزالي كالاحياء، والمنقذ وغيرها. إلا انني لا ارى ضير من التوفيق بين الآراء حيث انها تدل كلها على ان "المطاع" هو شيء بين الله والكون وانه الكلمة التي بها ابتدأ الوجود.

الخاتمة

لقد استمدت الفلسفة الاسلامية بعض الافكار من ثقافة الحضارات القديمة التي سبقت الاسلام ومن خلال ما عرضناه من تناول الصوفية لمدلولات الكلمة توصلت إلى النتائج الآتية:

---

(٨٢) د. ابو العلا عفيفي، نظريات الاسلاميين في الكلمة ، ص٤٣ .

(٨٣) د. حسام الالوسي، دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي ، ص٢٤٧ – ٢٤٨ .

(٨٤) الغزالي، مشكاة الأنوار، تحقيق : ابو العلا عفيفي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص٨٩ .

(٨٥) ينظر الفارابي، رسالة زيتون الكبير، حيدرآباد ١٣٤٩، ص٦، وكذلك ابن سينا ، النجاة القسم الثالث، ص٤٥٣، والشفاء قسم الإلهيات ، ج٢، ص٤٠٦.

(٨٦) د. حسام الالوسي، دراسات في الفكر الاسلامي، ص٢٤٧، الهامش (٣٧) .

ان الصوفية في الاسلام اهتمت وتوسعت في عرض مدلولات الكلمة مما ادى إلى اختلاف في التعبير عن هذا اللفظ، كما ان تعدد معاني الكلمة في الفكر الصوفي وان اختلفت فأنها تدل على شيء واحد وهو مبدأ الوجود وأساس الخلق والمادة الاولى والواسطة بين الخالق وبين الخلق، فهذا المخلوق الأول له نسبة يقترب بها من الخالق باعتباره صادر عنه ونسبة اخرى يقترب من المخلوق باعتباره اساساً لوجوده فهو اول الخلق، ولكن الاختلاف في مدلولات الكلمة في الفكر الصوفي ناتج عن اختلاف نظرة الصوفي إلى هذا الشيء فمنهم من نظر اليه باعتبار الطريق الموصل اليه، ومنهم من نظر اليه باعتبار وجوده كأكمل ما في الوجود، ومنهم من نظر اليه باعتبار حقيقته الممدة لكل الموجدات بالوجود، والحياة، والعلم. ومنهم من تناوله باعتباره روح الشريعة. ومنهم نظر اليه من ناحية قدسيته، وهناك من اطلق عليه الفناء وذلك باعتبار الطريق الموصل اليه، ومنهم من أطلق على الكلمة معنى الانسان الكامل باعتبار وجوده كأكمل موجود، وقسم اخر اطلق على الكلمة معنى الحقيقة المحمدية وذلك باعتبار حقيقة الممدة لكل الموجودات والحياة والعلم.

وقسم اخر جعل الكلمة بمعنى المطاع وذلك باعتبارها روح الشريعة وهو الروح المحمدي لإقتران طاعته بطاعة الله تعالى (واطيعوا الله والرسول)، وقسم اعتبر العقل الاول هو دلالة للكلمة وذلك باعتبار قدسيته.

البطل–دراسة في تاريخ المفهوم فلسفياً

المدرس المساعد

صباح حمودي نصيف(*)

المقدمة

منذ ان وجد الانسان على هذه الارض، اخذت تتصارعه نزعات عدة ونظرات ورؤى وتوجهات، يبحث فيها عن الأمثل، فالأمثل، لان ذلك يشكل عنده هاجساً أحاط به من كل جانب نتيجة ماشاهده من تناقضات على أرض الواقع المعاش. فأخذ يبحث عن كل ماهو خالٍ من العيوب والتناقضات والصراعات التي لاتفضي الا الى الفساد والتحلل والظلم. ولكن وجد ان هذا لايقوم الا بتوافر جملة أمور ذات أهمية قصوى لديه أولها وجود المخطط–الموجه–المنقذ في مثل هذه اللحظات لأن الانسان، بطبعه كما يرى الفلاسفة، اجتماعي مدني لن يوفر لنفسه كل مايريد إلا بمعونة الآخرين من بني جنسه ومعاضدتهم اذ ان هذا التآزر كثيراً مايقود الى التناقض والتحارب فيما بين البشر وسيادة ماهو غير صالح ولا أخلاقي على ماهو صالح وخير وفاضل احياناً.

فجاء اهتمام الانسان بموضوع المنقذ، الملهم، الشجاع البطل جزءاً من نظرة الانسان الكونية السياسية الاخلاقية التربوية، وظل هذا الرمز شاغلاً لكل فلسفة وحكمة وشريعة. اذ ان البحث عنه سمة لازمة وجدلية لمسيرة الانسان عبر التاريخ ومن ثم فقد شكل موضوع البطل تراثاً فكرياً وفلسفياً عميقاً ومديداً في الحضارات الانسانية عامة وفي رموزها خاصة اذ لانجد حضارة أنسانية ضاربة جذورها في أعماق التاريخ الا ونجد للبطل والبطولة مكانها فيه سواء في سماته وخصاله أو في صورته المتخيلة لدى شعوب هذه الحضارات وشرائعها الدينية والدنيوية وثقافاتها.

كل هذا، قادنا الى البحث في أهمية هذا المفهوم وابعاده الفلسفية والفكرية والاخلاقية لاهميته حاضراً ومستقبلاً. اذ وجد الباحث ان البطل يشكل مهمازاً وموجهاً في لحظات الخطوب والازمات والتناقضات والتناحرات التي يمر بها شعبنا الآن مما حدا به الى ان يدرس هذا الموضوع دراسة علمية فلسفية (نظرية وتطبيقية) لاهميته وللكشف عن بنية البطل ودوره في التاريخ والحضارة من جانب، ولتقديم تصور علمي لهذا الموضوع من جانب آخر، عليه سيعمد كاتب هذه السطور إلى تناول المحاور

(*)كلية الآداب –الجامعة المستنصرية.

الآتية (البطل لغة وأصطلاحاً، البطل صانع التاريخ، سمات البطل وخصاله، إعداد البطل وتنشئته عند الفلاسفة).

المحور الاول-البطل والبطولة:

البطل (The Hero) والبطولة (The Herosim) هي أحد اهم الموضوعات التي شغلت الفلاسفة والمفكرين وعلماء الاجتماع وفضلاً عن المؤرخين والسياسيين، ذلك لما يشكله من اهمية مركزية في فهم صيرورة التاريخ والعوامل الفاعلة المؤثرة في بنية المجتمع ونظمه السياسية وقيمه الخلقية ورؤيته الاجتماعية. اذ ان عظماء الامم علامات مضيئة في دنيا الابداع الفكري لما عرفوا به من شمولية وسعة افق حتى اصبح كل منهم ارثاً للانسانية جمعاء[١]. اذ هناك من ارجع نظرية (البطل) أو (الرجل العظيم) الى عهد الاغريق الذين أرسو قواعدها واخذوا بها فمثلاً نجد الفيلسوف اليوناني جورجياس (٣٧٥ق.م) اشار الى فكرة البطل القومي بقوله: "القوي هو السائد والمسيطر على الضعيف لان مظهر الحياة هو تغلب الاقوى وهذا التغلب هو طريق الانسان في كشفه عن سعادته، ومهما يكن فلا تخلو العصور الحديثة من مواقف تتوافق مع هذه النظرية الجادة خاصة في (فكرة البطل) أو عبادة الانسان المتفوق الكامل"[٢]. كما سادت هذه النظرية وطغت على تفكير الرومان في التاريخ ومن ثم بقيت حتى القرن التاسع عشر لها تاثيرها الواضح في الاحداث التاريخية[٣]. ولهذا عدت من النظريات البارزة التي اثير حولها جدل وتأويل كبيران بين المؤرخين والمفكرين وفلاسفة التاريخ ، ولاسيما التساؤلات التي اثيرت بصدد اعطاء الأولية (للفرد) أم (المجتمع) في صنع الاحداث التاريخية والحضارية، كما اختلفت التأويلات حول مفهوم (الرجل العظيم) وحول ما اذا كان بالامكان عده رمزاً للقوانين التاريخية أو أنه دليل عليها أو تعبير عنها أو أداة لها أو نتيجة منبثقة عنها، ومع هذا فأن هذه التاويلات تقر بوجود خصائص تميز (الرجل العظيم) من غيره من الرجال العاديين الذين يحفل بهم التاريخ[٤].

بينما ارجع اخرون نظرية البطل ومنشأها الى الفكر العراقي القديم والمتمثل بملحمة كلكامش، ذلك البطل الاسطوري الذي نظرت اليه كل الادبيات القديمة على انه البطل المميز الذي ادى دوره الرئيس في توطيد اركان مملكته في آور الكلدانية، وان

---

[١] د. علي حسين الجابري: قراءة معاصرة لأراء اهل المدينة الفاضلة، بحث مستل من العدد ٣، مجلة زانكو العلمية الانسانيات، طبعة الجامعة السليمانية، نيسان ١٩٧٧، ص٢.

[٢] د. جعفر آل ياسين: فلاسفة يونانيين من طاليس الى سقراط، ط٢، بيروت ١٩٧٥، ص ١٦٤.

[٣] حسين فوزي النجار: التاريخ والسير، (ب.ط.) القاهرة ١٩٦٤، ص ٢٦ ومابعدها.

[٤] سدني هوك: البطل في التاريخ، ترجمة مروان الجابري، مراجعة انيس فريحه، المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٩، ص ٢٨، وان الحديث عن مميزات أو خصال البطل سيأخذ منا مجالاً نشير إليه في ثنايا هذا الفصل.

كانت هناك نصوص تشير الى استخدام كلمة (الرجل العظيم) في الحضارة السومرية قبل ملحمة كلكامش، اذ ان في هذه الحضارة ظهر لقب (لوكال Lugal) ومعناها الحرفي (الرجل العظيم)، وقد غدا منصب الرجل العظيم وراثياً ويستمد سلطاته من الآله[٥]، ويعني هذا ان الفكر العراقي القديم كان ملماً إلماماً جيداً بمفهوم البطل والبطولة ودورهما في توطيد اركان الدولة وتنظيم المجتمع وقيادته وتوجيهه[٦].

ولهذا اختلفت الآراء في تحديد دور (البطل) اومهمته في التاريخ فيما اذا كان قائداً عسكريا او مفكراً أو مصلحاً اجتماعياً او فيلسوفاً أو حاملاً رسالة سماوية (نبياً) أو فرداً يتصف بالمواهب العبقرية أو ممن يجمع هذه الصفات، اذ اشار (هوك) في تحليله للبطل مفهوماً وممارسة عبر التاريخ الى انه صانع الاحداث بقوله: "الرجل الصانع للاحداث هو [رجل الاحداث] لكن افعاله هي نتائج طاقات وملكات وذكاء حاد وأرادة قوية وشخصية بارزة اكثر مما هي نتائج حوادث عارضة ناجمة عن مركزه، وبهذا التميز يحاول (هوك) ان يبين بأن البطل هو عظيم ليس فقط بسبب مايفعل ولكن بفعل سجاياه وماهيته"[٧]، وهي الدفاع عن الارض والذود عن الحرائر، هي الكرم والنخوة والمرؤة والصبر والجلد وقوة الشكيمة، هي المبادرة والقرار الشجاع، هي العدالة والرجولة والشرف، هي التحدي والتعرض والاقتحام والاستبسال دفاعاً عن الحق، هي الاخلاص والوفاء والايمان الراسخ بقيم الارض وقوانين السماء، هي التمييز بين الرجال في افضل سجاياهم والحضور المطمئن في ساعات الشدة، والجود بالنفس في سبيل الحق، وبأختصار انها صناعة المجد[٨].

عليه، سنحدد هنا، مفهوم البطل كما ورد لدى اللغويين والاصلاحيين اللغويون يضعون، تحديداً دقيقاً لمعنى البطل، اذ يحدد عندهم من الشجاعة وهو الذي يبطل الآقران والعظائم[٩]. ومن هنا نفهم ان اللغويين عندما حددوا معنى البطل ربطوه بمعنى الشجاعة، لأن الشجاعة عندهم هي من شدة القلب عند البأس[١٠]. ويقال للقوم الاشداء: شجعان، فالشجاعة (هيئة حاصلة للقوة الغضبية فهي (وسط) بين التهور والجبن وبها يقدم (المرء) على امور ينبغي ان يقدم عليها للقتال[١١]. اذ وردت هذه الفكرة لدى

---

(٥) د.عبد الرضا الطعان: الفكر السياسي في العراق القديم، ج١، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨١، ص ٢١٥ وما بعدها.

(٦) ارنولد توينبي: بحث في التاريخ، ترجمة طه باقر، ج٢، (ب.ط)، بغداد ١٩٥٥، ص١٨٠٠.

(٧) سدني هوك: المصدر نفسه، ص ١٥٢-١٨٠.

(٨) سدني هوك: المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٩) لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب،المطبعة الكاثوليكية،بيروت ١٩٦٠ م، مادة (بطل)، ص ٤٢.

(١٠) محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨١، مادة (شجاعة)، ص٣٣٠.

(١١) علي بن محمد الحسيني الجرجاني: التعريفات، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٨، ص١١٠.

افلاطون (ت ٣٤٧ ق.م) من قبل في كتابه الجمهورية: ففي حديثه عن الشجاعة يقول: انها فضيلة وسط بين التهور (الاندفاع) من جهة والجبن من جهة اخرى، فهي وسط بين الافراط والتفريط[١٢]. في حين يذكر مع لفظ البطل، البطلان وهو خلاف مرادنا اذ وجده اللغويون أنه من البطل أي الهدر والضياع أو عدم الانعقاد[١٣]. وهنا يتبين مدى تداخل لفظ البطل مع ألفاظ اخرى تؤدي الى المعنى ذاته عند من حدد هذا المعنى من اللغويون.

اما البطل اصطلاحاً :

فهو قرين البطولة، والبطولة (The Herosim) هي صفة البطل والتي تشتمل على الشجاعة، والسماحة والاحكام الامور، والنظام، ورباطة الجأش في الملمات، وصلابة العود، وشدة القلب، واحتقار الموت، والشهامة[١٤].

فالبطولة اذن تتمثل في الملاحم بتمثيلات تؤهلها للقيام بأفعال خارقة للعادة من خلال مؤهلات البطل، ولهذا يقال عن البطل من الرجال، شجاع، والبطلة من النساء، شجاعة، ولاسيما ان (ملحمة كلكامش) خير دليل على ذلك، وهذا مما وضحناه انفاً، اذ تضم الكثير من القصص، ويرجع بعضها الى ايام السومريين، أي ما قبل السيد المسيح بنحو (٢٧٠٠ سنة)، ومن هذه القصص النص البابلي الذي كان بطله (كلكامش) اذ كان حاكماً حقيقيا لاوروك، أي (الوركاء)، ومن هنا نلاحظ ان البطل يتخذ مكانة التقديس عند قومه من خلال أسباغ آيات العظمة عليه ، سواء في حياته أو بعد موته. اما عند اليونانيين فوصل الامر حد العبادة لآلهتهم وابطالهم ، فقد يكون هذا البطل واقعياً أو من صنع الخيال الشعبي، اذ كانت طقوس عبادة الابطال تقام عادة حول قبر البطل، واحياناً تقام لبعضهم في كل مكان[١٥]، ولهذا اتخذ البطل عنصراً خلاقاً للعالم، فتاريخ المجتمع يحال الى سير الشخصيات العظيمة و(عبادة البطل)، هذا ما يقدمه توماس كارلايل (ت ١٨٨١م) في كتابه (الابطال وعبادة البطل والبطولي في التاريخ)[١٦]، اذ كانوا يقفون امام البطل مذهولين، كأنما يخفي في دواخله قوى خفية ، وفي رأيهم ان

---

[١٢] افلاطون: الجمهورية، ترجمة حنا خباز ، ط٣، ك٦، القاهرة ١٩٢٨، ص ١٤٧.

[١٣] ابو الفضل جمال الدين ابن منظور: لسان العرب، ط١، مجلد ١٣، دار صادر، بيروت ١٣٠٠ هـ، مادة (بطلان)، ص١٣.

[١٤] د. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج١، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢، مادة (بطل وبطولة)، ص٢١٢.

[١٥] اشرف محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، دار القلم وفرانكلين للطباعة والنشر، (ب.ت) ص ٣٧٨ وكذلك: الرازي، مختار الصحاح، مادة (بطولة) ص٤٧. وقارن: علي خيون، تأملات في تفسير التاريخ ودور الابطال في حركته، مجلة الموقف الثقافي، دار الشؤون الثقافية، العدد ، بغداد ١٩٩٦، ص ٣٤ ومابعدها.

[١٦] توماس كارلايل: الابطال، ترجمة محمد السباعي، دار الرائد العربي، ط٤، بيروت ١٩٨٢، ص١ وما بعدها .

هذه القوى مكنته من الأتيان بالخوارق في البسالة والقتال، فهذه الخوارق لاتقف عند نجاته من القتل فحسب ، بل تمتد الى نجاتهم معه، نجاة تجعلهم يشعرون بالقوة، كونه هو الذي يهبهم الحياة ، ومن اجل ذلك عبدوه[١٧]، ايماناً بعظمته لانه يوفر حماية لاواعية ضد أي تهديد، بعده الصورة المكملة والموازية والمعوضة للسلطة فيظهر رمزاً وحاملاً للأمل الشعبي ومساعداً على تحقيق واعادة التوازن للذات الفردية المنجرحة، وهنا تظهر سعادة البطل من خلال تأمينه لسعادة قومه بنصرهم وحمايتهم والعطف عليهم، اذ يتحقق ذلك من خلال دورين متكاملين يقوم بهما البطل وهما:

١– دور يخدم ذاته، لكنه يشارك بعدئذ في عملية تنقيح وتطوير للكل، بعد ان تغلب على أعدائه.

٢– دور يظهر فيه البطل، كونه منقذاً لشعبه في أحلك المواقف، كونه يمتلك قدرات كاريزمية (Charismatique)[١٨].

فالبطل هو ذلك الانسان الذي يدرك بإحساسه المرهف وذكائه الوقاد وعبقريته النادرة مطامح مجتمعة وأمانيه، كونه الذي يسعى لهذه المطامح ويكافح لتحقيق هذه الاماني، ولاسيما ان الاخرين يرون فيه ما كانوا يبحثون عنه وما يتوقون للحصول عليه، لانه ممثل اماني المجموع وطليعتهم في كفاحهم من اجل مثلهم العليا واهدافهم السامية، فمن الطبيعي ان ينبثق البطل من اعماق المجموع بعد أن يتمثل بأحساسه المرهف وأدراكه العميق كل أحاسيس المجتمع الذي هو فيه ويستوعب افكاره وحاجاته وآماله[١٩]. فضلاً عن ذلك فأن البطولة هناك من يفهمها على انها الجرأة أو الشجاعة والقيام بالاعمال الخارقة واجتياز العقبات ،واذا قبلنا بهذا المفهوم للبطل فيترتب على ذلك ان نجرد معنى البطولة من المضمون الفكري، وان نجعلها مجرد شكل من أشكال السلوك الفردي، ولاسيما أن نظرة مثل هذه للبطولة لايمكن قبولها مطلقاً اذ يتساوى فيها دعاة الرجعية، ودعاة التقدم، كون البطولة ليست نوعاً من السلوك فحسب أو صفة لاعمال جريئة يقوم بها هذا أو ذاك من الناس، بل أنها أعمق من ذلك بكثير، كونها فكرة وعملاً، بل اكثر من ذلك: (فكرة نبيلة وعمل جبار)، فهي بطولة ضد الشر، ضد

---

[١٧] د. شوقي ضيف: البطولة في الشعر العربي، ط٢، دار المعارف،القاهرة ١٩٨٨، ص ٩ وقارن: محمد الطاهر الجراري، البطل عبر التاريخ، مجلة الثقافة العربية الليبية، العددان (٨و٩) لسنة ١٩٨٨، ص٧٣.

[١٨] د.علي زيعور: الانا الاعلى في الذات العربية–البطل في التصوف والانثروبولوجيا والفنون والاحلام، مجلة آفاق عربية، دار الشؤون الثقافية، العدد ٥، بغداد ١٩٨٠، ص ٢٨-٢٩ ويراجع: بصدد الكاريزما، دينكن ميشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة د. أحسان محمد الحسن، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠ ص ٥٩-٦٠.

[١٩] صلاح خالص: البطولة في الادب العربي بعد ظهور الاسلام، مجلة الفكر، طبع الشركة التونسية، العدد ٥، لسنة١٩٥٩، ص١٢.

الفساد، ضد الرذيلة، ضد الرجعية خاصة لانها بطبيعتها تقدمية، لذلك فأن الركن الاول من اركانها، هو الايمان بالتطور، الايمان بضرورة تحقيق شيء جديد فيه الخير للمجتمع أو الايمان بمثل عليا تفيد الاخرين.

اما الركن الثاني: فهو العمل الدؤوب الجريء الحكيم لتحقيق هذا الخير أو هذا المثل الاعلى والاستعداد للتضحية، فالتضحية هنا ليست ان يستعد الانسان للانتحار، وانما ان يضحي بمصلحته الخاصة، في سبيل مصلحة المجموع[٢٠]– لأن البطل لايكون جريء الجنان مستعداً للتضحية الا اذا كان مؤمناً بعقيدة من العقائد او بهدف من الاهداف لان الأمم العظيمة، فعلاً هي الامم التي أستمدت عظمتها من عظمائها، ثم حققت درجة اعلى وارقى، وصورة اصفى وانقى، ورتبة اجدى وأوفى من العظمة بتعظيمها المتجدد الدائم للعظماء والشهداء والابطال من ابنائها البررة الامناء الاوفياء الشرفاء[٢١]، فالبطل في أي مجتمع واي عصر أو دولة مطلوب لانه هو المنقذ لهم عندما تشتد الخطوب والازمات والاهوال لأنه يمسك بدفة السفينة✿ ليديرها ويقود المجتمع نحو الخلاص الذي ينشده. اذ نجد ان موضوع البطل والخصال (المزايا) التي يتمتع بها قد جعلت الفلاسفة عامة وفلاسفة التاريخ خاصة يضعونها له بموجب ما رأوه من تصرفات للبطل عبر التاريخ لما تركوه لنا في تراثهم، ولاسيما مايخص الجانب السياسي التاريخي وهذا مانجده في مؤلفات الفلاسفة اليونانيين وخاصة عند افلاطون في "كتاب الجمهورية"[٢٢]، فضلاً عما نجده عند فلاسفتنا المسلمين كالفيلسوف ابي نصر الفارابي (ت٩٥٠م) في "كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة"[٢٣]، وابن رشد (ت١١٩٨م) في "كتابه تلخيص السياسة [٢٤]"، ولايبتعد ذلك عن الموقف الفلسفي الحديث المتمثل بمكافيلي (ت١٥٢٧م) وجان جاك روسو (ت١٧٧٨م) وهيجل (١٨٣١م)[٢٥]، لذلك ان هذا الاهتمام بالبطل عند الفلاسفة لم يكن ليقوم لولا حضور

---

[٢٠] صلاح خالص: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[٢١] حازم طالب مشتاق : المنهج الفلسفي للرفض العربي، مطبعة جامعة بغداد، بغداد ١٩٧٧، ص ٩.

✿ يشبه ابن رشد الرئيس البطل بربان السفينة الحاذق، ينظر ابن رشد: تلخيص السياسة، (وهو تعليق على كتاب الجمهورية لافلاطون) نقله الى العربية د. حسن مجيد العبيدي، وفاطمة الذهبي، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٨، المقالة الثانية، ص١٤٤.

[٢٢] افلاطون: الجمهورية، مصدر سابق، ك٦، ص ١٧٨ ومابعدها اذ يتحدث عن صفات البطل الرئيس للدولة وخصائصه.

[٢٣] الفارابي: آراء اهل المدينة الفاضلة ، حققه وقدم له البير نصري نادر، ط١، بيروت ١٩٥٩، ص١٠٥–١٠٨.

[٢٤] ابن رشد، المصدر نفسه، المقالة الثانية، ص ١٤٤.

[٢٥] لمزيد من التفاصيل يراجع: يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط٤، القاهرة١٩٦٦م.

الازمات الفكرية والسياسية والقيمية امامهم في العصر الذي عاشوا به ففكروا بالبديل المخلّص لهم، فأستكشفوا بعقولهم النيرة مزايا هذا البطل المنقذ ، ولهذا استمر الاهتمام بالبطل الرمز، والمنقذ في كتابات المفكرين والفلاسفة الى يومنا هذا، ولايخلو أي فكر لاية أمة من ذكر البطل ومزاياه وكيفية اعداده وتربيته ليقود مجتمعه من بين صفوفه ويكون لهم المرشد والموجه (Luider)، وفي هذا فأن مفهوم البطولة يعد من العوامل الاساسية التي اعتمدها فلاسفة التاريخ بوصفها عوامل مؤثرة في حركة التاريخ وهذا مشفوع بطروحات كثيرة عند فلاسفة التاريخ في القرن التاسع عشر، ولاسيما أن الحديث عن اثر البطولة في حركة التاريخ يذكرنا بما جاء به هيجل في فلسفته المثالية بشأن حركة التاريخ اذ نجد ان تاريخ العالم لم يكن الا عملية عقلية، وان روح العالم هي القوة الرائدة لتقدمه متخذة من العباقرة والابطال أدوات لها، فكل شعب يعلو نحو المجد فأنه يعبر بذلك عن جانب من جوانب الروح العامة[٢٦]، فنوابغ التاريخ لم يكونوا الا أدوات لتنفيذ رغبات تلك القوة وان توهموا فتصوروا بأنهم يحققون غايات شخصية ولهذا كان اعجاب هيجل واضحاً وعظيماً ببعض هؤلاء مثل نابليون (ت١٨٢٨م) اذ أنه يمثل في نظره وسيلة لتحقيق غاية اعظم منه. وهنا نجد ان هيجل يؤطر هذا الرجل بأطار البطولة الذي يسعى الى تحديد مسار التاريخ بموجب أوامر الروح العامة[٢٧]. وفيما بعد جاء توماس كارلايل ليكتب لنا كتاباً بعنوان البطل والبطولة (The Hero and Herosim) بقلم الابطال وافعالهم وقراراتهم التي تغير وجه التاريخ ومسيرته[٢٨]. ولم يخص كارلايل رجال السياسة وحدهم في رسم صورة البطل بل شملت البطولة عنده عدة صور كالالهة التي ظلت مدة معينة وكان موقفه رافضاً لها لما لحق بها من تفسيرات رجعية اقترنت بجميع عوامل التخلف والانحطاط وكذلك اخذت صورة الانبياء والرسل وشفع ذلك بما جاء به الرسول الكريم محمد(ﷺ) في الدعوة الاسلامية وما قدمه من دور في هذه الرسالة وكذلك صور البطولة في هيئة الشاعر وجسد هذا الدور حسب رأي كارلايل كل من (دانتي وشكسبير) والصورة

---

[٢٦] Collins James. Ahistory of Modern European philosophy the Bruce publishing company, 1954, p.610 .

[٢٧] هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج١، (العقل في التاريخ) ترجمة وتقديم وتعليق د. امام عبد الفتاح امام، مراجعة د. فؤاد زكريا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٦ ، ص١٠٣. وكذلك يراجع: د. علي حسين الجابري، فلسفة التاريخ بين هيجل ونيتشه في المصادر العربية، مجلة زانكو العلمية، الجزء (ب) للانسانيات، مطبعة الجامعة السليمانية، المجلد (٥)، العدد (٢)، بغداد ١٩٨٠، ص٩٥. واحمد امين وزكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، ج٢، القاهرة ١٩٣٦، ص٣٧٧.

[٢٨] توماس كارلايل: الابطال، مصدر سابق، وفيه يرسم البطل عبر التاريخ ومتغييراته عبر محاضرات كارلايل في هذا الكتاب.

الاخرى التي قدمها كارلايل للبطل هي على هيئة قسيس متمثلة عند (لوثرونوكس) ومن صور البطولة الاخرى صورة الكاتب أو الاديب وجسده كل من (جونسون وروسو وبارنز) أما الصورة الاخيرة للبطل فهي صورة الملك الذي جسده كل من (كروموبل ونابليون) ويتغنى كارلايل بهذا البطل كما عرضه بهذه الصورة بقوله: أنه فريد، رسول من قبل عالم الغيب للانسانية للبشر،أما ما ينطق به من كلمات ليست لأحد غيره، كلمات نابعة من جوهر الحقائق فأنه يرى باطن كل شيء، اقواله نوع من الالهام[٢٩].

المحور الثاني-البطل صانع التاريخ:

واذا ما غادرنا التحديد الاصطلاحي للمفهوم، وانطلقنا الى ذكره في التاريخ، نجد ان الاهتمام بالبطولة والابطال كان حالة دائمة ولاسيما بعد التحرر من عبادة البطل، الذي عالجه كارلايل مع الاخذ بالحسبان تنوع واسباب هذا الاهتمام المتخلف طبقاً لمدة تاريخية معينة.

فمن الملامح الواضحة بشأن هذا الموضوع نجد ان هنالك اهتماماً ملموساً بالابطال واقوالهم وافعالهم وصل الى درجة التعظيم، وهذا نابع من ارتباط مصير الشعوب في فترات الحروب بالظروف الصعبة التي تؤدي الى الالتفاف حول البطل، ولكن هنالك اسباباً اخرى تدعو الى الاهتمام به خارج هذه الظروف[٣٠] (واعني به الحاجة الاجتماعية للبطولة ،فمن الاسباب التي لايمكن تجاهلها في هذا الموضوع هي عدم الاستغناء عن مفهوم الزعامة في تركيب الحياة الاجتماعية وفقاً لاي تنظيم اجتماعي على الرغم من اختلاف الرقابة عليها بين مجتمع وآخر، لكن الزعماء على الرغم من انهم لم يكونوا مجرد رموز مشهورة للدولة فحسب بل كانوا مسؤولين ومقررين، وبين المنجزات المتحققة في ظل زعامته سواء أكانت ايجابية ام سلبية)[٣١] وثمة مصدراً آخر للاهتمام بالبطل يكشف عن الموقع الذي يحتله في التاريخ المدروس لمختلف الأمم، فقد مجد البطل في بعض الحضارات القديمة أباً للأمة كما فعل العبرانيون في تمجيدهم لابراهيم (عليه السلام) ابي الانبياء والمولود في آور[٣٢].

وإما الجماهير فأنها تؤمن به من قبل وصوله الى الحكم وهذا ايمان نابع من فرط اليأس الناجم من الحاجة الدائمة له ولا شك في أن للترابط الحاصل مابين

---

[٢٩] المصدر نفسه، ص١ وما بعدها. وقارن: سدني هوك، البطل في ...، مصدر سابق، ص ٢٤ وما بعدها.

[٣٠] توماس كارلايل، الابطال، مصدر سابق، ص ٢-٥ .

[٣١] محمد عياد شكري: البطل في الادب والاساطير، ط١، دار المعرفة، القاهرة ١٩٧١، ص١٩.

[٣٢] سدني هوك: البطل في التاريخ، مصدر سابق، ص ١٩ .

الازمات الأجتماعية أو السياسية ومابين تطلعات الناس الى من ينقذهم من اثار تلك السلبية الأثر الواضح في زيادة الاهتمام بهذا البطل كونه منقذاً[٣٣]، ومن العوامل الاخرى التي تلقى بظلال الاهمية على البطل هو ان دوره ليس مجرد ظاهرة او معضلة تاريخية بقدر ما يشكل واحدة من اعظم المسائل النظرية الجذابة في التحليل التاريخي وهذا ما يقترب من قول كارلايل في كتابه "الابطال" بأن التاريخ العام، تاريخ ما أنجزه الانسان في هذا العالم في أعماقه تاريخ رجال عاشوا وعملوا في هذا العالم[٣٤].

اذ يقدم الزعيم لاتباعه ما يطفئ نوازع حنينهم عن طريق ما ينسب إليه من مناقب ومآثر، وتشارك الجماهير بوجدانها سلطة الزعيم وقوته بشكل يدخل.

أذن التاريخ الذي يصفه الابطال، ويحركونه نحو تحقيق غاياتهم وهذا ما نجده عند الفارابي الذي يقدم لنا تصوراً حول ذلك اذ اعدّ (رئيس الدولة) وسلطته العامل الأهم في حركة التاريخ (ايجابيا وسلبا)، فمتى قام الحكم على (الحكمة) و(العدالة) كان رئيس الدولة قادراً على أدراك موازين الاعتدال في القول والعمل فيصلح بصلاحه الناس وتتوفر لهم ظروف العيش في مدينة سعيدة (فاضلة) لاتنقطع عن اشراقات الماضي، وتتجاوز عقبات الحاضر الذي افتقر لشروطها بحثاً عن حل مستقبلي[٣٥]، ويرى د. الجابري أن الفارابي قدم مشروعه الاصلاحي الشامل رأي (فيلسوف التاريخ) لا المؤرخ فقد ربط المجتمع بالعقيدة، والفكر بروح الاجتماع، والرئيس بحاجات الامة التي لاتعالج الا بحكمة قرارات المسؤولين وضمن شروط تاريخية لايمكن اغفالها، وانطلاقاً من قوة الفكر أي الحكمة جعل الفارابي الدور الايجابي للدولة ورئاستها مشروطاً (بالحكمة) الواقعية ويسميها بالفضيلة الفكرية[٣٦].

والرئاسة عند الفارابي ذات ميزة خاصة تتميز بها المدن الفاضلة عن غيرها اذ أن المدن الجاهلية لامراتب فيها ولانظام، لذلك فالمدينة الفاضلة تحتاج الى تدبير وتنظيم والى معلم يوجه الناس نحو الرأي الصائب، ولايمكن للمدينة ان تكون صالحة عادلة اذا لم تخضع لقيادة، لذلك فالرئاسة أمر ضروري عند الفارابي بل أنها شرط

---

[٣٣] د. علي حسين الجابري: فلسفة التاريخ بين هيجل و..، مصدر سابق، ص ٩٠.

[٣٤] توماس كارلايل: الابطال، المصدر نفسه، ص ١-٥٢ .

[٣٥] الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضل، مصدر سابق، ص ٦٨ وأيضاً: د. علي حسين الجابري: فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر، القسم الاول، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٩٣، ص١٠٩.

[٣٦]د. الجابري: المصدر نفسه ،والصفحة نفسها .

لازم سابق حتى على وجود المدينة ذاتها (فرئيس المدينة ينبغي ان يكون هو أولاً، ثم يكون هو السبب في ان تحصل المدينة واجزاؤها)[٣٧].

ولاسيماان المدينة الفاضلة موجودة في دماغ رئيسها قبل ان توجد واقعاً اجتماعياً، فهي برنامج وتخطيط، وليست نظماً اجتماعية كون الملك–الفيلسوف هو وحده القادر على ضمان سعادة كاملة للمدينة.

اذن فالتاريخ هو من صنع الأفراد، كون الافراد هم الذين يؤثرون في الشعوب أو المجتمعات وان الابطال هم الذين يدفعون ويرفعون شعوبهم من الانحطاط الى الازدهار وصدارة الاحداث، وقد عبر توماس كارلايل في حماسة شديدة عن دور الابطال في التاريخ اذ يقول (أن التاريخ العالمي– تاريخ ماأنجزه الانسان في العالم– انما هو في صميمه تاريخ العظماء وما أنجزوه، وكل ما تم انجازه في العالم انما هو الحصيلة المادية الخارجية والتحقيق العملي والتجسيد الحي لافكار عاشت في عقول عظماء، عاشوا في هذا العالم)[٣٨]، ويحلل كارلايل عناصر العظمة فيرجعها الى ثلاثة اسباب وهي:

١– الايمان بأن البطل قد اختاره الله.
٢– الايمان بالجبرية التي يعبر عنها البطل برسالته.
٣– ان يتحلى البطل بالشجاعة.[٣٩]

-ولهذا نلاحظ ان التاريخ في نظر كارلايل مسيرة للابطال والعظماء، وسجل منقبي لاعمالهم الاسطورية التي تشكل مادة ثرية لهواة كتاب السير والتراجم، ويعتقد كارلايل انه بغير العظماء ليس ثمة تاريخ فالفضل كل الفضل يعزى الى ابطال من نوع خاص كي يجعلوا للبشرية معنى ودونهم ليس الا الفوضى[٤٠] ذلك ان العظمة هي المقوم الاساسي للشخصية التاريخية ولاسيما ان الرجل التأريخي هو الرجل الذي توصل بفضل التلاحم العضوي المصيري بين حياته الشخصية وحركة التاريخ، الى جعل التاريخ مطبوعاً بطابع عبقريته، كون ان حياة الرجال العظام في التاريخ، حياة كفاح وعناء، اكثر مما هي حياة رغد وهناء، ومن هذا نستنتج ان الشخصية التاريخية هي:

---

(٣٧) الفارابي، آراء أهل ...، المصدر نفسه، ص ١٢٠ وقارن: عبد السلام بنعبد العالي، الفلسفة السياسية عند الفارابي، ط٢، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١ ، ص ٨٥-٨٦ .

(٣٨) توماس كارلايل: الابطال مصدر سابق، ص ١٠ وما بعدها وقارن: د. احمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة خليفة للطباعة، مصر ١٩٧٥، ص ٦٣-٦٤.

(٣٩) د. احمد محمود صبحي: المصدر نفسه..، ص ٦٤.

(٤٠) عالية احمد سوسة ود. هاشم صالح التكريتي: بحوث مهرجان المؤرخ توينبي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٩، ص ٢٩.

١- طاقة فردية مبدعة تحتاج الى رعاية وتشجيع حتى تظهر وتنمو.
٢- تحتاج الى مساندة ودعم حتى تبلغ اقصى امكاناتها.
٣- تحتاج الى تفاعل نقدي متعدد الجوانب حتى يتحول عطاؤها الى غذاء ونور، كون العظمة قيمة تاريخية هائلة، والرجال العظام قوة وثروة[٤١]، فضلا عن ذلك نجد ان التاريخ لايفعل شيئاً كونه لايمتلك الثورة الهائلة ولايخوض المعارك، بينما الانسان، الانسان الحي هو الذي يفعل كل شيء وهو الذي يملك ويقاتل، فالتاريخ هو سيرة حياة الرجال العظماء[٤٢].

المحور الثالث: سمات البطل وخصاله:

بدءاً احب ان اذكر هنا أن لفظة (خصال) هي لفظة عربية ، وجدت في تراث الفيلسوف العربي الفارابي اذ ذكرها في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" بعنوان: (القول في خصال رئيس المدينة الفاضلة)[٤٣] ويعني هنا رئيس المدينة أو الدولة الذي هو البطل الرئيس[٤٤].

وعليه سنعرض الخصال التي يتمتع بها البطل، علماً أن هذه الخصال تضم في جوانبها قوة العقل والنفس وقوة الجسم وهو ما أشار إليه الفلاسفة (افلاطون والفارابي وابن رشد) اذ يجمع هذا الاخير كل هذه الصفات في واحد، أي ان البطل عنده هو البطل الذي له قوة الجسم وقوة قدرة التفكير وان كانت هذه الخصال التي يضعها له مشتقا من الفارابي في كتابه (المدينة الفاضلة)[٤٥]، وهنا نلاحظ ان العلاقة جدلية عند ابن رشد فهي مترابطة في هذه المسالة، اذ نجده يقول: (يجب ان يكون الرئيس البطل يمتلك هاتين الخصلتين: أي القدرة على الجهاد والقدرة على الاجتهاد)[٤٦]، فهذه الصفة، صفة الجهاد لاتتأتى الا لمن هو صحيح البنية الجسمية وهو المطلوب في البطل فضلاً عن قدراته الفكرية العالية المتمثلة بالاجتهاد والحكمة العميقة، وهنا نلاحظ تشديد أبن رشد على ذلك انما هو نابع مما ذكره فقهاء السياسة والدولة في التراث الاسلامي من

---

[٤١] د. ناصيف نصار: الفلسفة في معركة الايديولوجية، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٨٣ وما بعدها.

[٤٢] أدواردكار: ماهو التاريخ ، ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل، ط١، بيروت ١٩٧٦، ص٤٣.

[٤٣] الفارابي: آراء اهل المدينة ...، مصدر سابق، ص ١٠٥ -١٠٨ وقارن: السياسة المدنية، تحقيق د. فوزي متري نجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٤، ص ٧٨.

[٤٤] د. علي حسين الجابري: فلسفة التاريخ في الفكر ...، مصدر سابق،ص ١٠٨.

[٤٥] الفارابي: آراء اهل ...، المصدر نفسه، ص ١٠٥ وما بعدها وايضاً : د. حسن مجيد العبيدي، حضور الفارابي في الخطاب السياسي لابن رشد ، مجلة دراسات قومية واشتراكية العدد ٢، بغداد ٢٠٠١، ص٩٨-١١٠.

[٤٦] ابن رشد : تلخيص السياسة، مصدر سابق، ص ١٧٧-١٧٨.

السابقين عليه[٤٧]. كما تبين فأنه من الضروري أن نهتم في الخصال التي يجب ان يمتلكها البطل والتي هي الخصال الطبيعية في الملك الرئيس[٤٨] وسنعتمد على ذكر خصال الرئيس البطل كما حددها ابن رشد اذ جمع هذا الفيلسوف هذه الخصال كما وردت عن افلاطون والفارابي مضيفاً اليها رأيه، حول البطل واولى هذه الخصال واجدرها هي:

اولاً: ان هذه الخصلة يعدها ابن رشد اجدر الخصال للبطل الرئيس وهو أن يكون محباً بفطرته لدراسة الحكمة من اجل الوصول الى ادراك الحقيقة كاملة[٤٩].

ثانياً: كما يتمتع البطل الرئيس عند ابن رشد بصفة "وأن يكون جيد الحفظ ولا يعتوره النسيان لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه"[٥٠].

ثالثاً: ولان العلم هو عملية الغوص على الشيء لمعرفة مكوناته واسراره فأن ابن رشد يرى ان الرئيس البطل يجب ان يتمتع بصفة حب العلم وتحصيل العلوم بشتى انواعها وفروعها[٥١].

---

[٤٧] على سبيل المثال لا الحصر كتاب الماوردي: الاحكام السلطانية، طبعه الحلبي، القاهرة ١٩٦٦، ص٣ ومابعدها.

[٤٨] ان (ملك) ابن رشد متطابق مع (الرئيس الاول) عند الفارابي، وان كل الخصال التي يضعها ابن رشد له مأخوذة من الفارابي في كتابه المدينة الفاضلة، ص١٠٥ وما بعدها.. حتى من دون تعديل بأية صورة وكذلك نجد ان ابن رشد ايضاً يتابع افلاطون في ذلك عند تلخيصه للجمهورية وتعليقه عليها.

[٤٩] ابن رشد: تلخيص السياسة، مصدر سابق، ص ١٤٠ ويقارن: الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة (مصدر سابق)، ص ١٢٧،" ان يكون بالطبع جيد الفهم والتصور لكل مايقال له، فيلقاه بفهمه على ما يقصده القائل وعلى حب الامر نفسه " ويقارن: افلاطون، الجمهورية، مصدر سابق، ك٦ (٤٨٥)، ص ١٤٦، ويقارن: رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء، ج٤، (د.ط)، دار صادر، بيروت ١٩٥٧، ص١٢٩، ويقارن: ابن ابي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، ضمن الفلسفة السياسية عند ابن ابي الربيع، تحقيق د. ناجي التكريتي ط٢، دار الاندلس للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠، ص ٩٣-٩٤، "ان يكون له القدرة على جودة التخيل... وان يكون جيد الفهم والتصور لما يقال له... ويقارن ايضاً: ابن سينا، رسالة في الاخلاق السياسة، ط٢، (ضمن مقالات فلسفية) نشرها لويس سيخو و(آخرون) المطبعة الكاثوليكية،بيروت ١٩١١، ص ١٥٣.

[٥٠] ابن رشد: تلخيص السياسة، المصدر نفسه، ص ١٤٠، ويقارن: الفارابي، آراء اهل المدينة الفاضلة، المصدر نفسه، ص ١٢٧" ان يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه وفي الجملة لايكاد ينساه" ويقارن: افلاطون، الجمهورية، المصدر نفسه، ك٦ (٤٨٦)، ص ١٤٧، كذلك ابن ابي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، المصدر نفسه "ان يكون جيد الحفظ لما يراه ويسمعه ولا ينسى ما يدركه من العلم".

[٥١] ابن رشد، تلخيص السياسة، المصدر السابق، ص١٤٠، ويقارن: الفارابي، آراء اهل المدينة الفاضلة، المصدر السابق، ص ١٢٨ "ان يكون محباً للتعليم والاستفادة منقاد له سهل القبول لايؤلمه تعب التعليم ولايؤذيه الكد الذي ينال منه" ويقارن: افلاطون، الجمهورية، المصدر نفسه، ك٥

رابعاً: ويشدد ابن رشد على واحدة من اهم الخصال التي يتمتع بها الرئيس البطل وهي خصلة حب الصدق واهله وكراهية الكذب واهله "لان الذي يحب الصدق يحب الحق والذي يحب الحق لايكذب ورجل هذه خصاله لن يكذب ابداً"(٥٢).

خامساً: ويشدد ابن رشد ايضاً ان يكون البطل الرئيس مبغضاً للذاتّ معرضاً عنها، فشخص تسعى رغباته الى العلم لايسعى الا الى اللذة التي تتمتع بها النفس وحدها ذلك ان البطل لو كان يسعى الى طلب اللذة والانغماس فيها فأنه لن يحظى باي احترام وقبول لمن هم من معيته بل وتتحول السمة الاخلاقية التي قلنا عنها الشجاعة والعفة التي هي من خصاله وهذا لايناسب البطل(٥٣).

سادساً: ويرى ابن رشد ايضاً ان يكون البطل الرئيس غير محب للمال لان المال هو غاية كل رغبة وحال كهذه لاتلائم هؤلاء الرجال. لان المال مفسدة بطبعه لمن يرغب بجمعه والاكثار منه بل هو أصل التحاسد والتباغض بين الناس فكيف اذا كان البطل يميل الى جمعه وهو امر يرفضه ابن رشد رفضاً قاطعاً لارتباط المال بالاخلاق والقيم الخلقية في المجتمع ولان به تشترى الذمم والنفوس لان بطل ابن رشد يجب ان يكون عظيماً عبقرياً كبيراً في كل شيء(٥٤).

---

(٤٧٥)، ص ١٣٦، ايضاً ك٦ (٤٨٥)، ص ١٤٦، كذلك يقارن: اخوان الصفا، رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء، المصدر السابق، ج٤، ص١٢٩. ويقارن: ابن ابي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، المصدر السابق، ص٩٤ "ان يكون محباً للتعليم والاستفادة منقاد سهل القبول لايؤلمه تعب للعلم".

(٥٢) ابن رشد، تلخيص السياسة، المصدر نفسه، ص ١٤٠، يقارن: الفارابي، آراء اهل المدينة الفاضلة، المصدر نفسه، ص ١٢٨ "ان يكون محباً للصدق واهله مبغضاً للكذب واهله، ويقارن: افلاطون، الجمهورية، المصدر نفسه، ك٦ (٤٨٥)، ص ١٤٦.

(٥٣) ابن رشد: تلخيص السياسة، المصدر نفسه، ص ١٤٠، ويقارن: الفارابي، آراء اهل المدينة الفاضلة، المصدر لنفسه، ص١٢٨ " متجنباً للعب مبغضاً للذات الكائنة هذه"، ويقارن: افلاطون، الجمهورية، المصدر نفسه، ك٦ (٤٨٥)، ص ١٤٦، وفي هذه الصفة يذهب ابن رشد الى افلاطون معتمداً عليه إذ يقول: "فمتى تحول التيار نحو العلم بكل فروعه حامت رغبات المرء حول اللذات العقلية هاجرة الذات التي محورها الجسد، وهذا اذا كانت محبة للحكمة حقيقية لا مصطنعة" ويقارن: ابن ابي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، المصدر نفسه ، ص ٩٤ "مبغضاً لما ساءت عاقبته من اللذات".

(٥٤) ابن رشد، تلخيص السياسة، المصدر السابق، ص ١٤١، ويقارن: الفارابي، آراء اهل المدينة الفاضلة ، المصدر السابق، ص ١٢٨ "ان يكون الدرهم والدينار وسائر اعراض الدنيا هيبة عنده"، ويقارن: افلاطون، الجمهورية، المصدر نفسه، ك٦ (٤٨٥)، ص ١٤٦، ويقارن: اخوان الصفا، رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء ، المصدر السابق، ج٤، ص ١٣٠" ان يكون الدرهم والدينار وسائر اعراض الدنيا هينة عنده زاهد فيها"، ويقارن: ابن ابي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، المصدر السابق، ص ٩٤. "ان يكون عنده الدينار وسائر اغراض الدنيوية الفانية ".

سابعاً: ويؤكد ابن رشد ان يكون البطل الرئيس كبير النفس(٥٥). لان الرجل الذي يطلب معرفة كل شيء. ولم يرد من هذه المعرفة نفعاً أو غرضاً هو كبير النفس بالطبع،ولهذا فأن نفسه الناطقة لاترى بادئ الرأي في هذه الحياة الدنيا شيئاً يحسب له.

ثامناً: يركز ابن رشد على واحدة من الخصال التي يجب أن تتوافر في البطل الرئيس الا وهي خصلة الشجاعة، بقوله: "ان يكون شجاعاً، لايصرفه عن الحق خوف أو يثني عزيمته مرض أو لذة أو اكراه"(٥٦).

فالشجاعة مطلوبة في البطل لان من لم يكن شجاعاً لم يستطع أن يقهر خصمه وعدوه ولم يستطع ان يقود اهل دولته نحو كل ماهو خير، لان الشجاعة هي فضيلة خلقية تتوسط كما يقول ابن رشد بين التهور والجبن وأن الأمساك بها هو امساك باهم خصلة جسمية وفكرية وعقلية لاي انسان، ولهذا يشدد ابن رشد كثيراً على مسألة الشجاعة ويربطها بنقيضتها اللذة وغيرها من الصفات المرذولة كما أشرنا الى ذلك آنفاً.

تاسعاً: ان يقبل على مايراه خيراً بملء عزيمته، مثل العدل وسائر الفضائل الاخرى(٥٧). وفي هذا الصدد نلاحظ ان مسألة تحقيق العدالة للمجتمع والفرد امر واجب ومحتم على البطل، وامر كهذا يعد مركزياً لسمات البطل وخصاله

---

(٥٥) ابن رشد: تلخيص السياسة، ص ١٤١، ويقارن: الفارابي، آراء اهل المدينة الفاضلة، ص١٢٨، "أن يكون كبير النفس محباً للكرامة، تكبر نفسه بالطبع عن كل مايشين الأمور، وتسمو نفسه بالطبع الى الارفع منها" ويقارن: افلاطون، الجمهورية، ك٦، (٤٨٦)، ص ١٤٦، ويقارن: اخوان الصفا، رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء، ج٤، ص ١٣٠، "ان يكون كبير النفس عالي الهمة محباً للكرامة تكبر نفسه عن كل ما يشين من الامور ويشع وتسمو همة نفسه الى ارفع الامور رتبه واعلاها درجة.

(٥٦) ابن رشد: تلخيص السياسة، ص ١٤١، ويقارن: الفارابي، آراء اهل المدينة الفاضلة، ص ١٢٩ "أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي ان يفعل، جسوراً عليه مقداماً غير خائف ولاضعيف النفس"، ويقارن: افلاطون، الجمهورية، ك٦، (٤٨٦)، ص ١٤٧ ويقارن: اخوان الصفا، رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء، ج٤، ص ١٣٠ "ان يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل، جسوراً مقداماً غير خائف ولا ضعيف النفس"، ايضاً يقارن: ابن ابي الربيع، سلوك المالك وتدبير الممالك، ص ٩٤ "ان يكون قوي العزيمة على ما ينبغي غير خائف من الموت ولا ضعيف النفس".

(٥٧) ابن رشد، تلخيص السياسة، ص ١٤١، ويقارن: الفارابي آراء اهل المدينة الفاضلة، ص ١٢٨ "أن يكون بالطبع محباً للعدالة وأهله ومبغضاً للجوار والظلم وأهلها... ويؤتى من حل به الجور مواتياً لكل مايراه حسناً وجميلاً، ثم ان يكون عدلاً غير صعب القياد..." ويقارن: افلاطون، الجمهورية، ك٦، (٤٧٩)، ص ١٤١، وأيضاً ص ١٤٧، ويقارن: ابن ابي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، ص ٩٤، "ان يكون محباً للعدل والصدق واهلها مبغضاً للجوار والكذب واهلها منصفاً من نفسه"، ويقارن ابن سينا، رسالة في الاخلاق، ص ١٥٣.

ولهذا لانجد بطلاً عظيماً يولد في رحم أمة، ان لم يكن شعاره تحقيق العدالة لاهل دولته، وابن رشد يرى أن مسألة تحقيق العدالة والعدل ترتبط بالحكمة والعلم، وهي الخصلة الاولى من خصال البطل التي ذكرها ابن رشد.

عاشراً: ان يكون بليغاً حسن العبارة جيد الفطنة، قادراً على اقتناص الحد الاوسط بأيسر ما يمكنه ذلك[٥٨]. هذه هي الخصال[٥٩] الواجب توفرها في البطل.

كما يضيف ابن رشد صفة اخرى الى صفات البطل الرئيس وهي ان تتوفر فيه الخصال الجسمانية والعقلية وهي قوة النفس والجسد[٦٠].

المحور الرابع: اعداد البطل وتنشئته عند الفلاسفة

يقول افلاطون انه من الممكن ان يقوم دستور[٦١]، بشرط ان يكون الملك[٦٢]، هو الفيلسوف الذي اشرنا إليه في المحور السابق الا أنه في خصاله هو البطل المنقذ، اذ إنه هو الذي يضع الدستور ويحافظ عليه فيما بعد، ولهذا فأن الفلاسفة (افلاطون، والفارابي، وعلى الاخص ابن رشد) قد بدأوا اولا بالحديث عن طبيعة هؤلاء الابطال ونوع التعليم الذي يحصلون عليه، ولكن قبل الحديث عن كيفية إعداد البطل الرئيس كما يراه الفلاسفة الذي اشرنا إليهم، لابد أولاً من ذكر كيف نظر هؤلاء الى المجتمع الانساني وفئاته (شرائحه)، وكيف يظهر من بينها البطل الرئيس اذ يقوم المجتمع

---

(٥٨) ابن رشد، تلخيص السياسة، ص ١٤١، ويقارن: الفارابي، آراء اهل المدينة الفاضلة، ص ١٢٧، "ان يكون حسن العبارة يواتيه اللسان على أبانة كل ما يضمره ابانة تامة"، ويقارن: اخوان الصفا ، رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء، ج٤، ص ١٢٩، "ان يكون حسن العبارة يواتيه لسانه على ما في قلبه وضميره بأوجز الألفاظ"، ويقارن ابن ابي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك ، ص ٩٤ " ان يكون حسن العبارة يواتيه لسانه على أبانة جميع ما في ضميره".

(٥٩) نلاحظ ان هذه الشروط عند الفارابي (خصال) وعند اخوان الصفا هي (اكتمال لوضع الشريعة) ونجدها عند ابن ابي الربيع بمثابة (فضائل).

(٦٠) ابن رشد: تلخيص السياسة، المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٦١) افلاطون: الجمهورية، ك٥، (٤٧٤ ج)، ص ١٣٦.

(٦٢) ان لفظة (ملك) لم ترد عند افلاطون في الجمهورية بل هي لفظة ذكرها كثيراً الفارابي في مؤلفاته، انظر: حيدر آباد، تحصيل السعادة، نشرة (الهند) لسنة ١٣٤٥ هـ ، ص٤٢ اذ يقول (واسم الملك يدل على التسلط والاقتدار، والاقتدار التام هو ان يكون اعظم الاقتدارات قوة... ولذلك صار الملك على الاطلاق هو الفيلسوف واضع النواميس)–(والناموس) لغة معناه صاحب السر المطلع على باطن الأمر، انظر: مادة (نمس)، مختار الصحاح، ص ٦٨٠ وسوف نستعمل هنا مقابلاً للفظة ناموس، لفظة (دستور) الا انها تختلف عنها بعض الشيء، فالدستور: هو القاعدة التي يعمل بها أو السجل الذي تجمع فيه قوانين الملك، وان سبب اختيارنا لفظة (دستور) بدلا من (ناموس) هو ان لفظة (ناموس) تدل على معنى رسالي سماوي، .أما لفظة (دستور) لغوياً فتعني قانوناً وضعياً يضعه الملك أو الرئيس لقيادة الدولة وهو " مجموع القوانين الاساسية التي تبني شكل الدولة ونظام الحكم فيها وتحديد العلاقات بينها وبين الافراد.."، يراجع: ابن رشد، المصدر نفسه، ص ١٣٧ مع حواشيها.

الانساني عندهم، مجتمعاً كاملاً من خلال سد الحاجات الاساسية له وذلك بتعاضد وتعاون افراد المجتمع فيما بينهم إذ إن كل واحد منهم يعمل بحرفة ومهنة تساعد على قيام هذا المجتمع، ولهذا فأن الانسان كائن مدني بالطبع[٦٣].

والمجتمع عند هؤلاء الفلاسفة يتألف من ثلاث شرائح أو طبقات، هي طبقة الحرفيين من العمال والفلاحين والصناع وطبقة الحراس من الجنود وطبقة الحكام أو القادة أو الرؤساء.

ان هذه الطبقات عند هؤلاء الفلاسفة لها منظور ووسائل وأليات تربوية سواء مايخص تنمية المدارك العقلية أو تنمية القوى الجسمية وان كانت كلها تشترك في انها ينبغي ان تتعلم الرياضة لتقوية الجسد، والموسيقى لتهذيب النفس، الا أنه فيما بعد يخصص هؤلاء الفلاسفة لكل شريحة أو طبقة نمطاً تربوياً خاصاً بها وبما أن حديثنا خاص عن كيفية اعداد البطل الرئيس الذي يولد من رحم هذا المجتمع فأنا سنشير الى هذه العملية في الاعداد له وان كانت متداخلة مع الشرائح الاخرى.

ولهذا نجد ان معظم الفلاسفة يضعون هدفاً يسعون اليه من خلال بحثهم ودراستهم لمجمل القضايا الفلسفية وخاصة ما يتعلق بعصرهم وبيئتهم وان تحقيق ما يسعون اليه لابد من ان يتم عبر مدة ومراحل تدريجية كما من شأنه الوصول إليه، كذلك الحال فيما يتعلق بالتربية في الدولة عند ابن رشد مثلاً وغيره من الفلاسفة المسلمين اذ يرون أن قيام الدولة ونظامها السياسي والاجتماعي والاخلاقي لايمكن ان يحقق الهدف والنتائج الايجابية الا بوضع نظام تعليمي وتربوي وتدريبي يتناسب وطبيعة البيئة الموجودة والعصر الذي يظهر فيه البطل[٦٤] ،ولهذا عدّ هؤلاء الفلاسفة التربية شرطاً اولياً اساسياً لقيام المدينة او الدولة. فقد وضع هؤلاء الفلاسفة برنامجاً مفصلاً في التربية لأفراد الدولة الذي يسعون من خلاله الى تحقيق السعادة والخير الأسمى وأرساء دعائم واسس متينة تقوم عليها الدولة ويلاحظ ان الفلاسفة العرب المسلمين اكثر من غيرهم قد وضعوا واهتموا بالتفاصيل في هذا الجانب الذي يعدون اساساً وشرطاً رئيساً في انجاح الاهداف التي رسموها لايجاد مجتمع فاضل.

وكما ذكرنا ان هؤلاء الفلاسفة يؤكدون أن افراد الدولة يجب ان يتلقوا تربية خاصة قائمة على قواعد رصينة ومتينة وقد أسهب هؤلاء الفلاسفة في الحديث عنها فلهذا نراهم يؤكدون ان غرس الفضائل التربوية وأجتثاث الرذائل انما يتم بطريقتين

---

(٦٣) افلاطون: الجمهورية، ك١، مصدر سابق، وايضاً: ارسطو، السياسيات، (د.ط)، نقله من الاصل اليوناني الى العربية الاب أوغسطينيس بربارة، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية، بيروت ١٩٥٧، المقالة الاولى، والفارابي: آراء أهل المدينة...، مصدر سابق، ص ١١٠-١١٦. وابن رشد: تلخيص السياسة، مصدر سابق ص ٦٨.

(٦٤) ابن رشد : تلخيص السياسة، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

الأولى: يسميها (غرس الاقناع في نفوسهم من خلال الاقاويل الخطابية والشعرية وهذا جزء من العلوم النظرية التأملية الخاصة بخطاب الجمهور)[٦٥].

أما الطريقة الثانية:في نظر هؤلاءالفلاسفة(افلاطون، وارسطو ت ٣٢٢ ق.م، والفارابي، وابن رشد)[٦٦] فيسمونها بطريقة (القسر والاكراه) وهذه نلجأ اليها اذا لم نستطيع ان نقيم الطريقة الاولى، ونستعمل طريق (القسر) خاصة مع الخصوم والاعداء. أما الخاصة من الناس وهم الفلاسفة الحكام، فأن الطريقة التربوية الخاصة بهم هي تعليمهم الفضائل والعلوم النظرية التأملية وهو المنهج الصحيح لان هؤلاء معدون لقيادة الدولة ويجب ان يتصفوا بهذه الصفات.

أما بقية فئات المجتمع، ولاسيما الجمهور من الناس عامة فأن الطريقة الملائمة لهم تسمى بالخطابية أو الشعرية لانها تعتمد على الانفعالات والخيالات لعدم قدرة الجمهور من الناس على بلوغ البرهان الفلسفي الذي هو خاصية من خواص التامل الفلسفي.

ويستمر هؤلاء الفلاسفة مؤكدين ان تعليم الفضائل وغرسها في نفوس اهل الدولة تتم بطريقتين الاولى: الرياضة والثانية: الموسيقى، فنراهم يقولون (اما الرياضة فهي اكتساب الفضيلة الصحيحة للجسم واما الموسيقى فانما هي لتهذيب النفس وتمكينها من اكتساب الفضيلة الخلقية)[٦٧].

ويرى هؤلاء الفلاسفة (افلاطون، والفارابي، وابن رشد)[٦٨] انه يجب ان يكون هناك توازن بين الموسيقى والرياضة فهم يرون ان زيادة جانب الموسيقى على الرياضة يؤدي الى أن يتحول الرجل الى خنثى واذا زاد جانب الرياضة على الموسيقى يتحول الرجل الى وحشي. ويستمر هؤلاء الفلاسفة على ذكر طرق التربية وخطواتها للصغار في الدولة فهم يرون أن الشيء الأكثر ضرراً على الصغار في الدولة يسمعوا في صغرهم الحكايات الوهمية الكاذبة والاشعار المليئة بالفحش والالفاظ البذيئة التي تدعو الى الأبتعاد عن الفضائل ونص ما يقوله أبن رشد مثلاً: "يجب ان نجنبهم تعويد انفسهم وتوجيهها عن الحكايات الوهمية، بل ويجب أن نحصنهم ضدها، ونكون حذرين من ان تسبب الأذى في اجسامهم من الخوف والقشعريرة، والامر كذلك يقال عليهم

---

[٦٥] ابن رشد : تلخيص السياسة، المصدر السابق، ص٧٥ مع حواشيها.

[٦٦] افلاطون: الجمهورية، ك٢، المصدر السابق. وارسطو، السياسيات، المصدر السابق، المقالة الاولى. والفارابي، آراء اهل المدينة..، المصدر السابق، ص١١٦. وابن رشد، المصدر نفسه ،والصفحة نفسها مع حواشيها.

[٦٧] افلاطون: الجمهورية، ك٢، المصدر نفسه، أذ يؤكد بدقة على أهمية التوازن بين الرياضة والموسيقى لخلق تناغم في نفس الانسان في المدينة الفاضلة.

[٦٨] افلاطون: الجمهورية، ك٢، والفارابي: آراء اهل المدينة..، مصدر السابق، ص ١١٠-١١٦. وابن رشد، تلخيص السياسة، المصدر السابق، المقالة الاولى، ص ٨١ وما بعدها.

عندما نسلمهم الى مرضعات يرضعنهم وهم مايزالون حديثي الولادة فيعلمنهم ايضاً هذه الحكايات الواهية)[٦٩].

اما الشعر فأن هؤلاء الفلاسفة يرون أن على اهل الدولة ان لا يستعملوا الاشعار المليئة بالفحش والألفاظ البذيئة التي تدعو الى الأبتعاد عن الفضائل وان هناك نصاً يقوله ابن رشد: "ان من الواجب عدم السماح للشعراء في المدينة بمحاكاة الاشياء الدنيئة أو التي ليس لها تأثير في قبول او رفض أي شيء ، كما هو شأن القصائد العربية المليئة بالالفاظ السيئة والتي تذكر النساء والتشبث بهن والتي وجودها في هذه المدينة غير ضروري"[٧٠].

وبعد ان بينا كيف وضع هؤلاء الفلاسفة برنامجاً تربوياً لكل افراد الدولة منذ بداية حياتهم ولشرائجهم كافة، نرى مثلاً أن أبن رشد يعود أيضاً للحديث عن كيفية أدراك طبائع أولئك الميالين نحو التفلسف ونوعية التعليم الواجب لهم، وكيفية ان يكونوا فاضلين في الدولة والذين هم ابطال-حكام-لها.

ولهذا يرى ابن رشد هنا أن الصحيح هو أن نقودهم خطوة – خطوةً أي من خلال نظام تعليمي يتدرج به الشخص للنظر في الاشياء، ثم بعد ذلك يستطيع أن يرفع بصره ليرى النجوم ثم القمر الى ان يصل الى رؤية الشمس[٧١].

لقد وضع هؤلاء الفلاسفة (افلاطون، والفارابي، وابن رشد)[٧٢] برنامجاً تربوياً تعليمياً لهذه الطبقة وتوجيههم اليه عبر خطوات تدريجية الى ماهو أسهل وملائم لهم[٧٣].

فعندما يتم بلوغهم سن الستةعشرعاماً أو السبعة عشر من عمرهم ففي هذه السن يجب أزالة الرغبات الشهوية منهم، ثم بعد هذه السن يتم ممارسة ركوب الخيل، حتى يصلوا الى بلوغ سن العشرين بعد أن يتم ذلك كله يتم تهيئتهم لدراسة الفلسفة، مع تأكيدهم أنه لا يمكن تعليمهم الفلسفة قبل هذا السن. ولاسيما ان مداركهم العقلية غير مستقرة وخاصة ان أستنتاجاتهم وأحكامهم ونظرتهم للأمور ناقصة غير صحيحة[٧٤].

ويتم ايضاً توضيح الحكايات المزيفة لهم التي تربوا عليها[٧٥] وتلقوها في طفولتهم وعند تلقيهم علوم الفلسفة سيتضح لهم الأمر بحقيقة تلك الحكايات ومن ثم لن يقبلوها بل يقوموا بهدمها وألغائها بجرأة.

---

[٦٩] ابن رشد: المصدر نفسه، ص ٩٢.

[٧٠] المصدر نفسه، ص ١٦٤.

[٧١] ابن رشد : تلخيص السياسة، المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

[٧٢] المصدر نفسه، ص ١٦٤.

[٧٣] المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[٧٤] المصدر نفسه، ص ١٦٩.

[٧٥] المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

وان ابن رشد مثلاً قد شبه هذه المسألة: بالذي يتربى في اسرة مدة طويلة معتقداً انهم أهله وحين يبلغ سن المراهقة يكتشف أنه لاينتمي لهذه الاسرة، وهنا يتلاشى كل أحترام وتقدير لهؤلاء ساخراً منهم، وهذه الحالة مثلما يتعلم الحكام صناعة الجدل[٧٦] قبل هذه السن الناضج، وهذا الأمر هو سبب اندفاعهم وحماستهم وتهديم كل رأي يتجادلون حوله.

ان هذا الامر يحدث في الاغلب لهؤلاء الذين يشغلون أنفسهم بالتفلسف على هذا النحو في هذه المدن، وهذا الشيء هو الأكثر أذى لهم[٧٧].

ولهذا لابد أن يصل الى مرحلة النضج والأتزان العقلي حتى يتمكن من أدراك جوهر الأشياء ، وبعد ذلك عليهم الاستمرار في دراسة الفلسفة الى ان يصلوا الى مرحلة سن الثلاثين، حتى يستكملوا جميع اجزائها وعندما يتم لهم ذلك أي عند بلوغ سن الخامسة والثلاثين توكل لهم مهمة قيادة الجيش ، ويبقون في هذه الوظيفة مدة خمس عشرة سنة، وحينما يصلون الى سن الخمسين يصبحون بعد هذه السن اكثر جدارة وكفاءة بقيادة الحكم وادارته في هذه الدول[٧٨].

واخيراً فأن هؤلاء الفلاسفة (افلاطون، وارسطو، والفارابي، وابن رشد)[٧٩] يرون أن الدول تكون صالحة، عندما يكون بطلها أو رئيسها فيلسوفاً.

الخاتمة وأهم الاستنتاجات :

من خلال سير البحث، توصل الباحث إلى جملة من النتائج الرئيسة والتي تعد بمثابة خاتمة لهذا البحث وهي:

١. إن موضوع البطل شكل أهتماما رئيسا في عقل الإنسان عبر التاريخ، وشغل هذا الموضوع مسيرة الإنسان الطويلة ولازال كذلك لكون موضوع البطل المنقذ المخلص الملهم، هو الذي يعول عليه في اللحظات التاريخية الحاسمة في مسيرة الإنسان.

٢. إن الحضارات الإنسانية عامة، فضلاً عن الفلسفات التي تمثلها بحثت في البطل، ماهية ومفهوماً وسلوكاً وتطبيقاً، ولهذا لا نجد حضارة إنسانية مديدة وعميقة إلا وشغل موضوع البطل المنقذ المخلص الملهم مكانته الرئيسة فيها، فهو في الحضارة العراقية القديمة يمثل (لوكال) ومعناها الحرفي (الرجل العظيم)، وفي الفلسفة يمثل الملك–الرئيس ذي الصفات أو الخصال المميزة

---

[٧٦] المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[٧٧] ابن رشد: تلخيص السياسة، المصدر نفسه، ص ١٦٩.

[٧٨] المصدر نفسه، ص ١٧٠.

[٧٩] افلاطون: الجمهورية، ك٢، المصدر السابق، وارسطو: السياسيات، المصدر السابق، المقالة الاولى، والفارابي: آراء اهل المدينة..، المصدر السابق، ص١١٦. وابن رشد: المصدر نفسه، المقالة الاولى، ص ٨١ وما بعدها.

التي لا تحصل لإنسان أعتيادي، بل لإنسان مميز، وفي المخيلة الفنية حمل صورة الشجاع المنقذ الموجه الذي يحمل بشارة النصر معه دوماً.

٣. البطل المفكر أو المفكر البطل هو البعد العملي للفيلسوف، فالبطل هو العظيم الذي أكتسب سمات عظمته من الآخرين ولم يفرضها عليهم فرضاً، لذلك تجسدت البطولة في كل فعل وقول وسلوك يترك أثراً إيجابياً في الآخرين.

٤. البطولة فردية كانت ام عبقرية، علمية ام اجتماعية، عمرانية ام جهادية لايمكن لها ان تكون من غير مناخ اجتماعي وعقيدي وقانوني وسايكولوجي، فلا بطل من غير معيه وجماعة وطليعة وشعب عظيم.

٥. البطولة مفاهيم لايجتمع عليها النقيضان (الايجابي والسلبي)، فالبطل الحق يبقى ذلك العظيم التأريخي، لا المستبد المتغلب المقامر.

اثر الكيسنجرية في السياسة الامريكية النفطية تجاه دول الاوبك ١٩٧٣-١٩٧٧م

المدرس المساعد
رعد قاسم صالح(*)

المقدمة

لئن شكل الحظر النفطي لمنظمة الأوبك آبان حرب تشرين الأول ١٩٧٣م المتزامن مع تخفيض ٪ الأنتاج وزيادة سعر البرميل الواحد من النفط من ٢,٢٢ دولار الى ١٢,٥ دولار، مرحلة حاسمة في تطور العلاقات الدولية مع بداية السنة الأولى لما أطلق عليها بسياسة الوفاق بين واشنطن وموسكو وبكين، التي أفرزت الأنفراج الدولي في هذه العلاقات، فأن الدول العظمى جعلت القضايا النفطية هي الأولى في سلسلة مشاكلها وتحدياتها، فخيار تجنب الحرب النووية تعمق بقدر الأندفاع نحو الأقتصاد كأداة اولى في الصراعات الدولية، فأصبح عنف الصراع يتم في المجالات التجارية والتكنولوجية ومضامين أستخدامات النفط والطاقة، وقد راهنت الولايات المتحدة الأمريكية على هذه المجالات كنتيجة لخيارها في تهدئة المواجهات مع العالم الشيوعي أثر هزيمتها أو "أنسحابها المشرف" كما تطلق عليه من فيتنام عام ١٩٧٢م وأعترافها بعالم ثنائي القطبية العسكرية ومتعدد الأقطاب السياسية والأقتصادية، مستنده في ذلك على أمكانياتها وأمكانيات حلفائها في أوربا الغربية واليابان في كسب هذا الرهان، ثم العودة الى أحتكار التفوق العسكري من خلال تسخير المنافع الأقتصادية المادية لسباق جديد لجيل متطور من السلاح يعجز العالم الشيوعي عن اللحاق به بعد تطويق وتقويض قدراته الأقتصادية، الأمر الذي يتطلب تحوير ركائزها في العالم من أساليب المواجهات العسكرية الى أساليب المواجهات الأقتصادية كخيار أول[1].

فجاء الحظر النفطي في هذا الوقت البالغ التعقيد ليظهر على السطح حقائق ووقائع أن بقيت وتطورت لغلبت الرهان لصالح العالم الشيوعي الذي شجع هذا الحظر ودعمه لأنه يلحق الضرر بالطرف المقابل "الرأسمالي" بقدر أكبر مما يلحقه به، وحيث العالم الشيوعي يعتمد على قائده الأتحاد السوفيتي الذي يعتبر من المنتجين الرئيسيين للنفط ومالكي الأحتياطي له، ناهيك عن نجاحه في سياسة التغلغل في العراق-أيران ثم ليبيا فيما يتعلق بأتفاقيات المقايضة لنفوطهم بالسلع والسلاح والمنشآت السوفيتية الأقتصادية والعسكرية التي تتطلب تواصل العلاقات لأغراض الصيانة والخبرة التي تساعد في أتساع النفوذ السوفيتي في

(*)كلية العلوم السياسية -الجامعة المستنصرية.

[1] لمزيد من المعلومات أنظر د. وليد خدوري ، العوامل المقدرة في العلاقات النفطية العربية ، الأمريكية ، قضايا عربية ، العدد ١١ لسنة ١٩٨٠ ص ٥٤ .

المنطقة أثر نجاح الرئيس "داود" من خلع الملكية في أفغانستان وأقام نظام موالي لموسكو عام ١٩٧٣م، مما سيسهل في تصدير نفوط العراق وأيران والغاز الأيراني للأتحاد السوفيتي الذي سيعيد تصديره الى كتله أوربا الشرقية بالسعر والكمية التي يحددها ليحكم قبضته أكثر عليها بعد أن حقق نجاحاً في بسط نفوذه على أهم الممرات المائية لأمدادات النفط في البحر الأحمر والساحل الأفريقي وجزء من الخليج العربي لايمكن أجتثاثه الا عن طريق حروب وأحتلالات أقليمية، وأصبحت الأساطيل البحرية السوفيتية تملك القدرة المقابلة لقدرات الولايات المتحدة وحلفائها ناهيه أحتكارهم للتفوق في البحار والمحيطات الذي أمتد لفترة ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ومدعومة من قبل الأنظمة الحليفة لموسكو في جنوب غرب أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وفي مثل هذه الظروف صعقت الولايات المتحدة وأوربا الغربية واليابان المعتمدين في أستهلاكهم للطاقة على نفط أوبك بنسبة تزيد على ٨٠% بفضل التطور الأقتصادي الهائل الذي حدث بعد الحرب العالمية الثانية بمساعدة مشروع المساعدات الأميركي "مارشال" الذي حول الأعتماد على الفحم الى الأعتماد على النفط في أستهلاك الطاقة وجاءت الصدمة متزامنة مع البدء في الحملات السلمية والأقتصادية لتطويق النفوذ السوفيتي وحصره بتصديع الحجاب الأيدلوجي والمطالبة بالحقوق القومية والدينية للشعوب، والتحرك الدبلوماسي في المنظمات الدولية لأحداث التقارب بين دولها الشيوعية والرأسمالية وكانت الخطوة الأولى أعتراف المانيا الأتحادية "الغربية" بالوجود القانوني لألمانيا الشيوعية الشرقية.

لذلك نجد رد الفعل الأوربي أزاء الحظر النفطي وتخفيض الأنتاج جاء بأعطاء دول الأوبك العربية بعض التنازلات فيما يتعلق بالصراع العربي-الأسرائيلي، بيد أن الكيسنجرية كان لها موقف مغاير ينطلق من التعاطي مع أزمة الحظر النفطي من رؤية شمولية كونية لأبعاد مستقبلية، ونستطيع أن نوجز ذلك في قول هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة أنذاك بخطابه المشهور في أجتماع الدول الصناعية الكبرى في باريس يوم ١١/فبراير/١٩٧٤م [أن سلفي العظيم دين أتشيسون-وزير خارجية الرئيس ترومان-قال أن الكوارث تأتي من قبول حلول وسط أزاء مشاكل كبيرة ومعقدة، أن الدول المجتمعة في هذه القاعة تواجه الآن تحدياً غير مسبوق لرخائها ولكل بناء التعاون الدولي الذي كافحت لأقامته طوال حقب مضت، لقد واجهنا أثناء الأزمة الأخيرة في الشرق الأوسط أزمة طاقة أثرت على العالم كله، وطرحت أسئلة عن المستقبل، لابد من التصدي لها، أن أحتمالات التنمية وآمال الرخاء والأستقرار الضروري لهذه الأحتمالات يقتضي سياسة حازمة][2] فقد أختار كيسنجر المواجهة الحاسمة أي سحب سيطرة الدول المنتجة لسلعة النفط الإستراتيجية لتعود إلى الدول الصناعية الغربية الكبرى عن طريق الشركات المتعددة الجنسية العملاقة والمعروفة "الأخوات السبع" والعمل على فصل سياسة الدول المنتجة النفطية عن سياساتهم الخارجية في الوقت الذي يطرح سياسة جديدة قوامها الموائمة في التخطيط والتنفيذ للسياسة

---

[2] محمد حسنيين هيكل ، حرب الخليج ، أوهام القوة والنصر ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ط١ لسنة ١٩٩٢ ص٨٦ .

الخارجية والسياسة النفطية الأميركيتين، وجدد تأكيده على أهمية خيار التفوق الأقتصادي كرهان في كسب المنازلة مع العالم الشيوعي، من خلال التحرك لتطويق الأزمة وتفتيتها وأحتواء عناصرها المكونة وتوظيفهم في أتجاه تصدع البناء الأقتصادي الشيوعي بوسائل جديدة تبقى أثارها فاعلة في المستقبل سنتطرق اليها لنصل إلى الغاية من هذا البحث.

ونأخذ قبل ذلك أهم المفاهيم ذات الصلة بموضوعة البحث، في المبحث الأول ونركز حقائق التحديات التي واجهت الكيسنجرية في المبحث الثاني وماهية الوسائل والخطط الجديدة التي أحدثت الموائمة المذكورة وتسببت في سحب زمام المبادرة من دول الأوبك بحرية التصرف بهذه السلعة وبالشكل التدريجي في المبحث الثالث.

المبحث الأول

في المفاهيم ذات الصلة الكيسنجرية:

نسبه إلى الدكتور هنري كيسنجر المولود في المانيا عام ١٩٢٣م، تخرج من جامعة هارفرد وعمل فيها مختصاً في العلاقات الدولية بالأضافة إلى عمله في مراكز بحثية أخرى، أصبح مستشاراً للأمن القومي الأميركي عام ١٩٧٢م ووزير للخارجية فترة ١٩٧٣-١٩٧٧، وكانت الفترة من ١٩٧٢-١٩٧٧ مليئة بمتغيرات سياسية وأقتصادية[3] أعطت طابعاً جديداً للعلاقات الدولية بدء من سياسة الوفاق بين واشنطن وموسكو وبكين في وقت أنسحاب أميركا من فيتنام وهي منشغلة بجراح الخسائر العسكرية والبشرية والمعنوية لتواجه تحدياً كبيراً وخطيراً تمثل بالحظر النفطي لدول الأوبك القائم على السياسة النفطية الجديدة في تخفيض الأنتاج وزيادة الأسعار ومنع تصدير النفط الى واشنطن وحلفائها من قبل أعضاء أوبك المؤثر في ((الأوابك)).

ولفهم الكيسنجرية أكثر يتم من خلال التناظر الوظيفي بين قيادة الطرف الأميركي برئاسة هنري كيسنجر الذي أدار أزمة الحظر النفطي أبان فترة حرب تشرين الأول ١٩٧٣م بين أسرائيل وبعض الدول العربية وأيضاً من خلال طرح الأفكار التي كان يؤمن بها والمتفاعلة مع الفكر الأستراتيجي الأميركي والأساليب التي أتبعها كأسلوب "الخطوة فخطوة" التي أفرزت سياسته خارجية جديدة قائمة على الموائمة الأكثر مع العامل النفطي لتعطي ثماراً على الصعيد المرحلي أنذاك وعلى الصعيد المتوسط والبعيد المدى، أدت الى جني منافع مهمة أنعكست على فاعلية السياسة الخارجية ومكانتها الدولية الحالية.

وبين غياب مثل هذه القيادة في الطرف الآخر مع غياب الفكر والأسلوب الأستراتيجيين للتعامل مع الحاجة المتصاعدة للمستهلكين لسلعة النفط المهمة الأمر الذي أدى الى فقدان المبادرة تدريجياً، حتى وصل الأمر الى حالة من التمني في الحصول على قيادة توازي الكيسنجرية في الطرف العربي حينها.

لقد أمتازت الكيسنجرية بالعقيدة الأستراتيجية الوقائية، رغم أطروحاتها المميزة في القوة الدفاعية والهجومية والردع.. الخ، فقد ركزت على الأفعال الوقائية لأنقاذ الدولة من التخبط

---

[3] د. ظافر محمد العجمي،أمن الخليج العربي- تطوره وأشكالياته من منظور العلاقات الأقليمية والدولية،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٦ ص٣٧٨.

في المتغيرات السريعة والمفاجئة، وبعبارة أخرى في حالة غياب الأستراتيجية الوقائية سيتعذر على الدولة أن تملك أستعداداً مسبقاً أو تصوراً شاملاً أو تخطيطاً مستقبلياً طويل الأجل وستنصرف جهود الدولة الى معالجة الحالة الراهنة التي تواجهها وتعيشها دون توخي أستهدافها[4]. وهذه الأستراتيجية لها خصائص وشروط:

١. القدرة عن كسب الأجماع الداخلي.
٢. موافقة الحلفاء والأصدقاء.
٣. تحقق الردع الفعال.
٤. تقدم تصورات مدروسة وحلول مناسبة مقروئة بمفهوم القوة الشامل الغير محدد بالقوة النووية[5].

والحلول المناسبة للعالم الثالث "دول الجنوب" وبهذا الصدد نجده يوجه كلاماً لدول الأوبك [من الواضح أنه إذا أستمرت الضغوط إلى ما لانهاية وبشكل غير معقول، فسيكون على الولايات المتحدة النظر في التدابير المضادة التي تستطيع أتخاذها، ستفعل ذلك عن كره شديد، وما زلنا نأمل بأن لاتصل الأمور إلى هذه النقطة[6] فخلال أزمة الحظر النفطي التي عكست الخلافات الدولية إلى أطار الكوكبية ، فلم يعد هناك أنعزال بين المناطق المختلفة، فكل تحرك دبلوماسي أو عسكري في مكان ما ينتج عنه رد فعل عالمي، ولم تواجه السياسة بمثل هذا التحدي الذي واجهته خلال أزمة النفط ففي الوقت الذي تطالب به الدبلوماسية بالتدخل لحل الخلافات قبل أستفحالها نجد أن القوة العسكرية الضاغطة عاجزة عن مساندة العمل الدبلوماسي لطبيعة مشاكل الأسلحة النووية التي تجعل مجرد فكرة الحرب مرعبة[7] فجاءت فكرة تحقيق التوازن عن طريق العامل الأقتصادي وثورة التكنولوجية وهذا مانبه اليه كيسنجر وركز عليه كبعد أستراتيجي عند التعامل مع أزمة الحظر النفطي بعودة السيطرة كاملة على الثروة النفطية.

فعندما نظرت أوربا إلى حل الحظر النفطي من خلال الشراكة بينها وبين العرب في تنظيم أتفاقيات تجارية وأقتصادية كما عملت مع أسرائيل منذ المفاوضات الأقتصادية عام ١٩٥٨م وتوقيع الأتفاقية التجارية المحدودة بينهما حزيران ١٩٦٤م ثم أتفاقية التفضيل التجاري حزيران ١٩٧٠م، والأتفاقية التجارية الشاملة في آيار ١٩٧٥[8].

نجد الكيسنجرية نظرت للحظر النفطي بمنظور أستراتيجي يتعدى أطار المشاركة إلى أطار السيطرة الكاملة لأنه تحدي تاريخي كما وصفه في خطاب القاه بجامعة شيكاغو يوم ١٤ تشرين الثاني ١٩٧٤م، فقال [قبل ربع قرن من الزمان واجه العالم الغربي أزمة تاريخية

---

[4] حازم طالب مشتاق،هنري كيسنجر،العقيدة الأستراتيجية الأميركية ودبلوماسية الولايات المتحدة ، الدار العربية،بغداد، ١٩٨٧ ص٥٢ .
[5] ستان ولداس ، تجنب الحرب النووية ، ترجمة مديرية التطوير القتالي ، وزارة الدفاع العراقية ، بغداد ، ١٩٨٦ ص١٩٧
[6] الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٣ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت ص٤٦٣ .
[7] أمين هويدي ، كيسنجر وأدارة الصراع الدولي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بغداد ١٩٧٩ ص٢٧ .
[8] محمد حسنين هيكل .م.س.ذ ص ٨٨ .

وذلك عندما أنهار النظام القديم نتيجة الحرب العالمية الثانية، وأصبح عالم ما بعد الحرب مهدداً بالضائقة الأقتصادية والقلاقل السياسية ((يقصد هنا التخوف من تغلغل الأفكار والحركات الشيوعية القادمة من الأتحاد السوفيتي)) ولكن دول الغرب واجهت الأزمة بأن بنت لنفسها نظاماً للأمن والتعاون يضمن سلامتها ورخائها، وعند ذلك الحين عاش المجتمع الغربي في نوع من الأستقرار الخلاق، وفي هذه اللحظة ((لحظة الحظر النفطي)) وبعد خمسه وعشرين سنة فأنها تواجه تحدياً في نفس الحجم وهو يحتاج منا إلى رؤية والى شجاعة والى أرادة[9] وأخيراً إذا كانت الكيسنجرية هي رؤية إستراتيجية فالعبرة في الإستراتيجية هي أبعادها في الخواتيم.

النفط :

النفط مصدر للطاقة ومادة أولية للعديد من الصناعات الأساسية والمكملة، وهو سلسلة تجارية لا تستطيع أية دولة متقدمة أو متخلفة الأستغناء عنه. وهذا كله يغري إلى تحديد تواجه النفط وأستثماره، ولكن ذلك يتطلب:

١. وجود قدرة جيولوجية لتحديد تواجده.
٢. وجود قدره تكنولوجية لأستخراجه[10].
٣. وجود قدره صناعية لتكريره وأستخراج المشتقات الضرورية منه.

وحيث أن نظرية تفسير المتراكمات النفطية في أبسط أشكالها تذهب في قاعات بحار قديمة، وخلال أزمنه جيولوجية متلاحقة هاجرت السوائل الهدروكوربونية من قاعات منابعها إلى مكامن تراكمت فيها وأحتجزت ضمنها لتعطيها أهمية بالغة الخطورة نسبة للمناطق الأخرى التي لم تتجمع فيها هذا التراكمات وهذا مايطلق عليه بقصة التنقيب التي بدأت منذ نهايات القرن التاسع عشر والتي ترافقت مع بدايات التغلغل الغربي تحت شتى المسميات لمناطق هذه التراكمات.

النفط والعلاقات الدولية:

عندما نتناول مفهومين كالنفط والعلاقات الدولية يطول الحديث ويتشعب لأننا سنمر على كم هائل من الظواهر والسياسات والأحداث المترابطة بين الدول لعقود عديدة، فمنذ أكتشاف النفط التجاري عام ١٨٦٠م حتى الآن كانت أشكاليات الاستحواذ عليه مستمرة، فالأشكالية الأولى حدثت بين أثار الأنتاج الأميركي والروسي عام ١٩٠٠م فقد بلغ الأنتاج الأميركي أنذاك ٨,٥ مليون طن، مقابل الأنتاج الروسي ١٠,٤ مليون طن ليرتب لهما أهمية في علاقاتهم مع الدول الأخرى بالحجم المحدود الذي كان يتمتع به النفط في الأستخدامات نسبة إلى الحجم الكبير الذي كان يتمتع به الفحم في مثل هذه الأستخدامات ومنها أستخدامات الطاقة ـــوأرتفع الأنتاج الأميركي عام ١٩١٣ إلى ٣٣,٦ مليون طن مقابل أنخفاض الأنتاج الروسي إلى ٩,٢ مليون طن سنوياً، ليعطي أهمية أكبر لأميركا من ناحية زيادة أنتاجها

[9] الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٥ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ص٤٩٧ .

[10] لمزيد من المعلومات أنظر د. جورج طعمه النفط والعلاقات العربية الدولية قضايا عربية العدد ١١ لسنة ١٩٨٠ ص٢١ .

المتزامن مع زيادة أهمية النفط كبديل محل الفحم في كثير من الأستخدامات، وما أن أشتعلت الحرب العالمية الأولى وظهرت الحاجة المتنامية للنفط كمصدر للطاقة في الالة العسكرية أضافة إلى الأستخدامات المدنية الأخرى فيما كانت أوربا وروسيا منهمكة في تفاصيل هذه الحرب أكثر من أميركا التي بذلت جهوداً جبارة في التنقيب وزيادة الأنتاج حتى أصبحت الدولة التي تملك التأثير على أوربا ومعظم العالم في التموين والأنتاج والتصدير[11] سرعان ما أنتهت هذه الحرب لنجد أن التنافسات والصراعات بين روسيا والمانيا وبريطانيا وأميركا أخذت بالتصاعد من أجل الاستحواذ على مناطق الشرق الأوسط الغنية بهذه السلعة المهمة عالمياً، فكان النفوذ الروسي النفطي موجوداً في أيران إلى جانب النفوذ البريطاني ويقابلها محاولات التغلغل الأميركي المتزايد لنفس الغرض، والجهد الألماني لأحلال نفوذه وطرد نفوذ الدول الأخرى، ورغم أن النفوذ الروسي والبريطاني هو الأقدم منذ أتفاقية ٣١ آب ١٩٠٧م بينهما لأقتسام مناطـــق نشاطهما ونفوذهما[12] كانت الرغبة الأميركية للدخول إلى ((الشرق الأوسط)) قد بدأت منذ عام ١٩١٠ تحت شعار ((الباب المفتوح)) لتدخلها أسوة بالتدخل الروسي والبريطاني والفرنسي والهولندي بحثاً عن النفط وكانت هذه المحاولات تلاقي الصعوبات نتيجة الضغط الألماني على السلطان العثماني أنذاك[13] ورغم ذلك أرست أميركا بعثه للتنقيب عن النفط إلى فلسطين عام ١٩١٣، ولكن عملها تعطل بسبب الحرب العالمية الثانية التي جاءت نتائجها لصالح البداية الحقيقية للنفوذ النفطي الأميركي في أيران والجزيرة العربية والعراق، ذلك النفوذ الذي واجه تحدي جديد أثر ظهور القوة الألمانية النازية وسعيها لأزاحة الحضور المتنامي لأعدائها الأوربيين وأميركا عن المنطقة . منذ تعينها الدكتور "ليندنبلات" الألماني مستشاراً للمالية الأيرانية[14] نجد أن الأتفاقيات التجارية والصناعية وأتفاقيات النقل الجوي والأتفاقيات الثقافية أخذت بالأتساع على حساب النفوذ الأميركي والبريطاني خاصة بعد أستلام هتلر السلطة في المانيا عام ١٩٣٣ الذي أعطى أهمية كبيرة لأيران كمرتكز لترسيخ الأقدام الألمانية وتوسيع تواجدها في ((منطقة الشرق الأوسط)) الغنية بالنفط، وجاءت نتائج الحرب العالمية الثانية لتعطي رجحان لكفة النفوذ الأميركي على حساب نفوذ الدول العظمى الأخرى، فقد خرجت المانيا منهزمة من الحرب، وروسيا متعبة وضعيفة، فضلت التفرغ نحو أوربا الشرقية والأكتفاء بنفوذ محدود في حدودها الجنوبية المحاذية للمحافظات الشمالية لأيران المتاخمة للحدود مع أفغانستان وباكستان، وبريطانيا وفرنسا وهولندا التي أرهقتهم الحرب ووضعتهم في موقف الحاجة إلى للمساعدات الأميركية قبلوا بمشاركة أميركا معهم لأقتسام المناطق المنتجة للنفط في (الشرق الأوسط)) وواشنطن أيضاً

---

[11] أندره نوسشي ، الصراعات البترولية في الشرق الأوسط ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ط١ لسنة ١٩٧١ ص١٥ .

[12] محمد كامل محمد عبد الرحمن ، سياسة أيران في عهد رضا شاه ١٩٢١ ، ١٩٤١ جامعة البصرة ، ١٩٨٨، ص١٩ .

[13] أندره نوسشي ، المصدر السابق ص٣٦ .

[14] محمد كامل م. س. ذ. ص٧٤ .

كانت بحاجة إلى خبراتهم في هذا المجال[15] وبقيت الدول الأخرى التي لاتملك مقدرات المواجهة والذهاب للبحث عن النفوذ النفطي تنظم علاقاتها مع الدول العظمى المتمكنة في هذا المجال لتلبية حاجتها من النفط ، فظهرت هواجس مشتركة للدول أزاء النفط لم تكن بعيدة عن أفكار الكيسنجرية:

١. الحاجة إلى تواصل تدفق النفط اليها جسب الحاجة المتنامية .
٢. توظيف العائدات المالية الضخمة لتدعيم أقتصاديات الدول المنتجة مع وجود رغبة للدول المستهلكة في أشراك هذه العائدات في نظام دولي أقتصادي ومالي .
٣. تعاون دولي للسيطرة على أستقرار أسعار وأنتاج النفط .
٤. بروز الأهمية الجيوسياسية للدول المنتجة للنفط والمالكة لأحتياطياته.
٥. وجود الأهتمام الدولي المتنامي لأيجاد بدائل للنفط عند نفاذه.

وهذه الهواجس هي التي أوجدت ((السياسات النفطية)) في تفاعلات العلاقات الدولية الغير متكافئة من ناحية فاعليتها الواضحة لدى الدول العظمى المتطورة صناعياً والتي تشكل السوق الأستهلاكية وفي حالة الولايات المتحدة الأميركية والأتحاد السوفيتي تشكلان السوق الأنتاجية والأستهلاكية معاً لطبيعة علاقاتها السياسية وللأقتصادية المحلية والأقليمية والدولية المميزة. أما الدول المنتجة التي نال معظمها أستقلاله في فترات قبل وبعد النصف الثاني من القرن العشرين وتصنف بدول العالم الثالث أو دول الجنوب ، فأنها غالباً ما تحاول الخروج من قيود الدول العظمى بسبب أختلال القدرات لمحاولة التصرف بمنتوجها وعوائدها المالية بحريه أكبر، لكنها غالباً ما تجد الضواغط والموانع أزاء هذه المحاولات الأمر الذي ادى الى حدوث أزمات في العلاقات الدولية عبر العقود الماضية وكان أهمها "أزمة الحظر النفطي لعام١٩٧٣"، لأن النفط يملك القابلية في أن يكون:

١. أداة لخلق أزمة دولية، كالحظر أو تقليل الأنتاج، أو زيادة الأسعار...الخ.
٢. أداة لحل أزمة دولية، زيادة الأنتاج، تخفيض الأسعار، المساعدات...الخ.
٣. مدخل لتهديد الأمن المحلي والأقليمي والدولي-عند حالات الصراع والتنافس للمحتكرين والمحتاجين له، أو أستخدامه كورقة تأثير وضغط من دولة أو مجموعة من الدول للحصول على تنازلات وأمتيازات تلحق الضرر بالطرف الأخر، وهناك حالاتُ عديدة أخرى تنصب في هذا الأتجاه عند دراسة تاريخ الصراعات الدولية على مصادر النفط من ناحية أسبابها ونتائجها وأثارها.

النفط كعنصر مهم في الأستراتيجية الكونية الأمريكية:

تحول النفط الى مرتبة العنصر المهم جداً في التخطيط الأستراتيجي الكوني للولايات المتحدة قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بسبب تعاظم دوره في تشغيل آله الحرب والأعلام وأساليب الدعم للمجهود الحربي، فنجد في تصريح "هارولد ريكس" وزير الداخلية الأميركي

---

[15] لمزيد من المعلومات انظر محمد كامل محمد م. س. ذ. ص٨٢ كذلك أندره نوسشي م. س. ذ. ص٧٥ وأدور سابلبية ، أيران مستودع البارود ، ترجمة عز الدين محمود السراج ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨٣، ص٢٤٥ ، ص٢٤٦ .

والمسؤول أنذاك عن شؤون النفط قال موجه كلامه للرئيس فرانكلين روزفلت [الولايات المتحدة مهددة بأن تتحول لمستورد للبترول، وعليها أن تستعد لهذا الوضع] ويروي ريكس في مذكراته أنه وكبار مستشاري روزفلت كانوا يجلسون في البيت الأبيض ساعات يتناقشون عالم ما بعد الحرب... ومضى يقول [كنا نضع البوصلة على موقع مائدة الأجتماع وحيثما وضعناها فأن أبرتها كانت تقفز تلقائياً الى ناحية الشرق الأوسط][16].

الجلسة التي أشار أليها ريكس والجلسات المماثلة للأدارات اللاحقة وصولاً لأدارة الرئيس ريتشارد نيكسون فترة أزمة الحظر النفطي كان ديدنها دائماً هو الأهتمام المبالغ به لعامل النفط عند التخطيط الأستراتيجي الكوني، وأذا ما أعتبرنا أن المدلول الأستراتيجي لواشنطن وموسكو أنذاك بأنه الخطة العامة للتعامل مع الموقف الدولي في حالة صدام صريح بينهما[17] فأن خسارة معركة النفط لواشنطن مع منظمة الأوبك تعني خسارة معركة الموارد الأولية الضرورية للمعادن الأخرى في أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية مثل معادن الكوبالت والنحاس وخامات اليورانيوم في زائير... الخ، كذلك للتعاون المستقبلي للمشاركة في أستثمار الأحتياطي الهائل للنفط والغاز في سيبريا، ولهذا نجد المحللين لطبيعة السياسة الخارجية الأميركية تجاه "الشرق الأوسط" بعد حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، يؤكدون على جني ثمار المنافع الجمة من وراء وجود عامل النفط في التخطيط الأستراتيجي الذي أعتمدته هذه السياسة في أعادة السيطرة على نصف خزان البترول العالمي وثلث المخزون العالمي عندما أشرفت على مباحثات السلام في مدريد أثر ترتيب أهم أجزاء "منطقة الشرق الأوسط"، وما سياسة الأحتواء المزدوج الطويلة للعراق وأيران المترابطة أقليمياً وكبح جماحها إلا للحيلولة دون حصول أي أنقطاع لأمدادات النفط والغاز من تلك المنطقة[18].

أزمة الطاقة والصراع العربي – الأسرائيلي:

في الفترة ما بين ١٩٤٨ الى ١٩٧٢ زاد أنتاج الشرق الأوسط بنسبة ١٥٠٠ في المائة[19] وفي هذه الفترة كانت بعض الدول الأوربية تحاول الأفلات من قبضة واشنطن في مجال السيطرة على بترول الشرق الأوسط ولكن دون جدوى فجاءت موافقتها على أبقاء حصصها المتدنية على حالها بالقدر الذي تحتاج به مساندة واشنطن في الحماية ضد العالم الشيوعي والتعاون المشترك ، فلم تجازف في هذا المجال وبالذات بعد أن أصبحت تكاليف أنقطاع أو أنخفاض الواردات النفطية مكلفة جداً على الأقتصاد الأوربي وكذلك على الأقتصاد الأسرائيلي.

وقد رافق ذلك سلسلة المعلومات التي تؤكد نفاذ هذه المادة الغالية المهمة سواء كانت لجهة المستهلكين أو المنتجين، فكان الحظر النفطي وزيادة الأسعار وتخفيض سقف الأنتاج

---

16 محمد حسنين هيكل ، م. س. ذ. ص٧٣ .

17 كولن باون وبيترموني ، من الحرب الباردة حتى الوفاق ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ترجمة صادق أبراهيم عودة ، عمان ١٩٨٣ ص٢٧٤ .

18 بناء الأمن والسلام في الشرق الأوسط ، الأجندة الأميركية ، مجموعة الرئاسة للدراسات ، معهد واشنطن ، ترجمة يوسف أبراهيم الجهماني ، دار حوران للطباعة والنشر ، دمشق ٢٠٠١ ص ٧١.

19 تقرير منشور في مجلة النفط والتنمية ، وزارة النفط والمعادن ، بغداد ، ١٩٧٤ ص١٤ .

جاءت بدوافع سياسية ولكنها لم تكن منفصلة عن ضواغط متطلبات خطط التنمية القومية للدول المنتجة وضرورة توظيف العائدات المالية الضخمة في هذه الفرصة المحدودة في التاريخ الطويل للشعوب من أجل التقدم والتطور قبل الوقوع بمخاطر فوارق الهوة العميقة والواسعة أقتصادياً وتكنولوجياً بعد أختراع البدائل عن النفط في أستهلاك الطاقة والمتطلبات الأخرى الصناعية بين الدول المستهلكة المتطورة والدول المنتجة النامية والمتخلفة، كان ذلك في الطرف العربي.

أما الطرف الأسرائيلي فبدء الأعتماد على نفط حقول سيناء المحتلة ، فشهد عام ١٩٧٢ توقيع أتفاقيات عديدة مع شركات النفط الأجنبية في مجالات التنقيب والتكرير والنقل، وبلغ الأنتاج الأقصى مع نهاية عام ١٩٧٢ الى ٥,٤ مليون طن مايعادل ١٠٨ألف برميل يومياً وكانت هذه الحقول تغطي ٧٥% من حاجات أسرائيل[20] رغم أنها معرضة للنضوب منتصف عقد الثمانينيات للقرن العشرين وأن أسرائيل بصدد تعاون دولي أميركي لأتمام التنقيب وأستخراج النفط في قطاع غزة في نهاية عام ١٩٧٢ وبداية عام ١٩٧٣ للتعويض عن نفط سيناء، أما في قضية الطاقة من المحطات الذرية ، فأن العالم الأميركي المعروف أدوارد تيللر ((ابو القنبلة الهيدروجينية)) كان يقود حملة مع الناشطين الأسرائيليون لبناء محطات ذرية كهربائية تتزامن مع حملات أميركا لنفس الغرض، وجميع الدراسات تقول أن تاريخ عملها وأنتاجها سيكون خلال الأعوام ١٩٧٨- ١٩٨٠[21].

فحرب تشرين الأول ١٩٧٣ والحظر النفطي الذي أفرزته هذه الحرب ستنعكس أثارهما بشكل خطير على واقع الطاقة والأقتصاد داخل أسرائيل سيما وأن أعتماديتها على المساعدة النفطية من أوربا وأميركا ستنقطع لتعرضهم جميعاً للحظر النفطي، وهذا المتغير جعل من أزمة الحظر النفطي لدول الأوبك ملاصقاً لمسار ونتائج حرب تشرين ١٩٧٣ وللصراع العربي – الأسرائيلي على كافة الأصعدة والأزمنة.

الأنفراج الدولي والكيسنجرية:

أن التغيير الذي أصاب بشدة العلاقات الدولية وأخذ يؤثر على المناخ العام للحرب الباردة على طول خطوط المواجهات يعد أنسلاخاً عن الأطار التقليدي الذي تجمدت فيه هذه العلاقات لعدة عقود بسبب الفواصل الأيدولوجية والسياسية والنفسية وصراعات القوى والأستراتيجيات والمصالح التي قسمت العالم الى كتلة شرقية و غربية وأدت الى تلاشي أمكانات الحوار المفتوح بينهما في وقت من الأوقات، لذلك نطلق على الأنفراج الدولي بسبب سياسة الوفاق هو أنسلاخاً عن السياق، أمـــــا الأسباب:

١. الأثار الخطيرة للتكنولوجيا العسكرية التي خلقت توازن الرعب النووي.
٢. الخسائر المادية والبشرية الكبيرة المترتبة جراء دخول أحد العملاقين بشكل مباشر في أي حرب، وعلى سبيل المثال الحرب الأميركية في فيتنام كلفت أطرافها بموجب التقرير الأستراتيجي لسنة ١٩٧٢. "٧,٨" مليون من سكان فيتنام الجنوبية لاجئين،

---

[20] الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٢ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ص٢٨٠ .
[21] المصدر نفسه ص٣٢٨ .

والأصابات من العسكرين الفيتناميين الجنوبيين "١٨٠٦٧٦" والشمالية "٩٢١٢٥٠" ومن كوريا الجنوبية "٤٩٢" قتيل و"٥٦٢٢٦" قتيل من الأمريكان وأصابات المدنيين بين قتيل وجريح أكثر من ١,٥ مليون شخص، وقدرت التكاليف التي تكبدتها الولايات المتحدة في الحرب و في المساعدات كانت "١٠٩٤٨٠" مليون دولار و"١٧٠٠٠٠" مليون دولار، حتى جاءت الهدنة بين فيتنام الشمالية وواشنطن في باريس كانون الثاني ١٩٧٣ ولم تكن منعزلة عما كان يحصل في "الشرق الأوسط" من حرب وحظر نفطي[22]، وبفضل الزيارات المكوكية لكيسنجر تحول أعداء الأمس الذين كانوا يمدون فيتنام الشمالية بشتى أنواع الدعم والمساعدة ضد الآلة العسكرية لواشنطن تحول الأعداء الى شركاء في هذه الهدنة، فنجد كيسنجر يصرح في مؤتمر صحفي في شباط ١٩٧٥ ((إن الصين والأتحاد السوفيتي قد أبلغا الولايات المتحدة أنهما سوف يستخدمان نفوذهما لحمل فيتنام الشمالية[23] على ضبط النفس والألتزام بالهدنة Detene والتفاوض والأتفاق، تصرفاً كان مسايراً لمبادئ الوفاق في المهادنة والتقارب تحت مفهوم الذي يعرف بأنه نوع من التعايش السلمي الذي قترن بجهود أيجابية هدفها التوصل الى حلول جديدة للنزاعات[24] التي إذا ما تركت دون حل فقد تقود تفاقم الحرب الباردة، وأحتمال تصاعدها الى حد الأنفجار، وحالة حرب تشرين الأول ١٩٧٣ أفرزت وضعاً متفجراً يتمثل في مخاطر أنشطار أسرائيل من قبل الجيش المصري والسوري لطبيعة المساحة الطويلة الضيقة للدولة العبرية وأنهيارها مع متغير الطاقة بعودة حقول سيناء لمصر وتهديد مخطط انشاء المحطات الكهربائية الذرية مما يجعل أسرائيل قريبة من أحتمال أستخدام السلاح النووي وتشير كافة الدراسات التي أعدها المحللون بأمتلاك أسرائيل لكمية قادرة على تدمير سوريا ومصر معاً، وسيؤدي ذلك الى تفجير الوضع بالشكل الذي يجعل من الحظر النفطي ليس خياراً سياسياً فحسب بل أمراً حاسماً تمليه الوقائع الأمنية والسياسية الجديدة في الشرق الأوسط وسيكون أعبائه السلبية أشد وطأة على الأقتصاد الأميركي والأسرائيلي والأوربي، أي على جميع مكونات الطرف الغربي الرأسمالي أكثر بكثير من تأثيره على أقتصاديات وأمن العالم الشيوعي، لذلك ركز كيسنجر في هذا الصراع على مبادئ الوفاق مع العالم الشيوعي والأتحاد السوفيتي بالأستعداد التام للتفاهم لأجراء بعض التنازلات التي تحقق مرحلة نفعاً متبادلاً، خاصة بعد ظهور متغير جديد لصالح أسرائيل وهو أمكانيتها في محاصرة الجيش الثالث المصري بفضل الدعم الأميركي لها مما حقق حالة من التوازن العسكري على الأرض.

فجاء توظيف كيسنجر للمشاركة السوفيتية في أنهاء هذه الحرب مع التحرك السريع لأنهاء الحظر النفطي مكسباً للسياسة الأميركية الخارجية ونتيجة مهمة لهدف عودة

---

[22] كولن باون وبيتر موني م س ذ ص١٤١ .

[23] كولن باون وبيتر موني م س ذ ص١٤٢ .

[24] حسن بكر ، أنفراج أم وفاق دولي ، شؤون عربية عدد ١١ لسنة ١٩٨٤ ص ٢٤٠ .

النشاط الفاعل للأقتصاد الأميركي، على أعتبار أن الوفاق الدولي والأنفراج المترتب عنه هو وسيلة لهدف العودة للتفوق الأميركي عالمياً بعد أن أستقر الوضع العسكري بينهما على التعادل. ولذلك نجد أن هنري كيسنجر يعبر عن مفهومه للوفاق والأنفراج الدوليين بـــ[الأنفراج هو عملية تطورية وليست أنجازاً ثابتاً][25] أي صناعة كيسنجرية لتحقيق منافع عجزت أميركا عن تحقيقها عن طريق المواجهات العسكرية.

تتم عن طريق أنتقال العلاقات المحملة بخطر المواجهة الى علاقات التعايش السلمي والتعاون المرحلي، وفي الجدولين بيانات توضح دوافع تفضيل الولايات المتحدة الأميركية للعامل الأقتصادي والنفطي في المجابهة مع العالم الشيوعي فترة الأنفراج الدولي وما بعدها.

السنة	الولايات المتحدة الأمريكية	اليابان	ألمانيا الغربية	فرنسا	المملكة المتحدة	الأتحاد السوفيتي
١٩٥٢	٣٥٠	١٦	٣٢	٢٩	٤٤	١٣٣
١٩٦٠	٥١١	٣٩	٧١	٦٠	٧٢	٢٠١
١٩٦٦	٧٤٨	١٠٢	١٢٣	١٨٠	١٠٧	٢٨٨
١٩٧٢	١٥١٢	٣١٧	٢٢٩	٢٢٤	١٢٨	٤٣٩

جدول يوضح حجم الناتج القومي ببلايين الدولارات الأميركية بين التفوق الأميركي وحلفائها الأوربيين والأتحاد السوفيتي فترة ١٩٥٢– ١٩٧٢[26].

		١٩٦٤	١٩٦٦	١٩٦٨	١٩٧٠	١٩٧٢	١٩٧٤
الولايات المتحدة الأميركية	صواريخ عابرة للقارات I. C. B. M.	٨٣٤	٩٠٤	١٠٥٤	١٠٥٤	١٠٥٤	١٠٥٤
	صواريخ تنطلق من الغواصات S. L. B. M.	٤١٦	٥٩٢	٦٥٦	٦٥٦	٦٥٦	٦٥٦
	قاذفات قنابل بعيدة المدى	٦٣٠	٦٣٠	٥٤٥	٥٥٠	٤٥٥	٤٣٧
الأتحاد السوفيتي	صواريخ عابرة للقارات I. C. B. M.	٢٠٠	٣٠٠	٨٠٠	١٣٠٠	١٥٢٧	١٥٧٥
	صواريخ تنطلق من الغواصات S. L. B. M.	١٢٠	١٢٥	١٣٠	٢٨٠	٥٦٠	٧٢٠
	قاذفات قنابل بعيدة المدى	١٩٠	٢٠٠	١٥٠	١٥٠	١٤٠	١٤

جدول يوضح التوازن الأستراتيجي النووي بين الولايات المتحدة الأميركية والأتـــحاد السوفيتي ١٩٦٤ – ١٩٧٤[27].

[25] حسن بكر ، المصدر نفسه ص٢٣٩ ، وكذلك أنظر أسماعيل صبري مقلد الصراع الأميركي ، السوفيتي حول الشرق الأوسط ، الأبعاد الأقليمية والدولية ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ١٩٨٦ ص ص ٣٦٤-٣٦٥ .

[26] كولن باون وبيتر موني ، من الحرب الباردة حتى الوفاق م. س. ذ. ص٢٣٦ .

[27] كولن باون وبيتر موني ، من الحرب الباردة حتى الوفاق م. س. ذ. ص ٢٣٠ .

المبحث الثاني
تحديات الكيسنجرية "التحديات المحلية":

منذ قيام ما أصطلح على تسميته بأزمة الطاقة وتفاقمها، والكتب والدراسات والأبحاث تصدر لدراسة هذه الأزمة وتحليلها، لأنها ضربت بالعمق مصالح الفرد والجماعة في أميركا وبالذات شتاء عام ١٩٧٢- ١٩٧٣م المتزامن مع الحظر النفطي حيث كان هناك نقص حاد في تدفئة المنازل وتلكأ في المصانع ووسائل النقل وعجز كبير في معامل التكرير أزاء تلبية الحاجات المتنامية لطلب الوقود، ولجوء بعض الشركات الى تخزين الوقود متأثرة بالأخبار القادمة من الشرق الأوسط، حول الحرب العربية-الأسرائيلية والحظر النفطي[٢٨] فظهر التأثير الواضح على ركود الأقتصاد الأميركي، فشكل هنري كيسنجر فريق أزمة متكامل يضمن جميع الأختصاصات في حقول الجيولوجيا والكيمياء والصناعة والطاقة والأقتصاد والمال والسياسة والصراع العربي-الأسرائيلي مع خبراء المعلومات التفصيلية لجميع البلدان المنتجة للنفط والمستهلكة له والحقائق والوقائع لمنطقة الشرق الأوسط))[٢٩] ومن أهم النتائج التي توصل اليها "أن الولايات المتحدة الأميركية التي كانت تفرض قيوداً مشددة على النفط المستورد لحماية صناعة النفط في الداخل، تحولت منذ مطلع عقد السبعينيات للقرن الماضي الى مستورد رئيسي للنفط" وتزداد كميات أستيرادها سنة بعد سنة، لعجز المصادر المحلية على تلبية الزيادات السريعة، وأذا ما أستمر أستنفاذ النفط الداخلي بالشكل الموازي لزيادة هذه الطلبات ستحل الكارثة الكبرى بنضوب النفط ورهن جزء كبير من أرادة أميركـــا بيد الدولة المستمرة بأنتاج النفط.

وبهذا الصدد عبر هنري كيسنجر عن هذه الأشكالية في أيلول ١٩٧٣[عندما سيرنا دفة السياسة الخارجية على المستوى العالمي في نهاية الحرب العالمية الثانية، فأن التناسب بين مواردنا المحلية وموارد بقية العالم كان كبيراً بحيث كان في وسعنا التغلب على كل مشكله كما كان بأستطاعتنا دائماً أن نعوض عن الأفكار بالموارد. أما الان فنحن في وضع نضطر فيه الى تسيير شؤون السياسة الخارجية بطريقة أجبرت على أتباعها أمم أخرى كثيرة عبر تاريخها][٣٠] وعلم كيسنجر أن الأشكالية النفطية يمكن حلها في "الشرق الأوسط" لسد النقص المحلي، لأن المصادر الأخرى خارج نطاق "الشرق الأوسط" كبحر الشمال والاسكا وليبيا وناجيريا وغيرها لن توازي زيادة الطلب المتوقع[٣١] وهذا ما أكده "جون مكلين" رئيس مجلس أدارة شركة كونتيننتال أويل ورئيس لجنة أستشراف الطاقة الأميركية التابعة لمجلس النفط الوطني يوم ٢١ أيلول ١٩٧٢م حيث لخص نتائج دراسات عديدة للمديين المتوسط والبعيد، وأستنتج أن بأستطاعة الولايات المتحدة الأميركية معالجة الحال على نحو حسن على

---

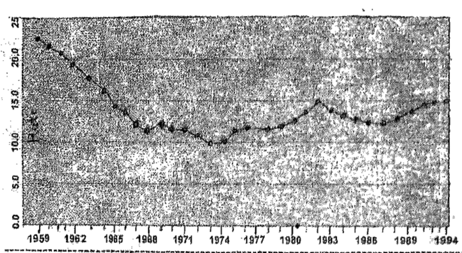
[28] لمزيد من المعلومات أنظر الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٣ ، م. س. ذ. ص ص ١٩٧ ، ٤٤٦ .

[29] د. عبد الرحمن منيف ، ملاحظات أولية حول السياسة الأميركية في مجالات الطاقة ، مجلة النفط والتنمية ، العدد ١٠ لسنة ١٩٧٧ بغداد ص ٤٩ .

[30] كولن باون وبيتر موني ، م. س. ذ. ص ٢٤٣ .

[31] د. وليد خدوري ، العوامل المقدرة في العلاقات النفطية العربية الأميركية م . س. ذ. ص٥٤ .

المدى البعيد "ببناء ٢٨٠ محطه نووية تبلغ طاقة كل منها ١٠٠٠ ميكا واط خلال الخمسة عشر عاماً المقبلة[٣٢] "غير أنه كان أقل تفاؤلاً بشأن المدى المتوسط لتوقعه حصول زيادة في واردات النفط من دول الأوبك التي ستعرض الخيارات السياسية الخارجية الى صعوبات جمة، والواقع المحلي يؤكد الحاجة الى ٥٠% من نفط " الشرق الأوسط" وهي نسبة متزايدة لمادة سريعة النفاذ التي لا تتجاوز مدة عطائها الباقية محلياً ٢٥-٣٠ سنة[٣٣] وخير من عبر عن تأثر هذا الواقع في جانبه الأقتصادي الرئيس الأميركي نيكسون فقد ذكر بمذكراته [أن الأنتاج الأقتصادي لبلاده تدنى بما مقداره ((١٥)) بليون دولار في الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٧٤م من جراء الحظر النفطي][٣٤]. أما عن الجانب الأجتماعي المدخل الأساسي للقرار السياسي، فالمجتمع الأميركي قائم على مقومات نفسية وعلاقات أجتماعية تفضل المصلحة المادية الشخصية على أي التزام أخلاقي وفق أطار أقتصادي قانوني قائم على تواصل التكنولوجيا التي تحتم الأستبدال المستمر بتكنولوجيات متحددة[٣٥] وهذا التجدد تعرض لحظر التوقف بسبب الحظر النفطي للأعوام ١٩٧٣-١٩٧٤م الذي خلق تصدع في المجتمع الأميركي جراء الأرتباك الأقتصادي وتوقف النمو وأرتفاع معدلات البطاله والفقر مما أدى الى أرتفاع معدلات الجريمة والعنف بغياب العامل الديني والأخلاقي الذي تم الأبتعاد عنه بمساحات كبيرة مما جعل هدف العودة في وقف التداعيات السلوكية لايتم إلا عن طريق عودة الأنتعاش الأقتصادي والتخلص من البطالة والفقر والجدول الآتي يشير الى تدني معدلات الفقر والبطالة لمدة الحظر النفطي ١٩٧٣-١٩٧٤ من خلال تميزها الواضح في الفترة من ١٩٥٩-١٩٩٤[٣٦].



---

[32] المصدر نفسه ص٥٥.

[33] محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج ، أوهام القوة والنصر ص٢٠٤ .

[34] مذكرات ريتشارد نيكسون ، ترجمة وتقديم د. هاني أحمد فارس ، قضايا عربية العدد ١١ لسنة ١٩٨٠ ص ٢٧٧ .

[35] لمزيد من المعلومات أنظر فرانس فوكوياما ، التصدع العظيم ، ترجمة عزة حسين كبه ، بيت الحكمة ، بغداد ٢٠٠٤ ص ٤٤

[36] المصدر نفسه ص ٧٨ .

حقائق واقع الأحتياط العالمي للنفط:

أن مجموع الأستهلاك العالمي قد أرتفع بمتوسط معدلات سنوية بلغت ٥,٥% في أعوام الخمسينيات و ٥% في أعوام الستينيات و ٤,٨% بين عام ١٩٧١ وعام ١٩٧٣، وليس غريباً أن يتوقف النمو بالفعل وبشكل مؤقت آبان الحظر النفطي بتشرين أول ١٩٧٣. وتشير الأحصائيات الى أن العالم الرأسمالي الغربي "الولايات المتحدة-كندا-أوربا الغربية-أستراليا-نيوزلندا وجنوب أفريقيا" التي تشكل ١/٥ سكان العالم كان يستهلك في عام ١٩٧٤ "٣/٥" الأنتاج العالمي للنفط، بينما العالم الشيوعي "الأتحاد السوفيتي والبلدان الشيوعية في أوربا الشرقية بأستثناء يوغسلافيا، التي تؤلف ١/١٠ من سكان العالم تستهلك قرابة ١/٤ الأنتاج العالمي من الطاقة[37] وتشير جميع الدراسات بان معظم الأحتياطيات النفطية ستختفي في العقود الثلاثة القادمة وحيث أن المناطق الغربية النفطية التي تمتلك ٤٠% من الأحتياطي النفطي لا تحتوي على مراكز سكانية مكتظة ولا تستهلك الطاقة بصورة كبيرة لغياب الحجم الصناعي الكبير والمتنوع الذي يتطلب أستهلاك محلي كبير للطاقة قد تطول مدة نفاذ الاحتياط النفطي فيه ولكن بشروط[38]:

١. بقاء تدني االأستهلاك في دول العالم المتخلف أقتصادياً ((دول الجنوب)).
٢. المحافظة على أرتفاع سنوي للأنتاج بنسبة ٥% لصادرات الأوبك .
٣. عدم ظهور رغبة جنونية لأي بلد في أستنزاف أحتياطاته بسرعة خارج معدلات زيادة الأنتاج السنوي المعقولة .
٤. بقاء معدلات الأستهلاك المحلي للدول المنتجة على حالها والقبول بزيادات طفيفة.

وأدناه بيان يتضمن أسم الدولة المنتجة للنفط مع السقف الزمني لبقاء الأحتياطي لديها حسب الدراسات والأحصاءات لعام ١٩٧٦[39] وقد سبقتها دراسات مماثلة:

١. نايجيريا-مدة أستنفاذ النفط ١٨ عاماً، للآبار الحالية.
٢. أندونيسيا - مدة أستنفاذ النفط ٢٥ عاماً، تصل الى ٤٠٠ ألف برميل بحلول عام ١٩٨٧ وتنحدر الى الصفر بحلول عام ١٩٩٢.
٣. أيران-مدة أستنفاذ النفط ٣٣ عاماً إذا أستمرت بمستويات الأنتاج من ٦ ملايين برميل يومياً، وإذا أستمرت على هذا المستوى أو زادت منه فذلك سيقصر من عمر نفاذ الأحتياط.
٤. السعودية-مدة أستنفاذ النفط ٣٦ عاماً، وأن مشاريع التنمية الكبرى ستزيد من الأستهلاك المحلي الداخلي الى١,٥ مليون برميل ليضغط على الصادرات والمحافظة على عمر النفاذ.

---

[37] تقرير النفط والتنمية ، العدد ١٠ السنة الثانية تموز ١٩٧٧ ص١٢٨ .

[38] روبرت تاكر ، مجلة المترجمة في الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية ، بيروت ص ٤٦٠ . Commentary

[39] ماجد النجار ، تقرير مترجم ، مجلة النفط والتنمية العدد ١٠ السنة الثانية تموز ١٩٧٧ ص ١٣٠ .

٥. فنزويلا–مدة أستنفاذ النفط ٢٤ عاماً، يمكن ان يكون عمر الأحتياط أكبر إذا ماتم التغلب على المشاكل الفنية المتعلقة بأستثمار حقل ((أورنيكو)) النفطي.
٦. الجزائر–مدة أستنفاذ النفط ٣٦ عاماً مع توقع زيادة الأستهلاك لتصل الى النصف إذا أستمرت الظروف الملائمة للأنتعاش الأقتصادي مع أمكانيات زيادة أنتاج الغاز.
٧. العراق–مدة أستنفاذ النفط ٤٨عام ((وقد طال عمر نفاذ الأحتياط النفطي له بسبب الحصار الأقتصادي للفترة ١٩٩١–٢٠٠٣م.

هذه البيانات كانت ماثلة أمام الأدارة الأميركية ،ومتفائلة مع الرؤية الكيسنجرية التي شخصت مخاطر خنق الأقتصاد الأميركي الراهنة والمستقبلية، ولذلك نجده يؤكد بهذا الخصوص في مقابلة أجرتها معه مجلة [أنا لا أجزم بأستحالة اللجوء الى القوة في كل الظروف. ولكن أستعمال القوة في حالة نزاع Business week على سعر النفط شئ، وفي حالة أختناق حقيقي للعالم الصناعي شئ آخر][40] وقد أيد الرئيس الأمريكي جيرالد فورد هذه الملاحظة الكيسنجرية في مقابلة صحفية يوم ٢١ كانون الثاني عام ١٩٧٥ حيث قال [أنني وقد غدت كلمة الأختناق Business week كيسنجر في هنري أويد وجهة النظر التي عبر عنها الكلمة الأساسية الأن]. وقد أعد أنذاك البنتاغون سيناريو التدخل العسكري، وظهرت تصاريح عديدة لوزير الدفاع أنذاك جيمس شلينجر بهذا الصدد[41]. وبذلك أصبحت الأشكالية النفطية من وجهة النظر الكيسنجرية لاتتعلق بالخطر أو بالسعر أو بالأنتاج فحسب، بل تتعلق بعودة السيطرة كاملة على المصادر النفطية للحيلولة دون خنق العالم الرأسمالي عن طريق سياسات نفطية لدول الأوبك قد لاتتوائم مع السياسة الأميركية من ناحية التصرف بالمخزون النفطي لها.

الموقف الأوربي:

كانت حقائق الواقع الأوربي تشير الى تكثيف الحوار العربي الأوربي نحو التعاون بالشكل الذي يوازي لأتفاقيات التعاون والتجارة الأوربية الأسرائيلية. بعد أن وصلت نسبة أعتماد أوربا على نفط "الشرق الأوسط" الى ٨٠% وأعتماد اليابان عليه ٩٠% أما الولايات المتحدة فكانت النسبة ٥٠%[42] وكانت أوربا تنظر الى دول الأوبك بأنها لم تعد موضع صراع بين الدول العظمى وإنما أصبحت هي بالذات طرفاً في هذا الصراع وطرفه الثاني الدول المستهلكة، وفي المقابل أصبح هنالك وعي تام لدى الدول المنتجة لأهميتها وأهمية مواردها في الأقتصاد العالمي، وكان التقرب الأوربي يحمل في نتائجه تأثيراً على المكانة الجيوسياسية لأسرائيل والمصالح الأميركية في الشرق الأوسط، فنجد بيان الأسرة الأوربية الذي أصدرته في ٦ تشرين الثاني ١٩٧٣ أي بعد شهر من حرب ١٩٧٣م والحظر النفطي، قد أكد على ضرورة أنهاء الأحتلال الأسرائيلي للأراضي العربية، وأخذ الحقوق المشروعة للفلسطينيين

40 لمزيد من التفاصيل أنظر الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية عام ١٩٧٥ ص ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .
41 المصدر نفسه ص ٤٦١ .
42 محمد حسنين هيكل م. س. ذ. ص ٨٨ .

بعين الأعتبار حين يحل السلام[43] وهو موقف متناغم مع العالم الشيوعي وحركة عدم الأنحياز وهذا يرتب عزلة أميركية أسرائيلية، فأوربا ظهر بها الوهن والضعف السياسي بسبب الحقائق الذي أظهرها للسطح الحظر النفطي والمتمثلة بأعتمادها على الموارد الأولية من دول الأوبك ودول الجنوب فستورد الطاقة ٩٥% والنحاس ٦٥% والبوكسيت ٥٧% وخام الألمنيوم ٩٩% وجميع ما تتطلبه من الفوسفات والكوبالت ومن خام الصفيح ٨٩% وجميع حاجاتها من المنغنيز ومن التنجستن ٩٥% ومن البن ٩٣% ومن الكاكاو ١٠٠% وتستورد ما تحتاجه للطعام ٢٨%[44]، فكان لابد من أضعاف دول الأوبك لتقوية حليف أميركا ((أوربا الغربية)) وتغطية هذه الوهن بتفعيل النظام الأقتصادي العالمي بصيغ جديدة للتجارة الدولية من أجل عودة التماسك الرأسمالي أمام العالمي الشيوعي والأنتصار عليه، سيما وأن الوقائع للنشاط الأقتصادي تشير الى رجحان الجانب الرأسمالي على الأتحاد السوفيتي بالرغم القوة الأقتصادية الأوربية + الأميركية تجاه الأتحاد السوفيتي لعام ١٩٧٣م.

	الجماعات الأوربية	الولايات المتحدة	اليابان	الأتحاد السوفيتي
عدد السـكان	٢٥٦,٦٢١	٢١٠,٤٠٠	١٠٩,٣٥٠	٣٤٧,٤٥٩
مجموع الناتج القومي من الأسترلينية الجنيهات	٣٧٤,١٧/مليار	٤٦٢,٧٥/مليار	١٠٤,٦٥/مليار	٢٣٩,٦٧ / مليار

تحول أميركا بسبب حرب فيتنام وأرتفاع أسعار النفط من دائن الى مدين، وظهور أقتصاديات موجهة تنافس الأقتصاديات الأوربية والأميركية في آسيا وأميركا اللاتينية كالهند والصين والبرازيل والمكسيك، إلا أن الكيسنجرية كانت تراهن على سياسة الوفاق في فك الأرتباط بين السياسة والأيدلوجية والأعتماد على الجغرافية السياسية وتفعيل التجارة بأدخال أنماط جديدة[45] بعد ترتيب المداخل الأساسية لعودة السيطرة على مصادر النفط.

العامل السوفيتي:

عندما أصبح الأتحاد السوفيتي قوة عالمية تعاظمت مصالحه خارج حدوده، وبالذات مع بداية عقد السبعينيات في كل من أيران والعراق، وكان العامل النفطي هو المحور الرئيسي لهذه المصالح.

ففي أيران التي تشكل واحدة من أطول الحدود لأية دولة مجاورة له، وتطل على الساحل الشمالي للخليج العربي ومخرجه المحيط الهادي وتعطي مجالاً بحرياً مهماً يعوضها عن أختناقها المائي تجاه البحر المتوسط، وتاريخ التغلغل السوفيتي أخذ مسارين:

الأول:

دعمه للمناوئين للنفوذ الغربي وللسلطة في أيران من الثوار والمتمردين وأنتشار أحزاب شيوعية وقومية عرضية في الوقت نفسه ((رغم التباين مع توجهاته الشيوعية)) داخل

---

43 الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام م. س. ذ. ص٤٩٩ .

44 كولن باون وبيتر موني م. س. ذ. ص ٢٣٨ .

45 أسامة المجذوب ، العولمة والأقليمية ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٩٩ ص٢٧ .

المحافظات الأيرانية الشمالية المتداخلة عرقياً ومذهبياً مع دول الجوار في أفغانستان وباكستان وأقاليم البطن الرخوة له في القوقاز وما حزب تودة والأحزاب الكردية والبلوستانية إلا دليل على ذلك، وما أتفاقية ٢٦ شباط ١٩٣١م الموقعة بيد الأتحاد السوفيتي ورضا خان التي أعطت حق للسوفيت حينها بالتدخل العسكري لنصرة أيران ومنحهم أمتياز التنقيب عن النفط وأستثماره في المحافظات الشمالية إلا دليل على هذا النفوذ[٤٦] والنشاط النفطي الروسي بدأ في أيران قبل ذلك بكثير أيام الأتفاق البريطاني الروسي لتقسيم المصالح في أيران عام ١٩٧٠م[٤٧] وبعد حصول المواطن الروسي ((خوستريا)) عام ١٩١٦م من رئيس وزراء أيران أنذاك على أمتياز التنقيب والأستثمار للنفط مدة سبعون عاماً[٤٨] ثم تتابع نفوذ الدول العظمى أنذاك الفرنسي والهولندي والأميركي حتى جاءت التي أكتسبها الأيرانيون في مع الصراعات المتتالية للدول العظمى في أيران وكذلك الهاجس النفسي لشاه أيران في بناء قوة أقليمية قائمة على تصورات وأمجاد الماضي السحيق[٤٩] وكذلك رغبة القيادة في العراق على الظهور بمظهر الثورية والتقدمية في أمتلاك زمام الحرية الكاملة على ثروة النفط وتسخيرها لخدمة المواطنين لترسيخ سلطتها وتقويتها في فترة تعظيم الشحنات للحظر النفطي عام ١٩٧٢-١٩٧٣م.

العامل الصيني:

لقد أثبتت الصين دوراً أيجابياً متزايداً في الشؤون الخارجية خلال بداية عقد السبعينيات للقرن الماضي ((فترة ماقبل الحظر النفطي)) وبالذات بعد تثبيت وجودها في كمبوديا أزاء الوجود السوفيتي في فيتنام الذي حل محل النفوذ الأميركي بعد نهاية حرب فيتنام عام ١٩٧٣م. وأخذ النفوذ الصيني يمتد الى أيران والعراق والخليج العربي طارحاً نفسه كقوة أقتصادية وقائد للعالم الثالث أزاء النفوذ السوفيتي والأميركي معاً[٥٠] فمنذ عام ١٩٧٠م أسس مؤسسات روابط الصداقة مع أيران والعراق والكويت، والغى مساعداته لثوار ظفار في عمان ١٩٧٢-١٩٧٣ لكسب ودها، ثم جاءت زيارة وزير خارجية الصين جي ينسغ عام ١٩٧٣م لأيران لتروي رغبة الشاه في برنامجه التسليحي الكبير، وتبعتها لنفس الغرض زيارة نائب رئيس الوزراء الصيني كيان بان عام ١٩٧٥، مستغلة تطور نموها الأقتصادي بنسبة ١٠% أزاء حالة الركود الأقتصادي في المعسكر الغربي[٥١] أن ظهور أحزاب شيوعية خارجة عن الأدارة السوفيتية وتابعة للأدارة الصينية في مناطق الشرق

---

[46] أندرة نوسشي ، الصراعات البترولية في الشرق الأوسط ، م. س. ذ. ١٩٧١ ص٣٥ .

[47] محمد كامل محمد ومراجعة د. كمال مظهر ، سياسة أيران الخارجية في عهد رضا شاه ١٩٢١-١٩٤١ جامعة البصرة ـ١٩٨٨ ص١٩ .

[48] أندره نوسشي م. س. ذ. ص ٧٥ .

[49] س. ن. ماكفرلين ، وجهة نظر السوفيت في أستخدام القوة في العالم الثالث ، ترجمة مديرية التطوير القتالي ، وزارة الدفاع ، بغداد ، ١٩٨٩ ص٢١ .

[50] جارلس ترب ، الأمن الأقليمي في الشرق الأوسط ، معهد الدراسات الأستراتيجية الدولي ، ترجمة مديرية التطوير القتالي ، وزارة الدفاع ، بغداد ، ص٢٢٠ .

[51] بي هودر ، العالم الثالث ، مشكلات وقضايا ، ترجمة حسن طه ، شركة كاظمه للنشر والترجمه ، الكويت ١٩٨٢ ، ص١٩٩ .

الأوسط كانت ظاهرة معروفة، خاصة بعد أن فسر العديد من الشيوعيين التقارب السوفيتي الأميركي بسياسة الوفاق على أنه خيانه لقضية الشيوعيه العالمية، وجاء هذا النفوذ السياسي الصيني ليضيف مشكلة جديدة لمشاكل النفوذ السوفيتي في منطقة "الشرق الأوسط" التي واجهتها الكيسنجرية لتدخلها في الرؤية الشاملة للمعالجات.
وبذلك يكون العامل السوفيتي والصيني يشكلان مدخلاً لتهديدات حرية وصول نفط الشرق الأوسط للغرب، عن طريق:

١. أمكانية التدخل العسكري السوفيتي المباشر ضد دولة منتجة للنفط.
٢. أمكانية دعم قوة أقليمية أخرى ضد دولة منتجة للنفط
٣. أمكانية قيام تعاون أقتصادي سوفيتي صيني مع أقتصاديات الدول المنتجة يقوض الروابط الأقتصادية والسياسية لهذه الدول مع الغرب، سيما وأن الصراع العربي الأسرائيلي يولد شحنات لبيئة نفسية تساعد على ذلك.
٤. أمكانية قيام ودعم حركات تمرد وعنف وأرهاب داخل الدولة النفطية مما يرتب غياب الأستقرار الأمني ويعيق تصدير النفط للغرب.

ولعل هذه الأحتمالات الواقعية هي التي أدت الى قيام ما يسمى بقوة الأنتشار السريع والتدخل العسكري الأميركي في الخليج مع بداية عقد الثمانينيات أستناداً الى الرؤية الكيسنجرية لعام ١٩٧٣م في التهيأ لأستخدام القوة العسكرية لضمان وصول النفط من الشرق الأوسط[٥٢].

وبذلك نجد أن سياسة الوفاق الدولي من وجهة النظر الأميركية لم تكن بعيدة عن السياسة الخارجية التي أتبعتها واشنطن تجاه دول الأوبك أثر الحظر النفطي لعام ١٩٧٣م لطبيعة الترابط الواقعي والعملي للعوامل والمؤثرات المحلية والأقليمية والدولية، ولم يسبق لمادة أن أكتسبت مثل هذا الترابط مثل النفط ولم يسبق أيضاً لأي صراع أن أكتسب مثل هذا الترابط أيضا كالصراع العربي الأسرائيلي.

النظام المالي العالمي:

تراكمت عوائد مالية ضخمة لدى دول الأوبك جراء تجارة النفط وهي تتزايد مع الأرتفاع المستمر لأسعار النفط طيلة عقد السبعينيات للقرن الماضي. فقد تم تقدير الفائض المالي عن الحاجة المخطط لها لدول الأوبك لسنة ١٩٧٤م بستين مليار دولار[٥٣] وأصبحت هذه العائدات عنصر قوة لايستهان بها في النظام الدولي أضافة لكونها قوة وطنية لها فعل سياسي لأنها قادرة فعلاً للتأثير على:

١. تعديل التصنيف الدولي للواقع المالية للدول، مما يحدث أرباك في النظام العالمي.
٢. توظيف الثروة المالية في أكتساب القدرات العسكرية التكنولوجيا العالية مما يؤدي الى أرباك موازين القوى الأقليمية.

---

[52] لمزيد من المعلومات أنظر جيفري ريكورد ، قوة الأنتشار السريع والتدخل العسكري الأميركي في الخليج تعريب عبد الهادي ناصف ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ١٩٨٣ م .
[53] أدور سابليه ، أيران مستودع الغرب م. س. ذ. ص ١٧ .

٣. توظيف الثروة المالية في كسب التأييد السياسي والأعلامي بوسائل التسهيلات المالية النفطية والمساعدات والقروض والمنح.

والعوامل المشار اليها أعلاه التي يمتلكها النفط دون المعادن الأخرى، هي التي جعلته عنصراً مهماً في سياسات الدول ، فلو أخذنا الولايات المتحدة كمثال لهذا المبدأ نجدها في سنة واحدة هي سنة ١٩٨٠م أستوردت من النفط ما قيمته ٧٤,٩ مليار دولار مقارنة مع ٢,٩مليار دولار لأستيراد كافة المعادن الأخرى[٥٤]، فالعوائد المالية الضخمة لدول الأوبك رتبت تأثيراً على هيكلة النظام الأقتصادية والنقدية والسياسية، وهذا مايفسر حركة الأستقطاب الذي حققته هذه الدول في مجموعة عدم الأنحياز وعموم دول العالم الثالث في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية حول قضاياها كالصراع العربي الأسرائيلي.

جدول يوضح معالم النظام الأقتصادي الدولي لعام ١٩٧٥م.

المجموعة الدولية	السكان/مليون	الدخل السنوي للفرد الدولار/ ١٩٧٥	الأميين البالغين
الدول الفقيرة جداً	١٢٠٠	١٥٠	%٦٢
الدول الرأسمالية الغنية	٧٠٠	٥٥٠٠	%١

جدول الأيرادات النفطية في أقطار اوبك ١٩٧٢ - ١٩٧٧ بآلاف الدولارات الأميركية[٥٥].

البلد	١٩٧٢	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	الزيادة المئوية بالنسبة لعام ١٩٧٦
السعودية	٤٣٤٠	٢٢٦٠٠	٢٥٧٠٠	٣٢٥٠٠	٣٧٨٠٠	%١٢,٨
ايران	٤١٠٠	١٧٥٠٠	١٨٥٠٠	٢٢٠٠٠	٢٣٠٠٠	%٤,٥
العراق	١٨٤٠	٥٧٠٠	٧٥٠٠	٨٥٠٠	٩٦٠٠	%١٢,٩
الكويت	١٩٠٠	٧٠٠٠	٧٥٠٠	٨٥٠٠	٨٥٠٠	%١٢,٩
الأمارات العربية	٩٠٠	٥٥٠٠	٦٠٠٠	٧٠٠٠	٨٣٠٠	%١٨,٩
قطر	٤١٠	١٦٠٠	١٧٠٠	٢٠٠٠	١٩٠٠	%٥,٥
ليبيا	٢٣٠٠	٦٠٠٠	٥١٠٠	٧٥٠٠	٩٤٠٠	%٢٥,٣
الجزائر	٩٠٠	٣٧٠٠	٣٤٠٠	٤٥٠٠	٥٦٠٠	%٢٤,٤
الغابون	-	٧٠٠	٨٠٠	٨٠٠	٨٠٠	-
أكوادور	-	٧٠٠	٥٥٠	٨٠٠	٥٠	-
مجموع دول أوبك	٢٢٥١٠	٩١٩٠٠	٩٤٧٠٠	١١٦٦٠٠	١٢٨٤٠٠	%١٠٦

[٥٤] المصدر نفسه ص ٣٨ .

[٥٥] عالم النفط، المجلد الحادي عشر العدد ٢،المنشور في مجلة قضايا عربية العدد ١١السنة ١٩٨٠ص ص ٧٠ - ٧١ .

المبحث الثالث

استراتيجية المواجه

كانت أهم مبادئ الأستراتيجية التي وصفها كيسنجر يتضمن:

١. الأمساك بزمام عملية البحث عن حل لأزمة الشرق الأوسط، على أن لايخرج هذا الحل عن الرؤية الكونية لأهداف الولايات المتحدة، وخاصة تلك المتعلقة بالنوايا الظاهرية لسياسة الوفاق والمخفية منها.

٢. القبول بأرتفاع أسعار البترول، والعمل على أمتصاص الفوائض المتولدة من زيادة الأسعار وتدويرها بواسطة البنوك الأميركية الكبرى، وتشجيع الأموال الباقية في يد العرب على أنماط في الأستهلاك وتلبية متطلبات ثقافة التسليح وتكاليف الحروب والمنازعات التي ستخلفها ((سياسة تفتيت مجتمعات الملل)).

٣. كسر أي تحالف بين السياسة الخارجية لدول الأوبك مع السياسة النفطية لدولهم ((أي فصل النفط عن السياسة)).

٤. عزل دول الأوبك عن العالم الثالث، وكسر كافة الروابط التي قامت جراء برامج التسهيلات النفطية والمساعدات والقروض مع خلق بيئة نفسية تتقبل تحميل العرب أعباء التضخم المالي العالمي.

٥. تشجيع السادات وحلفاء واشنطن القدامى، على[٥٦] أخراج السوفيت تماماً من "الشرق الأوسط" سياسياً وأقتصادياً.

٦. تاخير قيام نظام أقليمي لحين تقويض مقدرات جميع الأنظمة والأحزاب المناوئة لواشنطن والمتحالفة مع موسكو أو بكين.

ولتفسير هذه الأستراتيجية دون الخوض في تبريرات رحيل كيسنجر عن موقع الوزارة ومجئ غيره، بسبب بقاء أستمرارية هذه الأستراتيجية، استراتيجية المواجهة لغاية اليوم. فقد أتسمت خطط هذه الاستراتيجية على سياسات قصيرة الأمد، ومتوسط الأمد وبعيدة الأمد.

المدى القصير: أمتصاص الصدمة والعمل الفوري بسياسة مكوكية حركية ((دبلوماسية المفاوضات المباشرة والمكثفة والصريحة)) مقرونة بالتهديد وتقديم بعض التنازلات، القبول بزيادة الأسعار وزيادة الأنتاج أو تخفيضه ولكن لامجال لبقاء الحظر النفطي، وأستطاعت واشنطن أن ترفع الحظر هي وحلفائها بشكل تدريجي أبتداءاً من ١٨ آذار ١٩٧٤م لغاية ٢٥شباط ١٩٧٣م ((بأستثناء اليابان البعيدة نسبياً عن الصراع في الشرق الأوسط فقد رفع عنها الحظر في ٢٥ كانون الأول ١٩٧٣م)) مستغلة الثقل الهام لمصر في معادلة الصراع والأتفاق مع رئيسها السادات بالمقايضة لقاء تدخله لرفع الحظر الذي طلبه هو أصلاً، أما الطرف الثاني المهم الغير عربي "أيران" فقد أدركت واشنطن دوافع قبول الشاه للحظر وزيادة الأسعار والتي كان أهمها هو تغطية نفقات شراهته للتسليح وبناء الجيش القوي الكبير للعب

---

[56] لمزيد من المعلومات أنظر محمد حسنين هيكل،حرب الخليج،م. س. ذ. ص٩٠، كذلك د.عبد الرحمن منيف، ملاحظات حول السياسة الأميركية في مجال الطاقة مجلة النفط والتنمية العدد ١٠ لسنة ١٩٧٧ ص ٤٩ و د.وليد خدوري العوامل المقدرة في العلاقات العربية،الأميركية م. س. ذ. ص٥٥.

الدور[٥٧] الأقليمي الذي طالما حلم به الشاه جاء هذا الأجراء البالغ التعقيد والأهمية مع جملة من الأجراءات على الصعيد المحلي داخل الولايات المتحدة، فقد أعتمدت سياسة نفطية داخلية قوامها مشروع الأستقلال في الطاقة للرئيس نيكسون عام ١٩٧٤[٥٨] ومشروع كارتر لعام ١٩٧٧ في سياسة الطاقة القومية أنقاص الأعتماد على النفط الأجنبي من خلال:

١. أنقاص أستيرادات النفط حتى تصبح نسبة الأنقاص ١٠% لعام ١٩٧٧.
٢. وضع عوازل في جميع أبنية السكن.
٣. ترشيد أستهلاك السيارات لوقود المحركات.
٤. زيادة أنتج الفحم لأستخدامه في بعض المجلات بدلاً عن النفط.
٥. أستعمال الطاقة الشمسية في الكثير من الدور السكنية .
٦. تفعيل الخطوات في أنشاء شبكة من المحطات للطاقة النووية بالتعاون مع حلفائها الأوربيون.

ومن هنا تدخل في المدى المتوسط ثم المدى البعيد في عودة كامل السيطرة على مصادر النفط في العالم، فخطوات العمل الحثيث في الطاقة النووية، أدت إلى ثورة نووية حقيقية بفضل الحظر النفطي، فقد تحول العالم من وجود "١٩" دولة تمتلك ١٦٨ مفاعلاً نووياً عام ١٩٧٥م إلى نحو "٤٠" دولة تمتلك أكثر من "٤٠٠٠" مفاعل نووي تنتج أكثر من ٣٢٠ مليون[٥٩] كيلوواط عام ١٩٨٣م، ووصلت أنسيابية العلوم النووية لأغراض الطاقة إلى جميع جامعات الولايات المتحدة، حتى أن قصة الطالب "جون فيليب" أحد طلبة جامعة بريستون معروفة للجميع عندما أتم عمل تصميم لصنع قنبلة نووية أنشطارية يوم ٩ تشرين الأول ١٩٧٦، تقدر بثلث قوة القنبلة التي ألقيت على هيروشيما[٦٠]، المهم هنا أن الطاقة النووية الداخلة في بعض الأستخدامات البديلة للطاقة النفطية سجلت تقدم نسبي في أنقاص أعتماد واشنطن على النفط المستورد لحل مرحلي يتناسب مع الضغط المؤقت لوقف نمو المشاريع والأنتعاش الأقتصادي.

الحرب العربية الأسرائيلية لعام ١٩٧٣م:

الأمساك بزمام عمليات حل الصراع العربي الأسرائيلي بسياسة الخطوة خطوة المكوكبة بالشكل الذي يؤدي إلى فك أرتباط أستخدام النفط كأداة مرافقة للعمل السياسي العربي، أي لتجريد السياسة العربية من مقومات قوتها التي ظهرت على السطح في وحدة الموقف أولاً وثانياً في توظيف الحاجة المتزايدة للنفط العربي، على أن يتم هذا بشكل لايتقاطع مع الإستراتيجية البعيدة المدى في أمتصاص عائدات النفط المالية وعودة سيطرة المستهلكين على أنتاج النفط وتصديره وتسعيره وأستخدامه.

---

[57] محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج م. س. ذ. ص١٠٥ ، كذلك د.جورج طعمه ، النفط والعلاقات العربية الدولية م. س. ذ. ص١٣ .

[58] تقرير منشور في مجلة النفط والتنمية ، العدد ١٠ السنة الثانية تموز ١٩٧٧م ص ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

[59] رفعت السيد أحمد ، الأمن القومي العربي ، م. س. ذ. ص٩١ .

[60] هنري كيسنجر ، درب السلام الصعب ترجمة علي مخلد ، الدار العالمية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٤ م ص٩٢.

كذلك أن يكون العمل في حل هذا النزاع مرادف لمسار تقليص وطرد النفوذ السوفيتي عن المنطقة، ورغم هذه المهام الصعبة والبالغة التعقيد فقد كان كيسنجر يؤمن بقدرة المفاوضات المباشرة والمتكررة في تحقيق النتائج المطلوبة، فهو يقول بهذا الصدد "أن الدبلوماسية في مفهومها الكلاسيكي تقوم على تقريب وجهات النظر المختلفة عن طريق المفاوضات

المقايضة:

أستطاع كيسنجر أن يقايض بين تحقيق رغبة مصر في فك الحصار عن الجيش الثالث المحاصر في الضفة الغربية لقناة السويس، حتى نجح في ١٨ يناير ١٩٧٤م في أنسحاب القوات الأسرائيلية وفك حصار الجيش الثالث المصري الذي كان موقفه سيء جداً في الناحية العسكرية ومؤهل لألحاق هزيمة عسكرية مؤملة لمصر[٦١] بعد أن أخذ ضمانات من الرئيس المصري أنذاك أنور السادات برفع الحظر النفطي عن الولايات المتحدة الأميركية، وفعلاً تم ذلك في ١٨ مارس ١٩٧٤م[٦٢] وجاء رفع الحظر لجهود أساسية بذلها الرئيس السادات، وضحها في رسالة بعثها في ٢٧ يناير ١٩٧٤م الى الرئيس الأميركي يشير بأنه طلب من جميع الملوك والرؤساء العرب وخاصة دول الأوبك لرفع الحظر النفطي عن الولايات المتحدة وحلفائها، وقد وضح الرئيس المصري ذلك في خطاب القاه للشعب المصري ليوضح فيه أنه هو الذي طلب الحظر النفطي دعماً للمعركة، وهو الأن يطلب من العرب رفعه أيضاً لدعم المعركة"[٦٣] وجاء بعد ذلك التغيير الكامل للسياسة الخارجية المصرية بدرجة ١٨٠° من الطرف السوفيتي الى الطرف الأميركي ليعزل مصر عن أي مشاركة محتملة للمجابهة العسكرية أو الساخنة مع أسرائيل، وأتجهت مصر في بنائها الأقتصادي والعسكري صوب المعسكر الغربي مستفيدة من القروض والتسهيلات والمساعدات[٦٤].

وعندما لاحظت واشنطن بأن الأتحاد السوفيتي والصين يسعيان في أتجاه عدم رفع الحظر النفطي، ومقاومة موسكو تقرر واشنطن بالحل في "الشرق الأوسط" على أعتبار أنها تزعى مؤتمر جنيف المزعم عقده لحل الصراع عام ١٩٧٤م، ولم تكن تحسب بأن كيسنجر سيقوم من خلال زياراته المكوكبة بسحب البساط عنها، وحل الصراع بالطريقة الأميركية مما جعلها في موقف محرج عبرت عنه أعلامياً في المحافل الدولية وسياسياً من خلال تعميق تعاونها مع سوريا، بيد أن واشنطن ساومتها بالمقايضة عن طريق التهديد بأيقاف المساعدات الأميركية لها والمنصوص عنها بقانون منح الأتحاد السوفيتي شرط الدولة الأولى بالرعاية في العلاقات التجارية المقدم للتصديق عليه أمام الكونجرس الأميركي[٦٥]، وكذلك

---

[61] د. أسماعيل صبري مقلد ، الصراع الأميركي ، السوفيتي حول الشرق الأوسط ط١ القاهرة ١٩٨٥ ص ص٢٢٧ ٣٦٣ .

[62] لمزيد من التفاصيل أنظر الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٣م ص٤٦٣ .

[63] محمد حسنين هيكل ،.حرب الخليج أوهام القوة والنصر ، م. س. ذ. ص ٨٥ .

[64] أنظر د. جورج طعمه ، النفط والعلاقات العربية الدولية ، م. س. ذ. ص٢٥ ، كذلك الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٥م م. س. ذ. ص٤٢٧ .

[65] أسماعيل صبري مقلد ، الصراع الأميركي السوفيتي حول الشرق الأوسط م. س. ذ ص٣٦٧ .

التهديد بأيقاف مباحثات الحد من أنتشار الأسلحة الأستراتيجية بعد التوقيع على المعاهدة الأولى ((سالت ١)) عام ١٩٧٢م، والعمل المشترك للتوقيع على معاهدة ((سالت ٢)) في عام ١٩٧٦م، بيد أن العامل الأول لمقايـضتها كان عن طريق معاهدة الأمن والتعاون الأوربي التي وقعت لاحقاً في آب ١٩٧٥م، وأعترفت الأتفاقية بحدود أوربا، كما تلت المانيا الغربية عن أدعائها بأنها الدولة الألمانية الشرعية الوحيدة، وحصلت موسكو على أعتراف رسمي بالوضع الراهن من الناحية الأقليمية[٦٦] أما مقايضة الصين فكانت أسهل وهي التواقة للحصول على الأعتراف الكامل بها بدلاً عن تايوان وكانت حريصة على أتمام حضورها الفاعل في الأمم المتحدة ومجلس الأمن، ناهيك عن سعادتها بقفز أيراداتها المالية المتأتية من فتح الأسواق الأميركية لبضائعها من "٥" ملايين دولار عام ١٩٧١م الى ٥٠٠ مليون دولار عام ١٩٧٣م[٦٧] وبذلك تحقق فك الأرتباط السوفيتي-الصيني عن الحل في "الشرق الأوسط" أنذاك، ومع وجود الرغبة المصرية جسدت الكيسنجرية مقدرتها في نزع عن مصر تجسيدها لتيار القومية العربية، والتعامل معها كدولة مصرية[٦٨] لاتستطيع الاوابك التعويض عنها عند أي مواجهة عسكرية مع أسرائيل ورغم أنها واجهت مقاطعة وأنحسر نفوذها عربياً وبالذات[٦٩] بعد زيارة السادات للقدس يوم ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٧م، ولكنها دخلت العالم بثوب جديد من خلال بوابة التحالف مع واشنطن وأوربا الغربية وتل أبيب بفضل جهودها في رفع الحظر النفطي عنهم، وظهورها الدولي بمظهر الدولة الساعية للسلام والأستقرار المادحة للدور الأميركي في المنطقة ، كما وأن خروجها عن الأطار العربي أنذاك ساعد في أظهار التناقضات الأيدلوجية والسياسية للأنظمة العربية القومية الأشتراكية واليسارية والملكية والقبلية... الخ، وكانت المقايضة خاسرة للطرف العربي الذي يملك التفوق أنذاك ورابحة للطرف الأميركي الأسرائيلي رغم الضعف الواضح في العديد من عناصر القوة السياسية "الشرق أوسطية" أنذاك.

مخطط تفتيت مجتمعات الملل:

كان غياب التعاون الأقليمي لوضع أستراتيجية الأمن الأقليمي مع وجود ثغرات أمنية داخلية في البنى الأجتماعية السياسية والأقتصادية والثقافية لجميع دول الاوابك العربية الغنية بالنفط وأحتياطه جعل من أحتمالية نجاح فرض المفهوم الأمني النفطي الأميركي وفق الرؤية الكيسنجرية سيظل مسيطراً على عقول الساسة في واشنطن وسيعطي قوة للأمن القومي الأسرائيلي وفق مبدأ تبادل المنافع في أتجاه تفتيت عناصر القوة في الجسم العربي وبالذات بعد خروج مصر منه ضمن سياسات فرض الحلول والحيلولة دون تمكن الدول العربية النفطية من توظيف المتغيرات الدولية في محاولة للخروج من هذا المأزق[٧٠].

الفراغ الأمني الأقليمي:

---

66 كولن باون وبيتر موني ، من الحرب الباردة حتى الوفاق م. س. ذ. ص ٢١٤ .

67 كولن باون وبيتر موني ، من الحرب الباردة حتى الوفاق م. س. ذ. ص١٦١ .

68 محمد حسنين هيكل ، حديث المبادرة ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ١٩٨٥م ط٦ ص١٧٦.

69 المصدر نفسه ص٢١٤ .

70 رفعت سيد أحمد ، الأمن القومي العربي بعد حرب لبنان ، شؤون عربية العدد ٣٥ لسنة ١٩٨٤ ص٩٣ .

في أوائل عقد السبعينات من القرن الماضي تعرض أمن الخليج العربي والدول المرتبطة به ((إذا ما استبعدنا ليبيا والجزائر الواقعتان في الجناح الأفريقي، وهما غير مؤثران بدون الترابط والتعاون مع دول الخليج العربي، ناهيك عن أحتوائهما لنفس الأمراض السياسية والأقتصادية والأجتماعية)) نقول تعرض لأزمة حادة لما عرف بأسم "الأنسحاب البريطاني من شرق السويس" وكان الشغل الشاغل في ذلك الحين ما سمي بـــ((ملئ الفراغ الأمني)) الذي تركته بريطانيا[71]، وحيث أن الولايات المتحدة الأميركية كانت تعد الخطى لهذا الغرض إلا أن حرب تشرين الأول ١٩٧٣م والحظر النفطي الناتج عنها أعطى لهذه الخطوات أهتماماً أكثر من ناحية الاساليب والأدوات، فهي أذ كانت تعد أيران لهذا الغرض بالتعاون مع حلفائها التقليديون إلا أنها فضلت الحضور بشكل مباشر أو غير مباشر مع احداث بعض التغييرات الكيسنجرية في تأديب الدول المعنية بقرار الحظر وصولاً الى عودة هيمنة الشركات النفطية العملاقة التابعة لها على نفط المنطقة.

التهديد الداخلي لأمن دول الخليج العربي:

شكلت حقائق الميراث التاريخي من تفشي الروح الأنفصالية ووجود الحساسيات والخلافات بين الأمارات الخليجية، وقيام النظام السياسي على الأساس القبلي والعائلي وتسلط القيم والعلاقات الأستبدادية في ظل غياب النظم والتشكيلات الديمقراطية والأجتماعية المتماسكة، وظهور الأنقسامات المذهبية والعرقية والاثنية بين الشيعة والسنة وأنقسامات أثنية لأصول عربية وفارسية وباكستانية وهندية مع صراعات الحدود بين العراق والكويت الذي تخلله تصعيد الى أشتباكات عسكرية منذ عام ١٩٦١م، وكانت أخر هذه الأشتباكات في مارس ١٩٧٣م، كذلك الخلاف بين البحرين وقطر حول مطالب متناقضة، والخلافات بين السعودية حول واحة البوريمي مع أبو ظبي وسلطنة عمان، والخلافات الحدودية بين السعودية واليمن، والأحتلال الأيراني للجزر العربية الثلاث "طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو مس" الواقعة في مدخل الخليج التي هي عبارة عن خزان نفط في أمتداداتها تحت الماء[72] ناهيك عن الخلافات الأيدلوجية والسياسية بين العراق وسوريا في قيادة التنظيمات القومية لحزب البعث العربي الأشتراكي صوب الهدف المثالي في قيادة الأمة العربية المقترن بصراعهما على النفوذ في الساحة اللبنانية والفلسطينية، سعياً وراء الأجتهاد في لعب الدور الأقليمي الكبير الذي تنافسهما فيه أيران المتجهة نحو توسيع ترسانته العسكرية والتي جعلت من تدخلها في عمان عام ١٩٧٣م لمحاربة ثوار ظفار كأشارة أولية على لعب دور شرطي الخليج وأملاء الفراغ الأمني فيه بالتنسيق مع واشنطن، أن طلب شاه أيران للقدره العسكرية الرادعة والمناسبة تحت غطاء مواجهة الأتحاد السوفيتي عندما يخاطب العالم الغربي ففي أحدى المناسبات قال الشاه للسفير الأميركي في طهران عام ١٩٧٤م [أنه كلما أتسعت القوة العسكرية الأيرانية في المقاومة كلما تردد السوفيت في أرسال قطعاتهم عبر الحدود، وأذا كان الأمر يتطلب أرسال قوة سوفيتية واحدة لن يتردد الروس في أرسالها، أما أذا تطلب الأمر

---

[71] جارلس ترب ، الأمن الأقليمي في الشرق الأوسط ، م. س. ذ. ص١٨ .
[72] أسامة غزالي حرب ، أمن الخليج والأمن القومي العربي ، شؤون عربية العدد ٣٥ لسنة ١٩٨٤ .

أرسال عدد من الفرق العسكرية فسوف يتردد الكرملين من أن يفعل ذلك][73] ولكنه في الوقت نفسه طور تعاونه مع السوفيت حول الغاز منذ عام ١٩٧٠م وأنكشف ذلك في مرونة الدفع وتطوير العلاقات مع أوربا الشرقية الشيوعية مثل تمديد تسديد القروض بقيمة ٧٨٠ مليون دولار وتجهيزها بالنفط عبرالأنبوب ((بان–أدرياتيك، وهذا ما يفسر أبتعاد العالم الشيوعي من أنتقاد الشاه المباشر، الذي كان يمارس سياسة توازن القوى بين العالم الشيوعي والراسمالي خدمة لرغبة كامنة له في قيام دور أيراني كبير في المنطقة[74]. وهذا يصب في مخرجاته في غياب نظام امني لدول الأوبك الغنية التي فرضت الحظر النفطي، ناهيك عن غياب التماسك للمجتمعات السياسية لدول الأوبك المتزامن مع ظهور صراعات عرقية ومذهبية في أنظمة خالية من أبسط الممارسات الديمقراطية فأيران التي نفوسها ٤٠ مليون ((حسب أحصاء عام ١٩٧٣م)) يتكونون من ٣/١ فرس، وأكثر من ٥,٥ مليون من الأذربيجانيين وأكثر من ٤,٥ كرد العرب يشكلون أكثر من مليونيين في جنوب غرب أيران، والتركمان والبلوش بحدود ثلاث ملايين، وهذه الأقليات العرقية لها أمتدادات أجتماعية ودينية ومصلحية بدول الجوار لأيران في الشمال والغرب والشرق.

بيد أن غالبية السكان ٩٠% يدينون بالمذهب الأسلامي الشيعي ، الذي يتواصل خارج حدود أيران الى العراق حيث يتواجد أكثر من ٥٥% من المسلمين فيه شيعة، وفي الكويت أكثر من ٢٤% والأمارات العربية ١٨% وقطر ١٦% ولبنان أكثر من ٣٠% (١)، أما في السعودية فيشكل الشيعة٥٠% في المناطق الشرقية الغنية بالنفط ولكنهم يشكلون ٨% من مجموع سكان السعودية، ناهيك عن أرتباط أكراد أيران مع أكراد العراق وتركيا في أوضاع القلاقل الأمنية والسياسية المضطربة في هذا المثلث لعدة عقود ضمن سياسات القهر العنصري والفكري والتهجير.

والغريب أنه مع هذا الخلل الواضح في التركيبات العرقية والطائفية نجد غياب واضح لسياسات تعاونيه أقتصادية أو ماليه أو أمنية أو عسكرية، فالسوق الأستهلاكية متنوعة ومصادر التسليح مختلفة ومنهاج التعليم متضادة، والأيدلوجيات متناقضة، والعملات النقدية محيره ومختلفة، والثقافات الفرعية هي الطاغية على الثقافات الموحدة الشاملة، أنعكس كذلك في[75]:

١. غياب الفكر الأستراتيجي الموازي للفكر الأستراتيجي للكيسنجرية .
٢. غياب القيادات المؤهلة لخوض تحديات ، كتحدي النفط تجاه الدول العظمى .
٣. وجود ثغرات أمنية وسياسية وأقتصادية بأمكان الطرف الآخر التغلغل خلالها لتقويض مقدرات دول الأوبك... وهذا ما حصل.

---

73 جارس ترب ، الأمن الأقليمي في الشرق الأوسط م. س. ذ. ص٢٣٣ ص٦٤ .

74 المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

75 جيمس ر. كورث ، تدخل القوى العظمى في الشرق الأوسط ، ترجمة مديرية التطوير القتالي ، وزارة الدفاع العراقية ، بغداد ، ١٩٨٩م ص ٢٥٨ .

وكالة الطاقة الدولية : "OECD"

هي وليدة لمنظمة التعاون والتنمية الأقتصادية للدول الصناعية الغربية التي كانت تستهلك ٣/٢ من نفط دول الأوبك. لذلك جاء أنشاء وكالة الطاقة الدولية كاجراء سريع في قيام منظمة دولية تحت رعاية وأشراف واشنطن لمواجهة تأثير منظمة الأوبك الدولي، وهي ثمرة لجهود كيسنجر الذي أمتلك نفوذاً واسعاً في مجلس الأمن القومي في أوائل السبعينيات وربط هذا النفوذ مع مركزه كوزير للخارجية سنة ١٩٧٣م، ومقدرته في أقامة نمط جديد في أسلوب السياسة الخارجية الأميركية يتسم بالمركزية والسرية والتطابق التام مع رئيس الدولة الذي وصفه الكاتب أهارتلي (أن مشاركة الرئيس نيكسون والوزير كيسنجر كانت مشاركة غير مألوفة فعلاً، فقد كانت مبنية على تجانس في التفكير والمزاج قلما يوجد بين رئيس ووزيره[٧٦]، وفي زمنه كان التمييز أكثر وضوحاً في الطابع العلني في أتخاذ القرارت والطريقة اللامركزية لها، مع أحتوائها على خطته الظاهرة والمخفية، وتفضيل أسلوب الدبلوماسية الشخصية والتفاعل المباشر مع زعماء الدول الأخرى، وأطلق على دبلوماسية كيسنجر بدبلوماسية والخطوة خطوة التي تعني (القليل فالقليل) ولذلك جاء التحرك "Jet Diplomary"الطائرة النفاثة مترابط في حل تهدئة الصراع العربي الأسرائيلي مرافقاً لأنشاء جبهة نفطية أقتصادية تساهم في تقويض الجبهة العربية النفطية ، ففي فبراير ١٩٧٤ أعلن مؤتمر واشنطن عن قيام وكالة الطاقة الدولية، وهي منظمة تهدف إلى السيطرة على المنتوجات النفطية من خلال مواجهة منظمة الأوبك بجعل تداول النفط محكوماً بقواعد المستهلكين وليس البائعين وفق المبادئ التالية:

١. خلق آليه أجرائية، في العرض والطلب والتسويق.
٢. تنسيق سياسات الدول المستهلكة وبالذات الصناعية الكبرى في مجالات رسم سينورات البدائل وترشيد الأستهلاك.
٣. تفعيل التعاون والتنسيق مع شركات النفط العالمية الكبرى.
٤. وضع خطط طوارئ في تخزين النفط والبحث عن مصادر خارج دول الأوبك.
٥. تنسيق سياسات الأستهلاك الداخلي من ناحية التسعير وصناعة المشتقات النفطية
٦. وضع ستراتيجيات بعيدة المدى.
٧. القيام بحملة أعلامية مستديمة ضد دول الأوبك لتحميلها كافة تداعيات النظام الأقتصادي الدولي وخاصة تلك التداعيات التي تعرض لها دول الجنوب الفقيرة.

جاءت وكالة الطاقة الدولية بعيدة عن مواصفات الوكالات المتخصصة الدولية فهي بعيدة عن الشمول ولم تتحدث بأسم جميع شعوب الأرض وعضويتها محصورة على الأعضاء المؤسسين اللذين تحرك عليهم بشكل فاعل الوزير كيسنجر وهم دول "منظمة التعاون والتنمية الأقتصادية" التي تضم أوربا الغربية واليابان والولايات المتحدة الأميركية " لم تضم فرنسا فيها لأعتقادها بأن اسلوب الحوار مع العرب أفضل من المواجهة " وأصبح

---

[76] الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٤ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ط١٩٧٧ ص٣٤٦ .

عدد أعضائها أنذاك تسعة عشر دولة[٧٧] ونستطيع أن نقول أن هذه الوكالة أثبتت نجاحاً نسبياً لأنها أستطاعت أن تمتص الأزمة النفطية العالمية التي تكررت عام ١٩٧٩م في مجالات زيادة الأسعار وتخفيض الأنتاج، أثر أرتباك السياسة النفطية لدول الأوبك بعد الثورة الأسلامية في أيران وأختلافها مع السعودية والعراق في توزيع الحصص وسقف الأنتاج ومعدل الأسعار، حيث طالبت أيران بزيادة ١٥–٢٠% في الاسعار[٧٨] وكان لعامل السياسة المالية في دعـم أيجاد البـدائل السريعة الممكنة وترشيد الأستهلاك وبرامج أعادة تنظيم أليات وهياكل النمو الأقتصادي وتمويل البحث عن مصادر أخرى للنفط خارج دول الأوبك، وسياسة عودة الرأس المال النقدي للدول الصناعية الكبرى من خلال تلبية ثقافة السلاح وسياق التسلح في الشرق الأوسط بتصدير كميات كبيرة من السلاح اليها كلها لعبت دوراً في تخفيض وطأة الأزمة النفطية الثانية[٧٩] لعام ١٩٧٩م .

السياسة المالية لواشنطن وحلفائها:

في الساحة المصرية تحركت السياسة الأميركية المالية لتحمل عبء الأعتمادية المصرية من الجانب العربي البترولي الى الجانب المالي الأميركي، وجاءت التعديلات القانونية الأستثمارية المصرية للأعوام ١٩٧٤–١٩٧٧ لتواكب هذا التغيير وتساعده فيما يتعلق بدخول رأس المال الأجنبي وخروج أرباحه، أو فيما يتعلق بالقروض والمساعدات المالية والأقتصادية الأميركية[٨٠]. وفي حديث للسيد لطفي الخولي الذي كان يعتبر أنذاك من المعارضين البارزين لسياسة الأنفتاح الأقتصادي المصري على السياسة الأقتصادية والمالية الأميركية، فهو وصف البيئة النفسية للقطاع الأقتصادي معبراً عنها بأنها كانت تلوم الأتحاد السوفيتي الذي كان عاجزاً عن مساعدة مصر عسكرياً وأقتصادياً، فجاءت دعاية التصريحات للوزير كيسنجر لتصور مستقبلاً مشرقاً للعلاقات المصرية الأميركية التي جوهرها العروض والمساعدات بملايين الدولارات الأميركية لحل المشكل الأقتصادي المصري، هذه البيئة النفسية تم صياغتها لتعزز سياسة عزل مصر عن الصراع العربي الأسرائيلي وتدعم السياسة النفطية الأميركية التي تخدم الأستراتيجية التي صاغها كيسنجر[٨١] بالأنفراد بالدول النفطية.

أما على الساحة السعودية التي يرادف أسمها مع أسم النفط لدى الأميركان، فكان البحث عن الأمن الأقليمي هاجس مهم لدى السلطة السعودية الطبيعية التنافر الأيدلوجي بينها وبين العراق وأيران، ورفضها أقامة أي نشاط علني أو سري تهديداً لأمنها، ومن هنا جاءت حاجتها الى التطمينات الأمنية مع واشنطن مقايضة بالتعاون الأقتصادي والمالي والنفطي خاصة بعد تثبيت وقف أطلاق النار على الجبهة المصرية والسورية وأنحراف مصر نحو

---

77 لمزيد من المعلومات أنظر د. جورج طعمه ، النفط والعلاقات العربية الدولية م. س. ذ. ص٤٦ .

78 جارلس ترب ، الأمن الأقليمي في الشرق الأوسط م. س. ذ. ص ٧٠ .

79 حسن بكر م. س. ذ. ص١٦٥ .

80 أنظر تقرير المجموعة الأستشارية الدولية التابعة للبنك الدولي للأنشاء والتعمير ، مجلة النفط والتنمية العدد ١٠ السنة الثانية ١٩٧٧ بغداد ، ص١٣٩.

81 لمزيد من المعلومات أنظر الحوار الذي أجراه هارون هاشم رشيد مندوب فلسطين في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أنذاك مع السيد لطيف الخولي، شؤون عربية، العدد ٨ لسنة ١٩٨١م ص ص ٢٣٧-٢٣٨.

التعاون مع واشنطن بعيداً عن موسكو، لذلك نجد أن السياسة النفطية السعودية جاءت موائمة مع الرغبات الأميركية والأوربية ودليلاً على ذلك نشاط السعودية داخل منظمة الأوبك نهاية عام ١٩٧٣م فنجدها ضد تحركات اعضاء أخرين من أجل المحافظة على أسعار النفط وكميته المنتجة، فنجد الموقف المصنف في هذا الأتجاه لدى وزير النفط السعودي أنذاك محمد زكي يماني في أجتماع منظمة الأوبك أيلول ١٩٧٥م حيث قاد حملة ضد زيادة الأسعار[٨٢] لمساعدة أقتصاد أوربا وأميركا الذي مازال يعاني من آثار حظر عام ١٩٧٣م، ذلك الأقتصاد الذي أرتبط أكثر بالأقتصاد السعودي، فقد رفضت أستبدال الدولار كتسعيره للنفط، بل وزادت أنتاجها بنسبة ٢٥% للفترة ١٩٧٨م لغاية شباط ١٩٧٩م لسد النقص الحاصل في أنتاج النفط الأيراني، ولحماية الأقتصاد الغربي من الخسائر والأرباك في الوقت الذي أصبحت السندات الدولية لوكالة النقد السعودية تشمل أكثر من "١٥" بليون دولاراً في غرب أوربا عام ١٩٧٧م موزعة في بريطانيا وفرنسا وسويسرا واليابان والولايات المتحدة الأميركية، بل وجعلت السعودية ٥بلايين دولار أضافية يتم تداولها داخل فرنسا بالتعاون مع أميركا ، وخلال الأعوام ١٩٧٧- ١٩٧٨م أرتبطت عوائق النفط السعودية المالية بالنظام التعددي الغربي والأميركي بشكل خاص فكانت "٣٥" بليون دولار من الموجودات للعملات الأجنبية العائدة للسعودية بحماية الحكومة الأميركية وأكثر من "٢٤" بليون دولار من الأستثمار الأضافي، وكانت تعادل ٨٥% من نسبة الفائض[٨٣] المالي المتأتي من العائدات المالية لمبيعات النفط التي كانت سابقاً تأخذ طريقها في المجهود العربي الحربي ومساعدات دول العالم الثالث في خلق أستقطاب معادي للغرب وتحالفاتهم مع أسرائيل.

أما على الساحة العراقية، فأن نسبة تكاليف المشاريع الصناعية والنفطية هنا أو هناك لاتشكل نسبة كبيرة في أمتصاص عائدات النفط المالية الضخمة التي تجمعت بحوزة العراق أثر الزيادات الكبيرة في أسعار النفط للأعوام ١٩٧٣-١٩٧٩م سيما وأن العراق أنذاك كان ينهج سياسة أقتصادية متنوعة أغلبها قائم على التعاون مع العالم الشيوعي في أطار حكومة ذات أقتصاد مركزي، بيد أن حاجته الأمنية والداخلية والأقليمية وما ترتب عليه من تكاليف باهضة جراء الحرب العراقية-الأيرانية وطول مدتها نسبة للحروب الأقليمية الأخرى ١٩٨٠-١٩٨٨م أخرجت معظم العائدات المالية لشراء السلاح نحو البنوك العالمية ، وينطبق هذا الأمر مع إيران في هذه المدة.

ليصبح الفائض المالي لأهم أعضاء منظمة الأوبك ((العراق-أيران-السعودية ودول الخليج العربي)) في حلقات النظام المالي العالمي المسيطر عليه من قبل الغرب الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة، وكما مبين في الجداول أدناه:

٤،٧% أستثمارات وودائع مصرفية بالدولار في الولايات المتحدة

٤٢،٧% ودائع مصرفية في دول أوربا الغربية

٢٧،٤% تسهيلات وأتفاقيات ثنائية خارج بريطانيا والولايات المتحدة

---

[82] جارلس ترب ، الأمن الأقليمي في الشرق الأوسط م. س. ذ. ص٦٩ .

[83] أنس مصطفى كامل ، المدفوعات والأيرادات العربية في الثمانينيات بالدولار الأميركي أم بالدينار العراقي ضايا عربية العدد ١٠ لسنة ١٩٨٩ ص٦٨ .

٨،٥% فوائض للمنظمات الدولية للتنمية
٣،٥% سندات على الحكومة البريطانية وودائع بالأسترليني في بريطانيا
٣،٢% أستثمارات أخرى[٨٤].

ونموذج أخر لجدول يوضح أستخدامات الفوائض النفطية في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا كأهم دولتين للعدة الأستخدامات وبقية الدول الأخرى أغلبها دول أوربا الغربية لسنتين فقط بعد الحظر النفطي ١٩٧٥-١٩٧٦م[٨٥].

	١٩٧٥		١٩٧٦	
	القيمة بليون دولار أمريكي	النسبة إلى الأجمالي%	القيمة بليون دولار أمريكي	النسبة إلى الأجمالي%
(١) بريطانيا – الأجمالي منها :	٤،٣	١٢	٤،٥	% ١٣،٥
– ودائع مصرفية بالأسترليني	٠،٢		١،٤	
– ودائع مصرفية بعملات أخرى	٤،١		٥،٦	
– حوالات الخزينة البريطانية	–٠،٩		١،٢	
(٢) الولايات المتحدة الأميركية منها:	١٠،٠	٢٨	١١،٥	%٣٤،٥
– ودائع مصرفية	٠،٦		١،٦	
– سندات الخزانة الأميركية	٢،٠		٤،٢	
– أستثمارات مالية وعقارية	٦،٩		٦،٧	
(٣) الدول الأخرى	١٧،٤	٤٩	١٥،٢	%٤٦
– ودائع مصرفية	٥،٠		٥،٥	
– تسهيلات ثنائية خاصة و أستثمارات وقروض للدول النامية	١٢،٤		٩،٧	
(٤) المنظمات الدولية	٤،٠	١١	٢،٠	%٦
الأجمالي	٣٥،٧	١٠٠	٣٣،٢	%١٠٠

وفي تحليل للبيانات الواردة بالنشرة النصف الشهرية لصندوق النقد الدولي بأن تقديرات العوائد النفطية للدول المصدرة للنفط قد بلغت "IMF Survey 4. 4. 1977" ١١٣،٣ بليون دولار خلال عام ١٩٧٦م–قارنة بما قيمته ٩٧بليون دولار عام ١٩٧٥م أي بزيادة ١٧%، أما قيمة الفوائض النفطية المستثمرة في الخارج أنخفضت من ٣٥،٧ بليون دولار إلى ٣٣،٢ بليون أي بما قيمته٢،٥ بليون دولار وبنسبة ٧% بسبب زيادة في أستيرادات بعض الدول النفطية تتركز بصفة أساسية في عدد من الدول العربية التي هي السعودية، الأمارات العربية والكويت، وقد جاء هذا الأنخفاض لمحصلة لزيادة قيمة الفوائض المستثمرة في الولايات المتحدة وبريطانيا على حساب تقليصها[٨٦] في البلدان الأخرى وهذا يوضح رهن الفوائض المالية بالأقتصاد الأميركي والبريطاني.

تخفيض سعر الدولار وأرتفاع سعر الذهب:

[84] المصدر نفسه ص٨٣ .
[85] محمد صبحي الأتربي ، صفحة تقارير ، النفط والتنمية العدد ١٠ لسنة ١٩٧٧ ص ١٥٠ .
[86] المصدر نفسه ص١٤٩ .

الدولار هو التسعيره لمبيعات النفط، والفوائض المالية للدول النفطية جراء بيع نفوطهم يتم أيداعها في البنوك الأجنبية أو في مضامين الأستثمارات المختلفة والقروض يتم تسعيرها بالدولار، وبذلك يكون أنخفاض سعر الدولار الأميركي وأرتفاع سعر الذهب الذي وصل نهاية عقد السبعينات إلى ٦٦٥ دولار للأوقية في سعر الأقفال ببورصة لندن[٨٧] وبذلك خسر الدولار منذ بداية عقد السبعينات وحتى نهايتها بالتدريج ٤٠% من قيمته لصالح أرتفاع سعر الذهب، وتشير كافة تقارير المحللين أنذاك إلى عدم وجود تدخل فاعل لحماية الدولار من هذا التدهور الذي الحق خسائر مالية فادحة للقوة الشرائية لفوائض الدول النفطية، علماً أن الدولار الأميركي لم يكن وجدة تسعيره لبيع النفط فحسب بل كان يشكل ٩٠% من العمليات التجارية الدولية أنذاك ((قبل ظهور اليورو)) وبذلك تكون دول الأوبك قد خسرت ٢/٣ من قيمة القوة الشرائية للدولار مقارنة للاعوام ١٩٧٤-١٩٧٩م[٨٨].

سباق التسلح في الشرق الأوسط :

جاءت نتائج حربي ١٩٦٧-١٩٧٣م بين العرب وأسرائيل في بناء أسباب الصراع مع أضافة عامل تصعيد جديد هو الخطاب السياسي المتكرر في الأجواء الصحفية للوزير كيسنجر، في أطلاق التهديدات المتضمنة الخيار العسكري ضد الدول العربية النفطية[٨٩]، وتبع ذلك ظهور صراعات عرقية ومذهبية وأيدلوجية لدول أقليم ((الشرق الأوسط))، أدى كل ذلك إلى سباق محموم للتسلح في الشرق الأوسط، خمس التي كانت تعتمد في تسديد تكاليف تسليحها على الدول النفطية التي بلغت عام ١٩٧٣م ((٢٧٥٧)) مليون دولار، وعام ١٩٧٤م ((٤٠٧١)) مليون دولار، ناهيك عن تكاليف تسليح الدول النفطية نفسها، بيد أن المستفيد الأول كان مايزال مصدري الأسلحة، فأننا نجد أن الولايات المتحدة الأميركية كانت تسيطر على السوق العالمية منذ عام ١٩٦٥م وحتى عام ١٩٧٤م، إذ أنها صدرت ٤٩% من مجمل الصادرات العالمية، وأن ٤٠% من مجمل الأموال التي حصلت أميركا في العام ١٩٧٦-١٩٧٧م كانت ناجمة عن تصدير الأسلحة والذخائر، وسياسة التسليح للمصدرين وخاصة واشنطن كانت قائمة على مبادئ[٩٠] المنفعة المالية لحل العديد من مشاكل الدول المصدرة الأقتصادية والاجتماعية:

١. بسط السيطرة والنفوذ من خلال خلق الأعتمادية بين الدولة المصدرة والدولة المستوردة ((لأن التسليح يحتاج إلى تدريب وصيانة وتواصل علاقات أمنية وعسكرية)).

---

87 أنس مصطفى كامل ، المدفوعات والأيرادات العربية في الثمانينات م. س. ذ. ص ٦٤ .

88 المصدر نفسه ص ٧١ .

89 أمتاز الوزير كيسنجر بكثرة اللقاءات الصحفية "الشعبية" في عملية خلق بيئة نفسية محلية تتقبل أراءه في السياسة الخارجية، وجاءت ظروف فضيحة وترغيت لتضع الرئيس الأميركي نيكسون في موقف لا يستطيع منه الحركة بحرية كتلك التي تهيأت للوزير كيسنجر ، وقد وظف كيسنجر هذه القضية لمصلحة حرية تحركاته ، لمزيد من المعلومات أنظر ، الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٤ ص ٣٤٦.

90 الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٤ ص ٣٣٢ ، ص ٢٥٣ .

٢. التخلص من السلاح القديم لتجديد ترسانات الدول الصناعية الكبرى من الأسلحة الأكثر حداثه لتطوير قدراتها وضمان أستدامة تفوقها، وأن الرهان على تناقص أهمية تجارة السلاح في الدول المصدرة يكاد يكون وهماً لطبيعة المكاسب والمنافع الجمة المتأتية عنها.

ولذلك نجد أن سياسة تسليح دول الشرق الأوسط، جاءت متطابقة مع السياسة الخارجية والنفطية لواشنطن في أمتصاص عوائق النفط وخلق حاجات ضرورية وعديدة لدول المنطقة بأتجاهها في عودة السيطرة على مناطق تصدير النفط وهذا ما يفسر بالتغيير الذي حدث على الدول النفطية الغنية في الشرق الأوسط والتي كانت تملك فوائض مالية ضخمة في بدايات عقد السبعينات إلى دول تسعى لمطابقة حاجاتها مع مداخيلها بعد تورطها في حروب أقليمية ((الحرب العراقية-الأيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨-حرب الخليج الثانية ١٩٩٠-١٩٩١)) وصراعات عرقية ومذهبية وحدودية، بيد إن الوضع الأقتصادي الذي وصلت اليه الدول النفطية في بداية عقد التسعينات من القرن الماضي كان يعتبر للغرب الرأسمالي ولواشنطن هو تحرير النظام المالي من ضواغط الدول النفطية، وعودة لتدوير أموال الشرق الأوسط في النشاط الأقتصادي الرأسمالي، وعودة الروح إلى مؤسستي بريتون وودز في أبرام أتفاقيات الدول النامية ((دول الجنوب)) مع صندوق النقد الدولي ["بعد أن كانت هذه الدول تبرم الأتفاقيات الأقتصادية ذات المضمون السياسي مع برامج التسهيلات النفطية التي كانت ترعاها دول الأوبك طيلة عقد السبعينيات من القرن المضي"[٩١]] وكانت أتفاقيات الدول النامية وصندوق النقد الدولي تشرط تقليص دور الدولة في العملية الأنتاجية لأحداث الموائمة المطلوبة مع النظام الأقتصادي العالمي، وبذلك تم تحقيق المطابقة بين السياسة المالية الأقتصادية مع السياسة الخارجية لواشنطن وحلفائها في أوربا الغربية واليابان، لتحقيق الأستثمار لهذا المثلث أربعة أضعاف معدل نمو الناتج العالمي، وثلاثة أضعاف معدل نمو التجارة الدولية، بينما سيطرت المؤسسات المتعددة الجنسيات النفطية منها والأقتصادية التابعة لهذا المثلث على٨٠% من هذه الأستثمارات المملوكة لهذه المؤسسات حوالي٢ تريلليون دولار وهو ما يمثل قرابة خمسة أضعاف قيمتها في عام ١٩٧٩"[٩٢].

---

[91] لمزيد من المعلومات أنظر د. خلاف عبد الجبار ؛ أستخدام العائدات النفطية في حساب التسهيلات النفطية وأثاره - النفط والتنمية العدد ١٠ لسنة ١٩٧٧م مطبعة الأديب ، بغداد ، ص ٩٢ .

[92] لمزيد من المعلومات أنظر ، أسامة المجذوب ، العولمة والأقليمية ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ط١ لسنة ٢٠٠٠م ص ص ٣٤ ، ٣٧ .

جدول يوضح حصة الشرق الأوسط من صادرات الأسلحة لأكبر المصدرين بين العام ١٩٧٠ والعام ١٩٧٦
((المصدر معهد سيبري – التسلح الدولي – ستوكهولم ١٩٧٨م))

الجهة المصدرة	أجمالي قيمة الأسلحة مقدراً بملايين الدولارات للأسعار الثابتة للعام ١٩٧٥م	النسبة المئوية من مجمل الكمية في العالم	أكثر المناطق تسلما للأسلحة	نسبة المنطقة من الأجمالي العالمي	أكثر الدول تسلما للسلاح في مثل هذه المناطق	نسبة ما تسلمت البلد إلى أجمالي ما زود به المصدر
الولايات المتحدة	١٢٣٠٣	٣٨	الشرق الأوسط	٦٢	أيران	٣١
			الشرق الأقصى	٢٧	فيتنام الجنوبية	١٢
			أمريكا الجنوبية	٧	البرازيل	٢
الأتحاد السوفيتي	١١٠٥٧	٣٤	الشرق الأوسط	٥٧	سورية	٢٣
			شمال أفريقيا	١٣	ليبيا	١٣
			الشرق الأقصى	١٣	فيتنام الجنوبية	٧
المملكة المتحدة	٣٠٧٦	٩	الشرق الأوسط	٤٩	أيران	٢٦
			أمريكا الجنوبية	٢٢	تشيلي	٨
			جنوبي أسيا	١٤	الهند	١٢
فرنسا	٢٩٦٣	٩	شمال أفريقيا	٢٤	ليبيا	١٦
			الشرق الأوسط	٢٣	مصر	٥
			أمريكا الجنوبية	١٨	فنزويلا	٦

جدول يوضح المصروفات العسكرية لبلدان العالم الثالث مقدرة بملايين الدولارات الأميركية ووفق أسعار عام ١٩٧٣م ، ومعدلات التحويل للعام نفسه
" المصدر معهد سيبري – التسلح الدولي ١٩٧٩"[93]

العام / المنطقة	١٩٥٧	١٩٦٦	١٩٧٠	١٩٧٦	١٩٥٧-١٩٦٦	١٩٦٦-١٩٧٦	حسب الأسعار ومعدلات التحويل الجارية
الشرق الأوسط	١٠٢٥	٢٨٧٥	٦١٧٥	٢١٥٢٥	٢،٨	٧،٥	٣٢٧٩٦
جنوبي أسيا	١١٠٠	٢٣١٣	٢٨٥٦	٣٣١٥	٢،١	١،٤	٣٨٥٠
الشرق الأقصى	٢٩٠٠	٤٩٢٩	٧٠٦١	٩٠٠٠	١،٧	١،٩	١٢٨٦٩
أفريقيا"دون مصر"	٣٠٠	١٣٩٧	٢٥٦٧	٦٢١٠	٤،٧	٤،٤	٨٦٢١
أمريكا الوسطى	٣٥٠	٦١٧	٧٦١	١١٥٠	١،٨	١،٩	١٣٩٦
أمريكا الجنوبية	٢٠٠٠	٢١٧٩	٢٨٠٧	٤٠٦٠	١،١	٢	٤٥٢٠

[93] منذر أحمد مطلك ، تجارة السلاح في العالم الثالث، قضايا عربية العدد ١١ لسنة ١٩٨٠ ص٢٤٥.

الخاتمة

لعل قراءة كتاب _The White House Years ,By Henry Kissinger_ _Weidefld & Niclson 1979_. الذي يقع في أكثر من ألف وخمسمائة صفحة لمذكراته وملاحظاته يعطي فرصة للقارئ في تحليل وجمع الأفكار والسياسات للكيسنجرية، وإذا أراد القارئ أن يربطها بمجمل السياسات والأفكار التي سبقتها سيجدها بالتأكيد نمطاً يفرز الكثير من التجديد في التخطيط والتنفيذ للسياسة الخارجة النفطية للولايات المتحدة الأميركية، وإذا ما أخذنا موضوع بحثنا المتعلق بالجزء الثاني من كتابه المذكور، سنجد قوة وفاعلية وغرابة التخطيط والتنفيذ عندما أنتزع فصل السياسة النفطية العربية من حيثيات الصراع العربي الأسرائيلي والى الأبد، مقابل أنسحاب أسرائيل من كامل سيناء المنزوعة السلاح والعائدة لمصر التي أصبحت صديقة واشنطن والعاملة على طرد النفوذ السوفيتي منها ومن المنطقة.

والحقيقة الثانية هو ذلك التشخيص البلغ الخطورة لأهمية الأقتصاد من خلال سلعة النفط الستراتيجية كأداة في الصراع والمواجهة مع العالم الشيوعي الذي تكاثف نفوذه وقوية شوكته ووصلت حلقات نفوذه إلى "الشرق الأوسط" وجيران الولايات المتحدة الأميركية، ناهيك عن سيطرته على أهم المواقع المطلة على الممرات المائية العالمية، فكان الطرد التدريجي لهذا النفوذ بأعادة أحياء القوة الأقتصادية والموائمة بين السياستين الخارجية والنفطية، وعدم قبول الهزيمة والتقهقر من الشرق الأوسط كما حصل في فيتنام، حصل هذا في داخل بيئة نفسية أميركية ترفض الحرب وتصعيد النزاعات أثر الخسائر البشرية والمادية لحرب واشنطن الطويلة في فيتنام، وفي بيئة نفسية دولية قائمة على الأنفراج الدولي وتجنب الحروب التي قد تؤدي دمار شامل أثر الأنتشار للسلاح النووي ومقذوفاته الجوية والأرضية والبحرية، والحقيقة الثالثة تلك الصياغة العملية في السيطرة على تفاعل الأحداث إلى الشكل الذي أدى بعودة الرأسمال النقدي من الدول النفطية الغنية إلى الشركات العملاقة التسليحية والنفطية والصناعية المترابطة في الأقتصاد المالي العالمي الرأسمالي من خلال خلق حاجة أمنية مستديمة لدول المنطقة تدفعهم على الدوام بأتجاه واشنطن، الكيسنجرية أعطت منافع جمة للولايات المتحدة الأميركية لم تتحدد بأعوام العمل الرسمي للوزير كيسنجر ١٩٧٢م-١٩٧٧م، بل تعدت ذلك لتضع بصماتها في مجمل التغييرات التي أدت إلى أنفراد واشنطن على قمة النظام الدولي بعد نهاية عقد الثمانينات للقرن الماضي.

عرض كتاب:

التوازن العسكري ٢٠٠٤-٢٠٠٥

نشر وترجمة مركز الخليج للأبحاث -الأمارات

المدرس المساعد

سهيلة عبد الأنيس(*)

نشر الكتاب اصلاً باللغة الإنكليزية من قبل مطبعة جامعة أكسفورد لصالح المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ٢٠٠٥
عدد صفحات الكتاب ٦٨٤ صفحة

منذ نهاية الحرب الباردة اصبحت المنهجيات التقليدية في التفكير العسكري والتخطيط الدفاعي تفوق قدرة الحكومات على التعامل مع التهديدات المتنوعة والمتصاعدة التي تمثلها دولة اخفقت في اداء وظيفتها او جهات فاعلة غير دولية، وكانت احداث الحادي عشر من ايلول ٢٠٠١ خير دليل على ذلك، الى ذلك فان تطور مفاهيم الدفاع في بعض البلدان يبقى رهينة ارادة الحكومات واعتباراتها السياسية مما يحد من قدرتها على التصدي للتحديات الجديدة في الوقت المناسب.

ان دراسة التوازن العسكري ٢٠٠٤-٢٠٠٥ التحليلية تظهر ان هذا الاتجاه مازال قائماً في بعض الدول، وبدأت دول اخرى في ايجاد طريقة للعمل بفاعلية اكبر ضد طفرة التهديدات العالمية التي تسيرها العولمة وتحرير التجارة وضعف الحدود، وفوق هذا فثمة اشارات الى تعاون عسكري اكبر بين دول كانت على خصومات تاريخية، مما يشير الى امكانية ظهور اتجاهات جديدة في التعاون الدفاعي.

ان التخطيط الدفاعي في عام ٢٠٠٤ (أي بنية القوات المسلحة وتجهيزها واستخدماها) كان تخطيط معقد بسبب الطبيعة غير المتبلورة للتهديدات الامنية التي زاد عددها، والتي فرضت تحديات على سيادة الدول بالمعنى المفهوم تقليدياً، ولهذا تقوم الحكومات حالياً بالبحث عن طرق جديدة تتصدى بها الاخذة في التشابك اكثر فاكثر، فالارهاب والتجارة غير المشروعة والجريمة المنتظمة امور محكمة التشابك، كما ان ازدياد عدد الجماعات المسلحة غير الحكومية ذات القدرات العسكرية يعتبر تحدياً متنامياً، حيث ان كثيراً من هذه الجماعات تتعاون فيما بينها تعاوناً تجارياً وعسكرياً ايضاً، ولذلك فان التحدي المفروض على الدول يتمثل في ايجاد طريقة تتكامل من خلالها قواتها المسلحة وقوات ضبط الحدود وقوات الشرطة في تركيبة بنيوية تستطيع ان تتعامل مع اخطار القرن الحادي والعشرون وتديرها ادارة فاعلة وفق نهج يتسم بالسلاسة والتناغم.

(*)كلية العلوم السياسية -الجامعة المستنصرية.

من هنا اخذ البعض يفكر جدياً في مفهوم وكالات الامن المشتركة وميزانيات الامن المشتركة وكذلك امكانية ايجاد نوع من المبادئ المشتركة لمساعدة القوات المسلحة الوطنية، (كل وفق تقاليده وخبرته) على مواكبة المهام الكبيرة والمتنوعة التي تواجهها، فبعض الدول تعمل على احداث برامج تحول خاصة بها لايجاد طريقة عمل شبكية في الدفاع والامن، وان كانت الانظمة الشبكية سيظل اثرها محدود ما لم تتكامل وتتوافق مع انظمة الدول الاخرى. وتركز البرامج الاكثر تطوراً بصورة متزايدة على الانظمة القضائية وتحاول ان تدمج كل وكالات الامن الحكومية في قالب شبكي مركزي يتمكن من تنفيذ عمليات سلسة ومتناغمة على مستوى دولي.

ان التغير في بنى التحالف التقليدي وظهور تحالف التوافق متعددة الجنسيات او ما يسمى..ائتلافات الراغبين..التي تحشد لتكوين عدد كاف من القوات لتنفيذ العمليات، قد نتج عنه تجميع عدد كبير ومتنوع من "الحلفاء المؤقتين" وقد انتج ذلك تحديات جديدة من جهة التوافقية وامكانية التنفيذ المشترك للعمليات، بيد انه حتى بين حلفاء الاطلسي والشركاء الائتلافين يظهر امكانية التنفيذ المشترك للعمليات كقضية معقدة وليس ذلك لاسباب تتعلق بالتوافقية التكنولوجية فحسب، مما يؤكد ان "التوافقية النفسية" بين الحلفاء تتطلب ايضاً درجة من المرونة غير متوفرة في الوقت الحالي.

فالولايات المتحدة على سبيل المثال تواجه مشكلات في امكانية العمل المشترك مع بعض حلفائها، لان تركيزها على "القتال الحربي" الذي يفرط في التشديد على الحماية بالقوة العسكرية لا ينسجم بسهولة مع عمليات دعم السلام او تلك التي تم تحديدها ضمن ما يعرف باسم مهمات "بطرسبرغ" ان الائتلاف في العراق يعوزه التماسك بين عشر الى خمس عشرة دولة مشاركة فيه والتي تشكل فرقة متعددة الجنسيات، وليس اقل ما يحد من ائتلافها افتقارها الى لغة عمليات مشتركة.

قسم الكتاب الى ثلاثة اجزاء جاء جزءه الاول تحت عنوان امكانيات واتجاهات. تناول فيها الامكانيات العسكرية للقوى الدولية الكبرى امريكا الشمالية وخاصة الولايات المتحدة الامريكية وكندا ثم اوروبا والناتو وامكانيات اوروبا خارج حلف الناتو وروسيا ثم الشرق الاوسط وشمال افريقيا ووسط وجنوب اسيا وشرق اسيا واستراليا ودول الكاريبي وامريكا اللاتينية ثم بلدان افريقيا وجنوب الصحراء.

ويشير الكتاب الى ان سياسة الامن والدفاع الامريكية اتجهت نحو العمل على تعزيز مؤسسات الدفاع والامن الامريكية من تطوير المبادرات المعلنة في تقرير الدفاع ربع السنوي لشهر ايلول ٢٠٠١، والذي حاول ان يبتعد بتفكير الدفاع عن النموذج الحالي والمستند الى التهديدات والانتقال به الى اسلوب متطور يرتكز على القدرات حيث ان الاسلوب المتبع لتحقيق هذا الجهد تمثل في تحويل القوات العسكرية الامريكية لتصبح ضعيفة الحركة واكثر قابلية للانتشار، هذا بالاضافة الى اجراء اصلاحات تنظيمية محددة شملت توسيع قيادة العمليات الخاصة، الى ذلك يبين الكتاب حجم القوات العسكرية العاملة في الولايات المتحدة الامريكية وادرج ذلك في جدولاً تفصيلاً يوضح فيه حجم القوة العسكرية للولايات المتحدة الامريكية من حيث عدد القوى العسكرية العاملة والاسلحة والمعدات حتى نهاية عام ٢٠٠٥.

اما عن اوروبا داخل حلف الناتو فقد اشار الكتاب الى ان الجدل ما زال متواصلاً حول الدور المستقبلي لحلف الناتو في بيئة دولية متغيرة، ففي شباط ٢٠٠٥ اكد الامين العام الجديد للناتو "ياب دي هوب شيفر" في خطاب القاه في المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن مجدداً الحاجة الى تطوير القدرات والامكانيات حتى يتسنى للحلف تلبية المهمات الجديدة الملقاة على عاتقه، وذكر كخطوات رئيسية في هذه العملية قوة الرد التابعة للناتو وتعهد "براغ" بتطوير الكفاءات ومركز القيادة المتحالفة للتطوير، ووضح ذلك في جدول تفصيلي.

اما فيما يخص دول اوروبا خارج الحلف، فقد ركزت هذه الدول جهودها على الاصلاح والتحول العسكري، وقد بين الكتاب امكانات هذه الدول. وفيما يخص امكانات روسيا العسكرية فقد اشار الكتاب الى ان روسيا عملت من جهتها على اجراء اصلاحات عسكرية قام بها الرئيس "بوتين" كأحدى اولويات القوات المسلحة في روسيا الاتحادية، ولكن وفي العام ٢٠٠٣ تباطأت وتيرة هذه الاصلاحات بسبب تأثير الانتخابات الرئاسية ونتيجة لحالة التوتر المتزايد بين "سيرجي ايفانوف" وزير الدفاع و"اناتولي كفاشنين" رئيس هيئة الاركان العامة.

واشار الكتاب الى تشديد الرئيس "بوتين" على الحاجة الى ممارسة السيطرة المدينة على القوات المسلحة وعلى اهمية تطوير ادارة شؤون الدفاع وبنية القوات المسلحة، ووضح حجم الامكانات العسكرية الروسية في جدول تفصيلي.

وحسب وجهة نظر الكتاب ان الشرق الاوسط سيبقى منطقة يستمر فيها الحفاظ على القوات الثابتة المخصصة للدفاع الوطني اكثر منها للدفاع الجماعي السمة المميزة لقوائم الجرد الخاصة بها.

فقوات الدفاع الإسرائيلية تحتفظ بدرجة عالية تقدر بـ(١٦٨) الف فرد وتتمثل مهامها العسكرية الرئيسة بإخماد التهديدات المنطلقة من الأراضي الفلسطينية مع دعم قدراتها الأمنية المركزية في البحر وحماية حدودها الشمالية في وجه التهديدات القادمة من لبنان وسوريا.

بيد ان ما يمكن تصوره عن ازدياد التهديد الذي يمثله برنامج الصواريخ الباليستية الإيراني اخذ يمثل أولوية لواضعي خطط الدفاع الإسرائيلي، كما ان فوز العناصر السياسية المحافظة والمتشددة في الانتخابات العامة في شباط في إيران والمخاوف المستمرة من طموحات ايران النووية وموقفها المعادي لأمريكا وفر أرضية للقلق على الأمن الإقليمي، غير ان جهود ليبيا في نزع الأسلحة بشكل طوعي أظهرت طريقاً بديلاً للتعامل مع قضية انتشار أسلحة الدمار الشامل، إضافة الى تحسين الوضع الأمني في الشرق الأوسط على وجه اعم، ويمثل استمرار الوجود العسكري الأمريكي في العراق بؤرة تجتذب اليه الجماعات الإسلامية المسلحة غير الحكومة، والتي اختار كثير منها العراق كميدان للمعركة في الفترة الراهنة، كما ظهرت سلسلة من الحملات لقمع المتطرفين "الإسلاميين" وتشهد جمهورية اليمن حالة عصيان مسلح تقوده جماعات مسلحة شمال العاصمة صنعاء يفترض ان لبعضها علاقة بالقاعدة، وكانت القوات اليمنية الحكومية حتى منتصف آب تتابع عملياتها الهجومية على هذه

الجماعات، في هذه الأثناء يستمر الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي باعتباره عاملاً اساسياً محرضاً في كثير من حالات العنف الإسلامي ويأتي هذا في وقت تقوي فيه إسرائيل وضعها الدفاعي، وهي التي يرى كثير من العرب انها على علاقة لا انفصام فيها مع الولايات المتحدة.

ويستعرض الكتاب الوضع العسكري في العراق ما بين ٢٠٠٤-٢٠٠٥ وايران وإسرائيل وسوريا ولبنان ودول مجلس التعاون الخليجي.

اما وسط وجنوب اسيا فما تزال الصراعات تعكر صفو الحياة وتفسدها في هذه المنطقة حيث ما زالت عمليات المجابهة والتمرد ومكافحة الارهاب تمثل محور اهتمام كثير من الحكومات. ويشير الكتاب الى حجم الامكانات العسكرية وتطوراتها في كل من الهند والباكستان وسريلانكا والنيبال وبنغلادش وأفغانستان، وتطرق الكتاب الى بيان حجم الامكانات العسكرية في كافة دول المنطقة بالتفصيل.

وتناول الجزء الثاني من الكتاب البيانات الاقتصادية المتعلقة بدعم ميزانية الدفاع في دول كل من الولايات المتحدة اذ شهدت ميزانية الدفاع الامريكية للعام المالي ٢٠٠٥ زيادة تقدر بـــ(٧,٢%) في التمويل المطلوب لميزانية الدفاع الى جانب الميزانية الاضافية التي خصصت لتغطية النفقات العسكرية في العراق ٢٠٠٤ وعملت دول حلف الناتو الاوروبية من جهتها الى دعم ميزانيتها العسكرية بالشكل الذي يسهم في تطوير بنياتها العسكرية. واستعرض الكتاب حجم الدعم المالي للميزانية الدفاعية لدول اوروبية خارج حلف الناتو وروسيا ودول الشرق الاوسط وافريقيا ووسط وجنوب اسيا وشرق اسيا واستراليا ودول الكاريبي وامريكا.

وتناول القسم الثالث من الكتاب النشاطات غير الحكومية مشيراً الى مجموعات مسلحة غير حكومية موجودة في كافة دول العالم مقسماً في جداول موضح فيها اسم القوة غير الحكومية وحجمها ومكان تواجدها.

وختم الكتاب في القاء نظرة عامة على الارهاب العالمي، مشيراً ان الارهاب ازدادت مخاطره بشكل واضح بعد احداث حرب العراق التي بدأت في اذار ٢٠٠٣، الى ذلك احتوى الكتاب العديد من الجداول التفصيلية الخاصة بالقدرات العسكرية للدول كافة.

وهنا يمكن القول ان ما احتواه الكتاب من بيانات واحصاءات دقيقة وتفصيلية تشير الى ان حجم الامكانات العسكرية والميزانيات المالية المخصصة للدفاع في تزايد مستمر خصوصاً من قبل القوى الدولية الكبرى وفي مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية التي اخذت على عاتقها مكافحة ما عرف بالارهاب الدولي.

عرض كتاب:

الزبونية السياسية في المجتمع العربي

قراءة اجتماعية سياسية في تجربة البناء الوطني التونسي

تأليف: د. حافظ عبد الرحيم

المدرس المساعد

نصر دحام الشاوي(*)

يتباين مفهوم النخبة في المجتمعات حسب تطورها فلو تأملنا المجتمعات البدائية نجد الشعراء وكهنة المعابد والسحرة هم من يمثل دور مثقفي المجتمع أي النخبة وفي المجتمع البدوي نجد العرافين والحكماء وفي المجتمع الحضري نجد الفلاسفة والمتخصصين في المعرفة الإنسانية، وذهبت النظرية الماركسية الى ان المتغيرات العامة في المجتمع تحتمها العلاقات بين الطبقات المتصارعة وليست أفكار وسياسة النخبة، وقد تمحورت تعريفات النخبة بين اجتماعي يستند الى موقع الفرد في السلم الاجتماعي والربط بينه وبين الحقوق والمسؤوليات المترتبة على موقعه الاجتماعي وسلوكي يستند الى قدرة الفرد في التأثير في أفعال وسلوكيات الآخرين.

والنخبة في السياق السوسيولوجي العربي المعاصر تدخل ضمن هذا الاعتبار فممارسة الأعيان في تاريخ الحضارة الإسلامية كان لها حضور متميز في تاريخ السلوك الاجتماعي سواء كان مادي أو رمزي وكذلك النخبة التي عاشت ضمن سياق تاريخي، مع ظهور دعوة جادة ومستعجلة للخروج من ظلم الاستعمار الذي رافقه وضع اجتماعي متخلف، فالنخبة المثقفة الجديدة بدت أكثر ارتباطاً باهتمامات الجماهير ومشاغلهم وأخذت على عاقتها التنظير لتأسيس المشروع الاجتماعي إضافة الى مهام النضال اليومي الذي تلازم به المثقف والسياسي في ذات الشخص، فمرحلة النضال من اجل التحرر والاستقلال الوطني أبرزت ان الوظيفة الفكرية لا يمكن فصلها عن الوظيفة السياسية في الإشراف والتنظيم لأداء الحكومة فالمثقف يعتبر عاملاً من اجل تنمية بلاده وثقافته وهو الذي يمد (الحكام والجماهير) بالأفكار كما يلعب دور الوسيط فيما بينهم وبهذا احتل المثقف ساحة العمل السياسي منذ اللحظة التي بدأت فيها السياسة الوطنية في الوجود. إلا ان العلاقة بين الطرفين ليس سوى لحظة عابرة ولم تستمر طويلاً لان طبيعة الرهانات النضالية مدعاة للاختلاف بين الخيارات الاستراتيجية والخيارات التكتيكية وبين ما هو نظري وما هو عملي مرتبط بالممارسات اليومية مما يخلق الفجوة بين الطرفين وتزيدها عمقاً الخيارات الإيديولوجية وطبيعة مرجعيتها الحضارية

(*)كلية العلوم السياسية ـ الجامعة المستنصرية.

والفكرية وأصبحت العلاقة فيما بينهم علاقة تنافسية للحصول على اكبر هامش من المساندة أو ان تقوم المؤسسة السياسية احتواء المثقف ليدافع عن خيارات لم يؤسس لها.

فعلاقة المثقف العربي بالموروث الاجتماعي (الماضي، اللغة، الثقافة) يعطي خطابه وزناً ولفعله صلابة وتكمن أزمته في تغييب البعد التاريخي، فالمثقفون العرب انقسموا الى من يتأسس على التقليدية ليعمق بذلك البعد التاريخي لدولة الاستقلال أو من يندفع نحو الانتقائية والانفتاح على كل التيارات دون مراعاة لكل تجربة. فالسياسة الثقافية للدولة الوطنية التي تهيمن عليها البرجوازية الصغرى أنتجت نوعاً من الاغتراب العربي لاعتقادها في الايدولوجيا التكنولوجية وهي برجوازية ذات مكانة ريادية رغم افتقارها الى السلطة حيث إنها تمثل الأغلبية العظمى من سكان الحضر. ولكن تكامل المجتمع يأتي بتكامل ثلاثة إطراف (رجل الدين – السياسي – ممثل ومنجز الأنشطة العلمية والتقنية) وهذه الإطراف مسؤولة عن تأخر المجتمع العربي، فرجل الدين متمسك بالتقاليد التي عفا عليها الزمن والسياسي المحتل لدور رجل الدين ويعتقد ان الإسلام صالح لكل زمان ومكان ويتماشى مع أي نظام ونصير التكنولوجيا يعتقد بإمكانية التوصل الى تحقيق التنمية عبر العمل والتصنيع، فالعامل السياسي لا يحتل الأولوية في تفسير التغيرات الحاصلة لانه سمة من سمات حقيقة أكثر تعقيداً وكل صنف من الأصناف السابقة بشكل من النخبة.

لقيت التجربة التونسية صدى لدى الباحثين المهمتين بها وبمسار تطورها من حيث نشأة النخب السياسية ودورها وأهمها دراسة س.هـ موور الذي انطلق من مرتكز نظري ان الوعي الوطني يرتبط بالديناميكية المتغيرة للمجتمع وهي على ثلاثة مراحل مرت بها التجربة الفرنسية الأولى مرحلة التمثل الليبرالي وهي الانفتاح على قيم الحضارة الغربية متمثلة بحركة (الشباب الفرنسي) احتداء بـ(شباب تركيا). والثانية مرحلة المناهضة التقليدية للوجود الاستعماري عبر الخيار الإصلاحي بالاعتماد على المبادئ الدستورية الليبرالية والثالث مرحلة المناهضة الراديكالية للوجود الاستعماري من خلال إرساء معالم فعل نضالي داخل أوساط العامة عبر إشراك مختلف الفئات الاجتماعية وتمثلت بالحزب الدستوري.

إما عبد الباقي الهرماسي فقد صنف التوجهات الإيديولوجية للنخب في المجتمع، فكانت الأولى ذات توجه قومي ديني ويحمل لواءه (العالم) المثقفي والمتعلم تقليدياً والمتمسك بالمنطلقات الدينية التقليدية والمنحدر من بيئة حضارية والثاني توجه عصري ليبرالي ويحمل لواءه نموذج المثقف المتعلم في الجامعات الغربية عامة والفرنسية خاصة واستهلم إيديولوجيته من مبادئ الثورة الغربية والثالث توجه راديكالي انطلق من فكرة الإصلاح ابتداء من البنى السفلية ويعتبر الفعل النضالي استجابة لتطلعات الجماهير الواسعة دون استثناء.

إما ل.س.براون انطلق من أساس نظري يتمثل في تطور مسار الحداثة لهذه التجربة متمثلة بأربعة مراحل، الأولى مرحلة التكوين متمثلة بدعوة النخبة الى إرساء دعائم حداثة لم تكن مألوفة من قبل، والثانية مرحلة تقليد المستعمر لفرض إثبات كفاءة السكان الأصليين من السير على منوال المستعمر بممارسة فعل سياسي حديث وتبني أيدلوجية ونظرية لا تتعارض مع المقولات الإسلامية الأساسية حيث يرمي الى إثبات شرعية السكان الأصليين في المشاركة في الفعل السياسي في ظل السلطة الاستعمارية والثالثة مرحلة تأسيس الحزب

الجماهيري وهي المرحلة التي بموجبها وضحت هذه النخب للجماهير هويتها من خلال إقامة المصالحة الإيديولوجية مع الجماهير لاكتساب مزيداً من الشرعية الجماهيرية وان كان ذلك على حساب سلمية العمل النضالي الذي اختارته والرابعة مرحلة نهاية الوضع الاستعماري وهو مرحلة رد فعل ضد الوجود الاستعماري من خلال التحالف بين النخب السياسية والجماهير ليتوجه العمل النضالي بعد ذلك الى معركة البناء، وقد عانت تونس من مشكلة برزت نتيجة خروجها من ربقة الاستعمار وهي النقص الحاد في الكوادر المنجزة للعملية التنموية التحديثية نتيجة جلاء عدد هائل من الموظفين الفرنسيين في الإدارة التونسية دون إيجاد بديل قادر على تغطية هذا النقص إضافة الى سوء توزيع الكوادر المتوفرة آنذاك ما بين القطاع الإداري والمؤسسات الاقتصادية وهي مشكلة المجتمع بفئاته المختلفة الذي سعى لمواجهة الصعوبات بقيادة نخب تنحدر من مرجعيات مختلفة الى حد التقاطع ومنها من تكون على مقاعد الدراسة الفرنسية وأخرى تكونت في المدرسة الصادقية حيث تتكامل فيها التكوين العربي مع الفرنسي المستوحى من مناهجه الأوروبية وأخرى راهنت على التكوين الزيتوني (خريجي جامع الزيتون)، حيث حددت هذه النخب الخصائص البنيوية والمؤسسية للمجتمع التونسي بعد الاستقلال. ولكن الملاحظ ان صنع القرار أصبح رهينة بما تصدره السلطة المركزية وتمليه بشكل واجب التنفيذ لضمان تشغيل منظومة الدولة اقتصادياً وسياسياً.

خلال المرحلة التعاضدية التي راهنت على تحديث المجتمع ابتداء من عصرنة الفلاحة فكان هناك نظام القرابة في حضور الاعتبارات التقليدية كونه عامل يؤثر على الأداء السياسي والاقتصادي للمتعاضدين الذي هم أصلا من الريف ولهم نظامهم القيمي إلا إنهم عجزوا عن فرض تغيرات مهمة للتخلص من هذا النظام خلال ممارستهم لعملية البناء، فالاتصال الأول الذي تم بين الريفيين المؤهلين لدخول نظام التعاقد وبين الكوادر المشرفة على العملية تتم بواسطة الشيخ (العمدة) باعتباره سلطة تنفيذية والذي اقترح بدوره الأعضاء الثلاثة داخل مجلس التعاضدية، فكانت المجالس الأولى ممثلة من قبل التجمعات العائلية الكبرى (عائلة الشيخ) وممثلي العمال ذوي الكفاءات وأصبح توزيع المساكن داخل كل قرية يتم تبعاً للانتماءات العرقية نظراً لقربهم من (الشيخ).

ان الفلاحين الريفيين لعبوا في هذه المنطقة دور الحركات القومية المجتمعين على التمايز وإنهم يثوروا باسم الأمة وليس باسم القبلية لتصبح فيما بعد حركات مطلبية، وكانت تبدأ قوية وتنتهي بالمصالحة بين الأعيان والسلطة المركزية ثم القضاء على جذورها، إما أوساط الشباب في أحدى مراحل تطورها حملت رغبة في الانتماء الى ايدولوجية محددة، فلم تستطيع الماركسية أو ايدولوجية النخب الحاكمة ملئ هذا الفراغ بقدر الايدولوجية الدينية التي جاءت معبئة لهذه الرغبة. فالخطاب الرسمي أو الماركسي لم يطرح نفسه بالجدية اللازمة مسألة الهوية الثقافية والتمايزات الاجتماعية مما أدى الى بروز أزمة زعزعت الخطاب التعاضدي الاشتراكي والخطاب الرسمي لتمر البلاد في أزمة تسيير أجهزة الدولة عام ١٩٧٠-١٩٧١ ثم رفع شعار الانفتاح.

عرف معجم علم الاجتماع الحراك الاجتماعي بأنه الإمكانية التي يمتكلها الأفراد أو الجماعات في منظومة اجتماعية من اجل تقييد المكانة التي يتملكونها سواء كانت مهنية أو اقتصادية أو جغرافية.

فآليات الحراك والإشكال التي يتخذها ترتبط بمستويات الأول، أنماط السلوك الفردي من خلال تمثل الفرد لذاته وللآخرين والثاني أنماط التنظيم الاجتماعي فتمثله بعلاقات القرابة والمكانة الاجتماعية من خلال الانتماء الى المجموعة الى ينتمي إليها الفرد والثالثة أنماط التنظيم السياسي فتمثله اساساً في التجسيدات السياسية وينطلق من مساهمة الفرد في الحياة المهنية ومساهمته في تراكم الثروات الاقتصادية أو بالنظر الى الأصل الاثني أو القومي أو الانتماء الى مجموعات دينية أو اكتساب خبرة ثقافية.

ان حصول الثورات الاجتماعية في المجتمع يرجح الى انخفاض حصول حراك اجتماعي فيه لعدم قناعة الفرد أو المجموعة بالمكانة التي يحتلها ويسعى الى تحديد موقفه انطلاقاً من داخل البنية نفسها بمثابة سبيل لتغيير مكانته. ومن هذا اختارت حكومة البناء الوطني التعليم للخروج من وضع التخلف وبذلك خصصت اعتمادات فاقت بمجموعها ما خصصته دول أخرى آنذاك في هذا المجال واحتل رهان التعليم بعد الاستقلال موقع الصدارة وتم ربط تخطيط التعليم مع التخطيط الاقتصادي والاجتماعي بغية إعداد أفراد قادرين على المساهمة ايجابياً في جهود الإنتاج إلا ان هذا الربط كان ربطاً عقيماً حيث كلف الدولة جهداً لا تتحمله وتم تعديل ذلك بعد التوصل الى مفهوم ان مشكلة التشغيل لا يكمن حلها بين ثنايا نظام التربية والتعليم. فربط العملية التعليمية بالحراك الاجتماعي تبقى نسبية لان الظاهرة الاجتماعية تأبئ الربط الآلي بين نسبة الحراك الاجتماعي وبين التوسع في قاعدة المتعلمين والتي قد تؤدي الى اهتزاز شرعية السلطة القائمة.

في المؤسسة العلمية يعتبر العلماء العاملون هم المكون الأساسي بالمجتمع باعتبارهم النخبة التي تمثل أهل العلم وأهل الدولة مقابل العامة التي تمثل جميع المؤمنين، ولكن قرارات رجل العالم كانت تتخذ تحت جلباب السياسة فالمؤسسة الزيبونية كانت توفر الوسائل الأساسية فقط لعالم المستقبل لممارسة مهنة (العدل-التدريب-القضاء) ومضامين أخرى لتكوين عالم المستقبل القابل للاحتواء ورغم الإصلاحات التي جرت على المؤسسة الزيتونية لم تخرج من محاولات الاحتواء السياسي وكان أنشاء المدرسة الحربية بباردو عام ١٨٤٠ التي كانت الأداة المنتجة لنخبة مغايرة لحزبي جامع الزيتون وجاءت المدرسة الصادقية ضمن الهدف نفسه وهو تخريج موظف الدولة المنفذ لاختياراتها وكانت سمة طلبة هذه المدارس انهم من أبناء العائلات الكبرى فقط لغاية الحرب العالمية الأولى حيث توسع القبول بعد ذلك ليشمل باقي شرائح المجتمع ورغم ذلك استأثرت منطقة الساحل بنصيب الأسد من الخريجين. فالصعود الاجتماعي كان في صالح البرجوازية الساحلية الصغرى والذين كان يسمح لهم بمواصلة التعليم في أوروبا على التعليم الزيتوني ذو الطابع الشرعي والذي تعادل شهادته التعليم الثانوي. وجرى الإصلاح التعليمي للمدرسة الزيتونية عام ١٩٣٣ بانتداب المدرسين استناداً الى معيار الكفاءة من دون النسب (لكون العائلات الحضرية العريقة نجحت في الحفاظ على حظوظها العلمية والاجتماعية داخل هذا المحفل العلمي) مما أدى بهذه العائلات الى معارضة

الإصلاح، ورغم الإصلاحات المتكررة لهذه المؤسسة للفترة من ١٨٧٠-١٩٣٣ إلا إنها لم تمس جوهر المشكلة الزيتونية بل ظلت في تراجع مستمر مقابل تصاعد متزايد للمدارس العصرية في الإقبال من قبل الإدارة على خريجيها نظرا لتكوينهم العلمي العصري المزدوج اللغة. وبرزت مطالبات وطنية عديدة من اجل التعلم وإنشاء مؤسسة جامعية وطنية.

تألف المؤسسة السياسية من الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتتحقق شرعيتها من خلال الممارسين للفعل السياسي المؤمنين بمبادئها وأهدافها والمدافعين عنها وهؤلاء لا يمكن ان تنتجهم إلا المؤسسة التعليمية، واختلف العلماء من حيث علاقتهم بالسلطة السياسة الى ثلاثة أنماط الأول داعم لسلطة (الباي) ومرتبط بها وظيفيا والثاني داعم له وفاضح لسياسة العمال والثالث معارض لا يتوانى عن فتح مظاهر الفساد واللا شرعية ولكون الباي يمثل سلطة دنيوية وليس حجر الزاوية للنظام السياسي الإسلامي. فالتحالفات قائمة بين العالم والسياسي لإجماعهم على الإصلاح السياسي عبر هاتين المؤسستين العلمية والسياسية لتأسيس مجتمع ينفتح على المنجزات السياسية والفكرية للجانب الغربي فالتونسة لم تكن وليدة النخب الوطنية التي بنت الدولة الوطنية بتونس ونشأت ما يسمى بالقومية بنشوء نخب جديدة ذات فكر ليبرالي راديكالي وولدت حركة الشباب التونسي المهتم بالسياسة والتنسيق مع الجماهير لتحقيق التحرر الوطني وخاصة بتشكيل الحزب الدستوري عام ١٩٣٤ على انقاض الحزب القديم وأصبح يمثل اكبر شرائح المجتمع أيدلوجيا وجغرافيا وطبقيا (العاصمة وخارجها-الريف والحضر برجوازية صغرى وكبرى-أبناء فلاحين صغار أو صناعيين-أبناء عاطلين عن العمل) وتمحورت هذه النخب الى توجه قومي يركز على إعادة تأكيد الهوية الثقافية والدينية والوطنية والثاني التيار الليبرالي المتأثر بنموذج الثورات البرجوازية ومتمسكين بالدستور والثالث التيار الراديكالي المنادي بالتعبئة الشعبية. ولم تخلو مسيرة التعامل الوطني من خلافات دفينة قد تنفجر في أي لحظة تعود الى ارتباط تونس بالمكون العربي الإسلامي، فتاريخ تونس لدى بورقيبة ليس فقط تاريخ العرب والمسلمين بل قبل ذلك كان الرومان والقرطاجنيين والمسيحيين وإما عند الآخرين فهو في الأساس عربي إسلامي، فالتوجه الأول مثل في اول مجلس نيابي ٥٥ نائب والثاني ٥٣ نائب مما جعل بورقيبة يسعى لاحتواء المجلس من خلال دعوته لإنجاز الدستور ورفضه لدعوة التقليديين وتقديم الهوية الثقافية للدولة الجديدة على التحديد القانوني لها لان العروبة والإسلام ليل سوى انتماء ثقافي ديني وليس سياسي وجاء تصويت المجلس لهذا المقترح نهاية القوى المحافظة فيه.

احتكر الوجهاء الحقل المعرفي لتحقيق قيمة رمزية مضافة لهم لما يتمتعون من حرية الفعل ورغم ان الوظائف كانت مقسمة بين الاتراك في المجال العسكري والمماليك في المجال السياسي والسكان الأصليين في المجال العلمي وساعد انتقال السلطة من يدي البايات الى يدي المستعمر هذه العائلات في التكييف على الواقع الجديد رغم تعرضها الى اهتزازات من خلال صعود بعض الفئات المتمثلة بالتجار والإداريين الهنود واليهود وقسم ضئيل من البرجوازية التجارية التونسية وبعض ملاك العقارات، وتعرضت الجماهير الريفية الى التفقير وسلب للممتلكات فبرزت البروليتاريا التي لم تكن مألوفة من قبل وانقسم المجتمع التونسي الى عدة فئات الأولى رجال المخزن وهم كبار موظفي الاستعمار من أبناء أسر سابقة في خدمة

البايات وإدارة ممتلكاتهم والثانية المثقفون الذين اختاروا المهن الليبرالية وينحدرون الى البرجوازية ورفعوا شعارات مجتمع عصري والثالثة كبار الملاك فتقاسموا مع الفرنسيين عوائد سوق فرنسية محمية ورجال الأعمال انشؤا شركات صناعية وتعاونيات ودخلوا في ميدان التجارة وان كان حظ بعض الأفراد بالنجاح فأن المشاريع الجماعية منيت بالفشل إما طبقة التجار فقد اندمجت داخل الدورة العصرية بصفة موظفين صغار، فالسلطة الاستعمارية أعادت توزيع المراتبية المألوفة داخل المجتمع في مكافاة هذه العائلات أو تعاقبها بالإقصاء أو الاحتواء قياساً لمدى الولاء، إما مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى تجسمت سيطرة العائلات البرجوازية واستمرت بأحتكارها المناصب العليا وفي المرحلة الثانية شهدت منافسة البرجوازية الصغرى لها وحتى بعض الأفراد من عادة الشعب.

اما نخب ما بعد الاستقلال (بعد ١٩٥٦) تميزت بضبابية المناهج وعمومية الشعارات التي جاءت بشكل عاطفي نتيجة الفرحة بالاستقلال، وكان مبدأ الوحدانية هو السائد، فالأحادية تحكم كافة المجالات الثقافية السياسية الدينية الاجتماعية عبر محاولة لخلق وعي موحد وبناء شخصية وطنية موحدة تعمل بالأدوات والمناهج ذاتها وترمي الى الأهداف نفسها حيث حصل الاندماج التام بين الحكومة والحزب بناء لرغبة الرئيس بورقيبة في ممارسة الرقابة على كل شيء لما توفره من احتواء للنخب وتعبئتها لخدمة مشروعه والتعاضدية اتخذت وسيلة لممارسة الرقابة على الجماهير الريفية البعيدة عن رقابته، وعمد الحزب الى توفير الفرص لغير ذوي المستوى العلمي للالتحاق بصفوفه وخاصة بالمدن (خارج العاصمة) وتلقين الجماهير مبادئ البورقيبة وتم تشكيل المنظمات والجمعيات لنفس الغرض ومنها (حماية الأطفال والشبان) (الاتحاد العام لطلبة تونس) وبهذا سمح للحزب بأن يمارس رقابة سياسية وثقافية في مختلف فئات المجتمع.

إما علاقة مجلس النواب بالحزب فأنها كانت تقوم على الانسجام التام من خلال تشكيل المجلس فجميع النواب يتم انتخابهم عبر قائمة موحدة معدة من قبل الحزب وبناء عليه فأنه لا يوجد أي نائب الى نهاية الثمانينات ينتمي الى حزب معارض..

يتعارض تجميع السلطات لدى الرئيس مع القدرات البشرية للفرد مهما تكن واسعة وبناء على ذلك وزع الرئيس السلطات والمسؤوليات في إطار التكامل بين الأدوار لتجنب الوقوع في الخطأ ولم يتردد الرئيس في تهميش المؤسسات المنافسة وغدا شخصه مصدراً للشرعية على ان تكون القاعدة الجماهيرية مصدراً لشرعيته وكان إسناد المسؤوليات يعتمد على رأيه لشخصي وثقته في المكلف وليس مدى الكفاءة أو القدرة المهنية وكان مالك للسلطة ويتصرف فيها من منطلق الوصاية فهذا الأسلوب لم يكن دستورياً لان الدستور يكلف الرئيس مباشرة بإدارة جميع المهام وما أزمة عام ١٩٦٩ إلا وتقع مسوؤليتها عليه لان هو من عين رئيس الوزراء وسانده في خلافة ضد معارضيه داخل الحزب، وجاء دستور ١٩٧٦ المخرج القانوني لاسترداد الزعيم لشرعية التي تعرضت للاهتزاز والذي جاء استجابة لهذه الرغبة والذي نص على إمكانية الرئيسي بممارسة الحكم الفعلي بواسطة حكومة تتحمل وحدها المسؤولية في حالة حصول الأخطاء، وبهذا صنع الدستور (على مقاسه) فبأمكان التخلص من

بعض الأدوار دون ان يخسر الرقابة على الدولة بفضل حكومة خاصة بـه لـيس حكومة الأغلبية أو حكومة برلمانية.

ظهرت العديد من الأصوات من داخل وخارج الحـزب الحـاكم تنـادي بالانفتـاح السياسي ودمقرطة الحياة السياسية داخل وخارج الحزب إلا ان هذا الخلاف الجوهري حسمه بورقيبة باتجاه الانفتاح الاقتصادي فقط والأصوات الانفتاحية داخل الحزب كـان مصـيرها الإقصاء وتمثلت الأصوات خارج الحزب بالاتحاد العام التونسي للشغل ومجموعـة المثقفـين الداعين لمشروع الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان ولكن هذه الدعوات بقيت علـى مستوى الخطاب وأكد المؤتمر التاسع للحزب عام ١٩٧٤ على ان الحزب الحكام هو الجـامع للجماهير الممثلة للقاعدة وتأكيده على الاحتواء الذي يمارسه على هياكل المجتمع المدني.

ان الانفتاح الاقتصادي تسبب في زيادة سكان المدن بسبب نمو ظاهرة النزوح مـن الريف الى المدنية وأدى الى تجدد المجتمع وتنوعه وبـروز مثقفـين ذوو آراء نقديـة أرادوا التطوير وكذلك أصدر الليبراليون المنشقون عن الحزب الدستوري بياناً عام ١٩٧٦ انتقـدوا فيه سياسة الحزب الحاكم وطالبوا بالسماح للمعارضة السياسية لممارسة حقها فـي التنظـيم والتعبير إلا ان لغة الحوار وصلت الى طريق مسدود فكان الشارع أفضـل وسـيلة للتعبيـر فكانت إحداث الخميس الأسود عام ١٩٧٨ تلتها إحداث قفصة عام ١٩٨٠ زادتها عنفاً لتكشف عن أزمة خفية لا يمكن احتوائها، ولجأت الحكومة الى تجديد شـرعيتها مـن خـلال عـدة تحولات أهمها السماح للاتحاد العام التونسي للشغل بعقد مؤتمره والـذي سـمي (المـؤتمر الخارق) والاعتراف باستقلالية المركزية الثقافية والاعتراف بالتعددية الحزبية ورفع الحضـر عن الحزب الشيوعي التونسي وتنظيم انتخابات تشريعية سابقة لأوانهـا بمشـاركة القـوائم المنافسة لقوائم الحزب الدستوري في انتخابات حرة ونزيهة محاولة من الحكومة لامتصـاص نقمة الشارع وكان مبدأ التعددية الحزبية مشروطاً بالاعتراف بشرعية دسـتور الـبلاد ونبـذ العنف وعدم الولاء لأية جهة أجنبية ثم أضيف شرطاً آخر هو الاعتراف بشرعية بورقيبة.

ان احتكار الممارسة السياسية من قبل الحزب الحكام أدى الى عدم تسيس المجتمـع المدني ومنع من قيام مؤسسات مؤهلة لاحتواء الممارسة السياسية وأدى الى غياب الممارسة التنافسية النزيهة التي انعكست على باقي هياكل المجتمع فأفراد الحزب يتم تصـديرهم الـى الدولة لإشغال مواقع الصدارة إما باقي المناصب فتوكل الى الخبراء أو النخب الفنية.

في الجانب الاقتصادي وخلال المرحلة التي تلت الاستقلال تميزت بالتردد وحملـت أعباء مخلفات المرحلة الاستعمارية إضافة الى تراجع نسبة النمو الاقتصادي بالرغم من اتخاذ الحكومة لإجراءات عديدة منها الاستثمارات الخاصة وتأسـيس شـركات كبـرى للتصـدير والتوريد مع محاولات لتطوير الريف إلا إنها لم تنجح في معالجة الوضع الاقتصـادي وفـي مرحلة الستينات وضع برنامج طموح إلا انه واجه ايضاً صعوبات متنوعـة فإضـافة الـى صعوبة التمويل برزت صعوبة تطوير الأساليب المعتمدة في التنفيـذ فالسياسـة الاقتصـادية عجزت حتى عن جذب المستثمرين وكانت هذه السياسة عرضة لانتقاد شرائح متنوعـة مـن المجتمع وفي فترة السبعينات شهد الاقتصاد انتعاشة ملموسة لارتفاع أسعار الـنفط وصـدور قانون ١٩٧٢ الذي يعطي امتيازات للصناعات المعدة للتصـدير ويسـاعد علـى اسـتقطاب

الرساميل الأجنبية وكانت هذه مرحلة الانفتاح الاقتصادي، إما النصف الثاني من السبعينات شهدت تقلصاً في نسبة النمو وكذلك في مستوى الاستثمارات والإنتاج.

ان التجربة التونسية قامت على هاجس التحديث الذي يتخذ في مبادئ الليبرالية اساساً للبناء الوطني تحت شعارات (الحرية-العدل-المساواة-المشاركة-التعددية) ولكن الدولة سعت الى ممارسة الرقابة على مختلف المؤسسات باسم الحداثة تحت سلطة سياسية أو إدارية محتكرة من قبل حزب واحد منذ الاستقلال، إضافة الى نهج الانفتاح الاقتصادي الذي اعتمد في السبعينات افرز نمواً للفوارق الاجتماعية وتدهور للطاقة الشرائية لضعفاء ومتوسطي الحال مقابل بروز نمط يعيش بذخ خاص وحياة مترفة هذا ما عجل في تنامي الأزمة الاقتصادية التي اتخذت شكل اضرابات عمالية ثم طلابية زادها عمقاً غياب الحوار الفعلي، ووجد الاتحاد العام التونسي للشغل نفسه في الواجهة فكان الأضراب تعبيراً عن هذه التطلعات، وهذه المحاولات جعلت السلطة تسعى الى احتواءه وتسترضيه وإعطائه حجمه الحقيقي في محاولة للهيمنة عليه.

عرفت الممارسات الانتخابية في تونس بعد الاستقلال خلال الأعوام ١٩٥٩-١٩٦٤-١٩٦٩-١٩٧٤-١٩٧٩ إلا ان القاسم المشترك فيما بينهم هو ان مرشحي الحزب الاشتراكي الدستوري لم يواجهوا أي منافسين في ظل الأحادية الحزبية، فالدستوريون فهموا الانفتاح على ان انفتاح الحزب على التشكيلات الأخرى سعياً لاستيعابها داخله والعمل معه جنباً الى جنب خدمة للمشروع الوطني إما مخالفوه فقد فهموه على ان انفتاح النظام السياسي على كل التيارات عن طريق التعددية السياسية.

ان المنافسة داخل المجالس النيابية كانت تتم على أساس الانتماءات الاجتماعية والانحدارات الجغرافية نظراً لدور كل منطقة في الحركة الوطنية فالمناطق التي مثلت مرتعاً لأنشطة الحزب الدستوري مثل الساحل التونسي بقي الحصن المنيع الذي يلجأ إليه الحزب ويتم اختيار أعضاء الحزب والحكومة من هذه المنطقة وقد شكلوا نسبة ٢١% من النواب في المجلس التأسيسي في حين ان عدد سكان المنطقة لا يتجاوز آنذاك ١٢%، إضافة الى ان علاقة الحزب بباقي هياكل الدولة تدعمت لذلك فمن المنطقي ان يتم اختيار النواب بناء على انتمائهم الحزبي في قوائم موحدة يعدها الحزب خالياً من نائب ينتمي الى المعارضة كما ان أعضاء الحكومة يكونون في معظمهم برلمانيين عامة ما ينتمون الى الحزب، ومنطقيا تأتي مسانده النواب للحزب نظراً للأرضية المشتركة فيما بينهم فالحكومة تحظى بدعم النواب ومن واجب النواب الاستجابة والخضوع لحكومتهم وبالتالي حزبهم في توجهاته واختياراته وتم العمل بموجب هذه المبادئ لغاية أزمة ١٩٧٨ ورفع شعار التعددية السياسية والانفتاح السياسي.

تبدأ الحملات الانتخابية بالتأكيد على ان انتخاب ممثلي الحزب للبرلمان هو انتخاب بورقيبة فالأحادية (زعيم واحد-حزب واحد-شعب واحد) هي الشعار الذي حكم جل البيانات الانتخابية كما ان بورقيبة لم يفوت فرصة للتخلص من منافسيه الفعلين على سلطته، فتتحول العملية الانتخابية الى وسيلة لإثبات تناغم الرؤى بين الحزب والشعب، وخلال الجلسات

العلنية لمجلس النواب فالتفاهم سيد الموقف ونقاط الاختلاف تكاد تكون معدومة بما لا يفسد العلاقة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية.

ان أول انتخابات سابقة لأوانها تمت عام ١٩٨١ في عهد شعاره الانفتاح السياسي والإصلاح لذلك علق الشعب عليها امالاً عريضة إلا إنها لم تسلم من التزوير والأمر نفسه تكرر في انتخابات عام ١٩٨٦ إذ طغى عليها لون واحد هو لون السلطة الحاكمة. ان هيمنة الحزب عمقت الشعور بخيبة الأمل لدى الشارع التونسي الذي كان ينتظر الشرارة القادحة ليجدها في رفع الدعم عن مشتقات الحبوب وكانت تظاهرات تلقائية فوضوية عنيفة تخفي ورائها رغبة في الاقتصاص من السلطة وتعالج مثل هذه الحالات من قبل السلطة بترسيخ حالة التبعية والتهميش باعتمادها الحل الأولي بالاستنجاد بسانقوة العسكرية وإعلان حالة الطوارئ للوصول الى هدوء مفروض لتمر بعد ذلك الى تصفية الحسابات داخل السلطة أو خارجها بحثاً عن (كبش فداء) إما عمق المشكلة الحقيقي فيترك جانباً.

اسند الدستور التونسي لرئيس الجمهورية صلاحيات عديدة منهـا اختيار أعضاء حكومته وإشرافه على القوانين وله ان يساهم بالوظيفة التشريعية واتخاذ قرارات وقوانين سواء بموافقة مجلس النواب أو خلال العطلة البرلمانية مع موافقة اللجنة البرلمانية التي يعينها المجلس ويحتفظ بسلطة أكثر أهمية خلال الظروف الاستثنائية. وفي عام ١٩٦٩ صدر قرار بتسمية وزير أول تنحصر مهمته بالإشراف على الحكومة مع اقتراح أعضاء الحكومة على الرئيس الذي له القرار النهائي، وهذا المنصب جاء استجابة لرغبة رئيس الجمهورية وجاء دستور ١٩٧٦ ليؤسس لهذا الاختيار في المادة الأولى الفصل (٥٠) كما ان النظام الرئاسي التونسي نظام برلماني لكن البرلمان لا يراقب الحكومة بل يراقب اختياراتها السياسية ولا يراقب الرئيس الذي يختار السياسة مستعيناً بالحزب لا بالحكومة، فعلى الرغم من ان النظام السياسي هو نظام جمهوري فان القرارات هي قرارات شخصية للرئيس رغم توفر الهيئات المؤهلة قانونياً لصنع القرار ومن خلال الممارسة يلاحظ تعطيل دور الحزب ومجلس النواب والنقابات في صنع القرار إضافة الى حالة ان من التجانس والألفة بين الحكومة ومجلس النواب، بحيث ان النائب الذي يخرج عن الخط المرسوم من قبل الحزب يفقد ثقة الحزب فيه وبالتالي نزع الثقة منه في مجلس النواب إضافة الى مجلس الوزراء يجتمع ليس على انه هيئة قائمة بذاتها بل هيكل تديره مجموعة من الوزراء المتنفذين ومجموعة من الوزراء أو حتى مع وزير معين، فالقرار ناتج عن إرادة شخصية للرئيس ومن هذا فان آرائه هي المرجع وقراراته هي الاصوب، إضافة الى الرقابة المطلقة الذي يمارسها الرئيس على كافة الأنشطة التنفيذية والتشريعية والقضائية وتطول ايضاً أعضاء حزبه، وله احتكارية بممارسة الفعل السياسي. واختيار الوزراء يتم عبر شبكات غير رسمية أي بالاختيار الشخصي، ويتم توزيع ميزانية الوزارات تبعاً لطبيعة علاقة الرئيس بالوزراء.

وبالنظر في الأنظمة السياسية الغربية مثل (الفرنسي والأمريكي) يلاحظ ان علاقات المنفعة المتبادلة ترتكز على عملية التعبير عن المصالح التي تمارسها جماعات تقع خارج دائرة التنظيم الرسمي وتجعلها مساندة للنخبة السياسية إما في أنظمة العالم الثالث ولا توجد مثل هذه الرعاية أو المساندة بل ان المساندة تأتي من داخل النخبة وتأثيرها من خلال قيامها

بتجنيد أعضاء جدد من النخبة داخل المجموعة نفسها وهده النخب لا تتغير رغم تغير التوجهات السياسية والاقتصادية وتغيير الحكومات والسياسيات، كما ان طبيعة النظام الشخصي للحكم لا يسمح بقيام جماعات ضغط خارج الهيكل الرسمي.

لقد تميزت النخب الوطنية برغبة تحديثية في التعديل على المؤسسات العائلية، فالعائلة هي الوحدة الاجتماعية التي يتجاوز دورها داخل البناء الاجتماعي الاضطلاع بالوظيفة البيولوجية بل إنها الآلية المحركة للبناء الاجتماعي وهذه الحقيقة نبهت بناه الدولة الوطنية الى ان من يمتلك العائلة يمتلك السلطة، فالقانون والتشريع ما هو إلا إفراز لسلوكيات الأفراد والمجموعات بعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ورغم التحديث الذي وقع للعائلة فأنها عجزت عن التخلص نهائياً من جذور النمط السابق فبقيت معلقة بين هذا أو ذاك فالملاحظ ان رئيس كل مؤسسة يقرب الأوفياء له فتنشأ دائرة من المقربين له ليس لكفاءتهم بل لوفائهم مثل الأب التقليدي الذي يقرب اليه من أبناءه الوفي المطيع وكذلك العلاقات الشخصية بين الرئيس ومن حوله فأنها علاقات تبعية شخصية إذ يمثل لهم الرئيس مرشداً أو أبا، إضافة الى اعتماد القنوات اللا مؤسسية باعتبار الأولوية وليس الكفاءة بما يدفع كل مسؤول الى محاولة كسب رضى ولي نعمته الذي يقدمه على أي واجب.

Ministry of Higher education
And Scientific Research
Al-Mustansiriyah UniversityCollege of political Sciences

The International and Political Journal



No.5 2006